مدخل إلى علم اللغة

الدكتور محمد حسن عبد العزيز
كلية دار العلوم - جامعة القاهرة

إلى الأستاذ الدكتور على عبد الواحد وافى مد الله فى عمره

وإلى الأستاذ الدكتور ابراهيم أنيس طيب الله ذكراه

أهدى هذا الكتاب وفاء بحقهما على

بسم الله الرحمن الرحيم

يجتمع علماء اللغة المحدثون ـ حين يريدون التعريف بعلم اللغة ـ على أنه الدراسة العلمية للغة ، يعنون بذلك استخدام المناهج العلمية في دراستها، وقد كان هدفهم من ذلك أن يجعلوا دراسة اللغة عملا دقيقا منظما على النحو الذى تحقق في دراسة العلوم ٠

ولكى تكون الدراسة علمية ينبغى أن تتوفر فيها سمات ضرورية هى : الوضوح ، والدقة ، والنظامية ، والموضوعية ، والشمول ، واليقين ٠

واللغة ظاهرة على جانب كبير من التعقيد ، فالعناصر أو الوحدات التى تؤلف نسيجها تنتظم منها صور أو أشكال لغوية لا حصر لها حتى ليبدو من المستحيل أن نصل الى أية نتائج صحيحة من فحصها الا اذا درست بمنهج على درجة عالية من التنظيم ٠

لا مندوحة اذا من منهج يساعدنا على اكتشاف النظام الذى يحكم اللغة ، وعلى وضع النظرية التى تفسر الطريقة التى يعمل بها هذا النظام ، هذا المنهج يعتمد على الأسس الآتية : تحديد موضوع الدراسة تحديدا دقيقا ، وملاحظة الظواهر المدروسة ملاحظة مباشرة ، وترتيب الملاحظات بشكل يكشف عن أوجه الاتفاق أو الاختلاف بينها ، ووضع الفروض التى تفسر الظواهر المدروسة واختبارها باجراء التجارب ، ثم وضع القاعدة التى تنطبق على الظواهر المماثلة للظواهر المدروسة ٠

وكنت قد انتويت الوقوف في معالجة موضوعات هذا الكتاب عند منتصف الستينات من هذا القرن ، اذ ظهر بعد هذا التاريخ اتجاه لغوى جديد تمثلت بدايته في كتاب (تشومسكى) Syntactic Structure الذى ظهر عام ١٩٥٧م، بيد أننى اضطررت اضطرارا الى التعرض لهذا المنهج الذى يعرف بالنحو التحويلى عند الحديث عن (السمات الضرورية للدراسة العلمية) فأوجزت القول في النزاع الذى نشب بين أنصار هذا المنهج وأنصار المنهج التجريبى ٠ ذلك أن المنهج التجريبى لاعتماده على الملاحظة المباشرة واجراء التجارب للتحقق من صحة الفروض لا يعتمد البتة على الاستنتاجات العقلية التى لا تخضع لهما ، على حين يعتد المنهج التحويلى بهذه الاستنتاجات ، ويصرح (تشومسكى) بأن هدف علم اللغـــة هودراسة الملكة أو الفطرة اللغوية ، والسبيل الى هذه الدراسة هو الحدس ، والحدس ـ كما هو معروف ـ لا يعد وسيلة من وسائل المعرفة عند أصحاب المنهج التجريبى ٠

وكان من آثار هذا النزاع أن ظهرت محاولات لازالة التعارض بين المنهجين، واقترحت طرق أو وسائل تصبح بمقتضاها الملاحظة والتجربة ممكنتين ٠

ويجتمع العلماء كذلك على أن علم اللغة بالمفهوم السابق الذى يميـــزه عن البحوث اللغوية التقليـدية التى كانت سـائدة قبل استخدامه علم حديث النشأة جدا ، اذ أرسى دعائمه العالم السويسرى الشهير (دى سوسير ١٨٥٧ ـ١٩١٣) بيد أن هذا لا يعنى أن البحث في اللغة بدأ فحسب منذ ذلك التاريخ أو أن الناس قديما لم ينظروا في اللغة ولم يدرسوها ، ان تاريخ البحث في اللغة قديم جدا يعود به بعض المؤرخين الى اكتشاف أول نظام كتابى في الحضارة المصرية والسومرية · ويكشف لنا هذا التاريخ عن العلاقة الوثيقة التى ربطت البحث اللغوى بالاتجاهات الفكرية والاجتماعية السائدة ، لقد نشأ البحث في اللغة عند الهنود للمحافظة على (الفيدا) كتابهم المقدس ، ونشأ عند الاغريق متأثرا بفلسفتهم ، ونشأ عند العرب للمحافظة على القرآن الكريم ، وبانبثاق عصر النهضة أسدل الستار على منطق أرسطو الذى كان قد سيطر على البحث اللغوى لفترة طويلة ، وظهرت العلوم التجريبية ، وتسابق علماء اللغة للاستفادة من هذه العلوم والانتفاع بمناهجها ، لقد نبعت أفكار(شلايشر) في أن اللغة جهاز عضوى من نظرية (دارون) وكان النحويون الشبان حريصين أشد الحرص على أن يصلوا الدراسة اللغوية بالعلوم الطبيعية ، ويجعلوا للتغير اللغوى قوانين ثابتة ثبات القوانين الطبيعية ، وقد انتفع (دى (سوسير) بعلم الاجتماع واصطنع المنهج الذى حدد (دوركايم) خطوطه لدراسة الظواهر الاجتماعية · وكان (بلومفيلد) متأثرا بالمنهج السلوكى في علم النفس الذى جاء به (واطسن) ·· الخ ·

ومن الواضح كذلك أن لغويي القرن التاسع عشر وجهوا اهتمامهم الى البحوث التاريخية والمقارنة ،ثم جاء (دى سوسير) في مطلع القرن العشرين فوجه الاهتمام الى دراسة اللغات الحية ، وحدد للباحثين المنهج الذى ينبغى استخدامه في دراستها وهو ما يعرف الآن بالمنهج الوصفى ، وبفضل هذا التوجيه تنوعت البحوث اللغوية وتوجهت وجهات مختلفة من أكثرها انتشارا اليوم البحوث التى تدرس علاقة اللغة بالمجتمع ، وتنوع الأنماط اللغوية بتنوع طبقاته ، وهو موضوع علم من العلوم اللغوية يعرف بعلم اللغة الاجتماعى ، والبحوث التى تدرس علاقة اللغة بموضوع الكلام وهو ما يعرف بعلم الأسلوب، وبتطور وسائل الاتصال ظهر الاهتمام العام باللغة وبدورها في المجتمعات المعاصرة ، ومن ثم ظهر مايعرف بعلم اللغة التطبيقى الذى من أهم مجالاته : تعليم اللغات الأجنبية وعمل المعاجم والترجمة الآلية·

وبعد فقد حاولت في هذا الكتاب أن أضع أمام الباحثين القدر الضرورى من المعارف اللغوية الذى ينبغى عليهم أن يبدأوا به اذا ما أرادوا التخصص

في علم اللغة · ولهذا عنيت بالحديث عما يسهم في تحقيق هذا الهدف فتكلمت عن السمات الضرورية للدراسة العلمية ، وحددت علاقة علم اللغة بالعلوم وبخاصة العلوم الاجتماعية ، وبالبحوث التطبيقية وبخاصة ما يتصل بتعليم اللغات الأجنبية ، ثم تكلمت عن علم اللغة كعلم اللغة الوصفى والتاريخى والمقارن وعلم اللهجات وعن مستويات التحليل اللغوى عارضا بالتفصيل أحد المناهج المقترحة في التحليل والذى يقوم على بيان الوحدات اللغوية وتحديدها وفقا لصفاتها التركيبية والتوزيعية والوظيفية ، وفي النهاية أوجزت القول في تاريخ البحث اللغوى ، فبدأت بالحديث عن الهنود الذين ظهر عندهم أول تفكير لغوى قائم على أساس الملاحظة وانتهيت بالحديث عن اللغوى الانجليزى (فيرث) · أما الاتجاهات اللغوية المعاصرة وعلى رأسها ما يعرف بالنحو التوليدى فتحتاج الى كتاب آخر ·

هذا وقد رأيت من الضرورى أن يبدأ الكتاب بمبحث تمهيدى في خصائص اللغة موضوع البحث في علم اللغة ، وقد اعتمدت في ذلك على ما ذكرته في الباب الأول من كتابى (مدخل الى اللغة) الذى ظهر في العام الماضى ١٩٨٢ ·

وانى لأحس بأن الباحث العربى المعاصر يتنازع وجدانه أمران : الوفاء للمناهج التقليدية التى مازالت سائدة حتى اليوم ، والاحساس للمناهج العلمية الحديثة التى تجد طريقها الى الناس على استحياء · ولعل هذا ما دفعنى دفعا الى تأليف هذا الكتاب والى العناية بالحديث عن المنهج العلمى الذى ينبغى استخدامه في الدراسة والذى يختلف في بعض أصوله عن المنهج التقليدى · ولا نحب أن يفهم الناس من ايثارنا المنهج الحديث في الدراسة أننا نرفض المنهج التقليدى ، ليس هذا صحيحا أبدا ، اننا نرفض من هذا المنهج ما يتعارض مع المنهج العلمى ونقبل ما يوافق هذه الأصول ·

وبعد فقد أخلصنا النية لما نعتقد أنه صواب ، وبذلنا غاية ما نستطيع لكى يضيف هذا الكتاب جديدا الى ما يعرفه الباحثون في علم اللغة ، فان كان ذلك فالله الموفق ، وان لم يكن فحسبى اخلاص النية وبذل غاية الجهد ·

د· محمد حسن عبد العزيز

بحث تمهيدي في خصائص اللغة

اللغة ظاهرة انسانية

قال الفلاسفة قديما الانسان حيوان ناطق ، يعنون بذلك أنه وحده القادر على وضع أفكاره في ألفاظ ، ويكاد يجتمع الباحثون على أن التفكير واللغة عند الانسان لا ينفصلان ، اذ لا يستطيع الانسان تخيل فكرة بمعزل عن الألفاظ التى تصورها ، ولن يكون الفكر المجرد عن الألفاظ ـ اذا أردنا الدقة ـ فكرا بأى مقياس ٠

حقا ان الحيوانات ـ وبخاصة الراقية منها ـ يتصل بعضها ببعض ويؤثر بعضها في بعض بالصياح أو بالاشارات أو بغير ذلك من الوسائل ، ولكن هذه الوسائل تختلف اختلافا نوعيا عن اللغة الانسانية ، كما أن الانسان يختلف نوعيا عن الحيوان ، فلم يكن الانسان يوما حيوانا ، ولن يقدر للحيوان مهما طال الزمن وعاش في بيئة انسانية ـ أن يكون انسانا ، فليس الانسان درجة في سلم تطور الكائنات الحية ، وليست لغته درجة في سلم التطور في وسائل الاتصال ٠

ولقد كان يعتقد الى عهد قريب أن اختصاص الانسان باللغة يرجع الى درجة ذكائه العالية التى تفوق درجة ذكاء الحيوان وظن أن ذلك راجع الى نسبة وزن دماغه الى وزن جسمه ، والى كبر المكان المخصص للتلافيف التى يعتقد أنها مركز الكلام ، وقد تقدمت البحوث التى تدور في هذا المجال تقدما باهرا ، وتؤكد هذه البحوث أن المنطقة اليسرى من المخ الانسانى تضم مراكز معينة لانتاج الكلام واستقباله وتفسيره لا نظير لها عند الحيوانات ، أضف الى ذلك أن ما يطلق عليه (أعضاء النطق) عند الانسان ـ وان كانت لها وظائف ضرورية أكثر من النطق ـ مهيئة لانتاج أصوات الكلام ، وليس كذلك الحال بالنسبة لنظائرها عند بعض الحيوانات ٠

وقد عقد الباحثون في ميدان الأنثروبولوجيا وعلم النفس وعلم اللغة مقارنة شاملة بين ما تستخدمه بعض الحيوانات من أشكال للاتصال بأفراد نوعها واللغة الانسانية ، ومن أهم ما انتهوا اليه في ذلك ٠

- الأشكال التى تستخدمها الحيوانات في الاتصال محدودة للغاية كما أنها محصورة في اطار ضيق من الغرائز والرغبات ، أما اللغة الانسانية فتبلغ أشكالها حدا لا يمكن حصره ، وتتسع مضامينها حتى تشمل كل تجارب الانسان ومعارفه .

- الأصوات أو الاشارات عند الحيوان رد فعل مباشر لما يحسه أو يتعرض له في بيئته ، أما الرموز التى يستخدمها الانسان فليس بينها وبين ما تدل عليه علاقة مباشرة ، ولو كانت كذلك لكان للبشر جميعا لغة واحدة ، وهذا معناه أن الرمز عند الانسان ينفصل عن المرموز (أو ما يشير اليه) أما الصوت أو الاشارة عند الحيوان فلا يمكن أن تنفصل أبدا عما تدل عليه .

- أن صيحات الحيوان لا تتضمن وحدات شبيهة بالوحدات التى تتألف منها لغة الانسان ، وتفتقر الى التأليف أو التركيب الذى توصف به ، والذى يجعل الانسان قادرا على تقسيم أى منطوق انسانى الى أجزاء ووحدات .

- لدى الانسان مقدرة هائلة على الخلق والابتكار ، أى خلق جمل جديدة وفقا للمواقف المناسبة ، انه يستطيع مثلا أن يؤلف جملا لم يستخدمها من قبل ، وأن يفهم جملا لم يسمعها من قبل ، أما الحيوان فعدد الأصوات التى يمكنه انتاجها محدود ، وليس لديه القدرة على تنويعها .

- يستخدم الانسان لغته وفقا لقواعد صوتية وصرفية ونحوية معقدة متعارف عليها بين أفراد جماعته وفقا للمواقف المتعددة ، وليس له أن يخرج عليها بحال من الأحوال ، وبهذا الشكل ترتبط لغة الفرد بالجماعة وتتنوع تنوعا عظيما بفعل عامل المكان والزمان ، أما سلوك الحيوان الاتصالى فيكاد يكون ثابتا ، اذ لا يملك القدرة على تطويره .

- لغة الانسان مكتسبة يتلقاها الأبناء من الآباء ، أما سلوك الحيوان الاتصالى فليس محصلة تعليم أو اكتساب بل هو سلوك غرزى يتوارثه أفراد النوع كما يتوارثون أنواع السلوك الأخرى .

- يستطيع الانسان أن يعمم اللفظ الذى يستخدمه في الاشارة الى أشياء متشابهة ، فكلمة (حقيبة) مثلا تشير الى كل أنواع الحقائب ، فاذا ما أراد

التخصيص أضاف الى هذه الكلمة رموزا لغوية أخرى تحدد المقصود وتعزله عما سواه مما يشبهه فيقال مثلا (حقيبتى ـ حقيبة المدرسة . .) أما الحيوان فلم نتبين من سلوكه ما يشير الى هذه المقدرة أو تلك .

ـ يستخدم الانسان اللغة للاشارة الى أشياء أو أحداث بعيدة عن المتكلم زمانا ومكانا ، انه يستطيع مثلا أن يستحضر تجارب حدثت في مكان بعيد ومن زمان بعيد ، كما أنه يستطيع أن يتحدث عن تجارب أو أحداث متوقعة لم تحدث بعد ، بل انه ليستطيع أن يحكى تجارب غيره ، وهذه كلها قدرات لا يستطيعها الحيـــوان .

وهكذا يبدو لنا من كل ما سبق أن الانسان مهيىء بيولوجيا وعقليا للكلام ، كما أن لغته تختلف اختلافا نوعيا عن أدوات الاتصال عند الحيوان .

اللغـــة مكتسبـة :

لقد كان يعتقد حتى عهد قريب جدا أن الطفل يكتسب لغته بتقليد الكبار وأنه يخضع لتدريب متواصل وأنه يستخدم اللغة بتأثير التشجيع الذى يلقاه ممن يحيطون به . وهذه عوامل لها تأثيرها ولا شك ، ولكنها لا تكفى لتفسير اكتساب نظام لغوى كامل على درجة عالية من التعقيد والتشابك .

لقد أكدت البحوث الحديثة أن الانسان يولد مزودا بملكة تعينه على اكتساب اللغة كاملة في مرحلة وجيزة لا تتجاوز الخامسة من عمره الا في حال مرض أو عزلة عن البشر ، هذه الملكة تهيئه لتلقى لغة معينة في المجتمع الذى يقدر له أن يعيش فيه ، فان عاش في مجتمع عربى تكلم العربية ، وان عاش في مجتمـــع انجليزى تكلم الانجليزية . . وهكذا فالملكة اذا ليست خاصة بلغة بعينها .

ان الطفل ـ كما تؤكد هذه البحوث ـ عامل ايجابى في الاكتساب انه يستخرج مما يسمع أبسط القواعد وأكثرها عموما ـ قواعد تناسب المرحلة اللغوية التى يمر بها ، ومن ثم فلا أحد يعلمه هذه القواعد .

وليس اكتساب اللغـة الا تطورا طبيعيا يمر به كل طفل ، ولا علاقة له

بالذكاء ، فالطفل الذكى والغبى على سواء في اكتساب نظام لغوى كامل ، ولا يكتسب الطفل قواعد لغته فحسب ، بل يتلقى كذلك قواعد السلوك الاجتماعى المصاحبة لهذا النشاط اللغوى ، واكتساب اللغة عملية نمو تدوم ما دامت الحياة في البيت أو في المدرسة أو الجامعة أو في العمل . ويكتسب الطفل لغة مجتمعه على مراحل متدرجة ، ولا علاقة لهذا التدرج بجنس معين أو بلغة معينة ، فأطفال العالم جميعا يمرون بنفس المراحل تقريبا .

اللغة أصوات :

اللغة منطوقة أساسا ، أما الكتابة فثانوية ، لقد تعلمنا جميعا الكلام قبل الكتابة ، واذا استعرضنا تاريخ الجنس البشرى وجدنا ما يؤكد هذا ، لقد وجدت مجتمعات بدائية لها لغات لا تكتب ، ولكننا لا نعرف حتى الآن مجتمعا له لغة مكتوبة لا تنطق .

والأصوات وهى مادة اللغة الانسانية لها جوانب ثلاثة : جانب اصدار هذه الأصوات ويتمثل فيما تقوم به أعضاء النطق من حركات لانتاجها . وجانب انتقال هذه الأصوات ويتمثل في الموجات الصوتية التى تنتشر في الهواء نتيجة لما تقوم به أعضاء النطق من حركات ، وجانب استقبال الأصوات ، ويمتد هذا الجانب من اللحظة التى تستقبل فيها طبلة الأذن الذبذبات الصوتية التى تحدثها في أجزاء الأذن المختلفة الى أن تنتقل عن طريق الأعصاب الى المخ .

وأصوات الكلام تنقسم الى قسمين رئيسيين : الصوامت والحركات ، وينبنى هذا التقسيم على مجموعة من الأسس أهمها أوضاع الوترين الصوتيين ، وطريق مرور الهواء من خلال أعضاء النطق ثم بحسب مواضع النطق أو مخارجه .

والصامت باعتبار وضع الوترين اما مجهور يتذبذب الوتران معه ، أو مهموس لا يتذبذب الوتران معه . وباعتباره حالة مجرى الهواء اما انفجارى أو احتكاكى أو متوسط أو مركب ، وباعتبار مخرج الصوت اما شفوى أو شفوى أسنانى أو أسنانى لثوى . . الخ .

ولكى يكون الصوت وحدة من وحدات اللغة لابد أن يختلف عن أى صوت آخر في صفة من الصفات التى تحددها الاعتبارات السابقة ، وفي العربيـــة ثنائيات تتشابه في ثلاث من الصفات وفقا لهذه الاعتبارات كالتاء والطاء ، والدال والضـــاد . . الخ .ولكنها تتمايز بصفة أخرى باعتبـار التفخيم أو الترقيق . أما الحركات فكلها مجهورة وتتحد صفاتها الأخرى بوضع اللسان والشفتين .

اللغـــة نظـام :

في كل لغة من لغات البشر نظام صوتى ونظام صرفي ونظام نحوى وقائمة من المفردات تضم ما تستخدمه الجماعة اللغوية من كلمات .

وكل نظام من هذه الأنظمة له وحداته الخاصة وله قواعده في تأليفها ، يمكننا التعرف على هذه الوحدات وملاحظة الصـور المسموح بها وغير المسموح بها من التراكيب على كل المستويات السابقة ، ولهذا قيل ان اللغة هى نظام من الأنظمة ، فكل نظام من أنظمتها يعمل مع غيره في نفس الوقت ، ولكننا نستطيع ـ مع ذلك ـ أن نميز من أجل التحليل فحسب وحدات كل نظام منها وقواعد التركيب المعروفة عنه .

أما النظام الصوتى فوحداته هى (الفونيمات) أو الحروف ، وهى أصغر وحدات اللغة ، وعددها محدود في اللغـات المعروفة لنا تتراوح بين الثلاثين والستين ، على الرغم من أن جهاز النطق يمكنه أن ينطق عددا أكبر من الأصوات، وأن الوحدة الصوتية الواحدة قد تنطق بصورة مختلفة في سياقات مختلفة أو في لهجات اللغة الواحدة المختلفة ، فالنون مثلا من وحدات النظام الصوتى للعربية يختلف نطقها وفقا لما يسبقها من أصوات ولتجرب معى نطق هـذه الكلمات لتتحقق من ذلك : أنياب ، أنفال ، أبناء ، .. الخ ، والجيم كذلك من وحدات العربية ينطقها المصريون بطريقة والسوريون بطريقة أخرى .

والوحدة الصوتية أو الفونيم لا معنى لها ، وان كان لها دور في المعنى ، فالباء من (باب) مثلا لا معنى لها ، ولكن الكلمة السابقة لا تعنى شيئا اذا

حذفت منها ، والدور الذى تقوم به هو التمييز والتفريق بين الكلمات ، ونتبين هذا الدور بوضوح حين نحذف وحدة من الكلمة أو نضيف وحدة اليها ، اذ ينبنى على ذلك اما تغير في المعنى أو فقدانها له .

والوحدات الصوتية أو الفونيمات هى المادة التى تتألف منها وحدات النظام الصرفي ، ووحدة النظام الصرفي هى (المورفيمات) التى قد تكون من وحدة صوتية واحدة كتاء التأنيث في العربية ، وقد تكون من أكثر من وحدة صوتية كالكلمة (كتاب) وللمورفيم معنى على خلاف الفونيم ، ولهذا قيل في تعريفه : أصغر وحدة ذات معنى في بناء اللغة ، وقد يكون المورفيم مقيدا اذا لم يصح وقوعه منفردا كتاء التأنيث في (قامت) ، اذ لا تأتى وحدها في الكلام العربى ، وقد يكون حرا كالفعل (قام) اذ تأتى وحدها فيقال (قام محمد) والمورفيم الحر هو ما يطلق عليه الكلمة ، وتختلف اللغات فيما بينها في الطرق التى تبنى بها مورفيماتها حرة أو مقيدة ، فمنها اللغات الاشتقاقية التى تستخدم التغيرات الداخليـة في بنية الكلمة ، ومنها اللغـات اللصقية التى تستخدم السوابق واللواحق ، وثمة طرق أخرى للبناء .

وتستخدم وحدات النظام الصرفي من المورفيمات لتأليف النظام النحوى الذى قوامه العبارات والجمل ، والدراسة النحوية قائمة على أساس الوحدات التى تتألف منها العبارة أو الجملة ، كأن يقال مثلا ان الجملة (قام محمد) تتألف من فعل + أسم ، وعلى أساس العلاقات المتبادلة بين هذه الوحدات هذه العلاقات قد تكون أفقية أى علاقة الوحدة بما يجاورها في السياق كأن يقال مثلا ان (قام) مسند و (محمد) مسند اليه ، ويتفرع عن هذه العلاقة بعض العلاقات كالتضام والمطابقة والاعراب ، وقد تكون العلاقة أفقية وتقوم على أساس أن أشكالا لغوية محددة تشترك في خواص معينة يصح أن تشغل موقعا معينا ، فيصح أن يقال مثلا : رجل أو الرجل أو هذا الرجل في الموقع الذى تشغله الكلمة (محمد) في الجملة السابقة .

ولكل لغة من لغات البشر عدد من المفردات يشكل معجمها الخاص ، وهو صورة تمثل ثقافة الشعب الذى يتكلم بهذه اللغة ، وكل اللغـات لديها من

المفردات ما يكفيها في التعبير عن حاجاتها وفي التفاهم والتعاون المشتركين بين أفرادها .

اللغـــة رمـــوز :

لقد قلنا ان الأصوات هى مادة اللغة ، هذه الأصوات رموز أى بدائل تستخدم في الاشارة الى أشياء ليست هى الأصوات ذاتها ، وليس ثمة علاقة ضرورية بين الأصوات وما تشير اليه ، فليس ثمة علاقة مباشرة بين المنطوق (قلم) والشىء المشار اليه به وهو القلم ذاته ، والرموز التى يستخدمها الانسان كثيرة (فالألوان رموز والحركات رموز والأعلام رموز . . الخ) غير أن الرموز اللغوية منطوقة أو مرسومة هى أغنى الأنظمة الرمزية وأكثرها ايجازا . وللرمز اللغوى صفات هى :

ـ يتطلب الرمز وجود مرسل يهدف الى الاخبار بشىء ومستقبل يتلقى الرســـالة .

ـ االعلاقة بين الرمز والمرموز علاقة اعتباطية (غير مباشرة) .

ـ يتطلب الرمز قصـدا من المرسـل ووعيا باسـتخدام الرمز وســيلة لتحقيق مراده .

ـ لا يمثل الرمز الشىء الذى يشير اليه ، بل يعنى شيئا غير ذاته ، ولهذا يحتاج الى تفسير .

والربط بين الرمز والمشار اليه يتحقق عن طريق الخبرة المتكررة في الطفولة عند اكتساب اللغة أو في مراحل النمو اللغوى فيما بعد .

اللغـــة عرفيـــة :

العلاقة بين اللفظ وما يشير اليه علاقة عرفية لا ضرورية ، لقد حدث في وقت ما أن اختبر لفظ معين في جماعة معينة ليشير الى شى أو فكرة ، وقد كان من الممكن أن تختار الجماعة لفظا آخر لنفس الشىء أو الفكرة ، وليست اللغة

كلمات فحسب ، فكل وحدة من وحداتها لها علاقة واضحة بغيرها من الوحدات، وتستخدم هذه الوحدات وفقا لنظام متفق عليه بين المتحدثين بهذه اللغة ، ان اللغة بناء على هذا ونتيجة لهذا الاتفاق عرفية .

ان هذا الاتفاق ليس عملا صريحا أو واضحا فلم يجتمع الناس مثلا في مؤتمر ليتفقوا على استخدام كلمة أو جملة ، انه فحسب اتفاق في السلوك والعمل ان المتكلمين في جماعة معينة يستخدمون نفس الكلمات للاشارة الى نفس الأشياء ، ويستخدمون أنواعا من التراكيب للتعامل بها في مواقف متشابهة ، انه العرف الضمنى الذى يكون ويقر الأنظمة اللغوية ، وكل منا يكتسب لغته من مجتمعه المعين ، ويتلقى في أحضانه كل القواعد التى تنتظم لغته ، واستخدام اللغة وفقا للعرف ضرورة لتحقيق التفاهم بين أفراد الجماعة اللغوية ، ولهذا تقف الجماعة في وجه من يخالف عرفها اللغوى في أى مستوى من مستوياته .

اللغـــات متشـــابهة :

يقال ان عدد لغات العالم اليوم يكاد يصل الى خمسة آلاف لغة ، ولو أنعمنا النظر في هذه اللغات وتعمقنا في درسها لتبين لنا أن بينها قدرا من التشـــابه يجعلها جميعا داخلة في اطار ما يسمى (اللغة) دون تقييد أى باعتبارها ظاهرة انسانية ، وبينها أيضا قدرا من الاختلاف يكفى لتميزها ويدخلها في اطار ما يسمى (اللغة) مقيدة بوصف ، أى اللغة العربيـــة أو الانجليزية . . الخ .

ومن وجوه الشبه بين لغات البشر :

ـ كل أطفال العالم قادرون على اكتساب أية لغة انسانية من لغات البشر بيسر وسهولة بالغين .

ـ لغات البشر متشابهة ، لأن الذين يتحدثون بها متشابهون في ادراكهم لما يحيط بهم ، انهم يجربون العالم الخارجى بطرق متشابهة في جوهرها ، ومما يؤكد ذلك أنه من الممكن ترجمة أى نص من لغة الى لغة أخرى .

ـ ليس في العالم لغات بدائية ، فكل اللغات متساوية في تعقدها وفي قدرتها على التعبير عن أى مفهوم في العالم .

كل اللغات تتألف من أصوات تستخدم لنقل المعانى ، والعلاقة بين الأصوات والمعانى في معظمها عرفية .

- معظم لغات العالم يستخدم عددا محدودا من الوحدات الصوتية (الفونيمات) يتألف منها عناصر لغوية ذوات معان (مورفيمات) ومن هذه العناصر تتألف عبارات اللغة وجملها .

- تتضمن معظم لغات العالم قواعد صوتية وصرفية ونحوية متشابهة في خصائصها .

- في كل لغات العالم مفاهيم معنوية عالمية كالزمن والنفى والاستفهام.. الخ.

ثمة اذا ما يسوغ القول بتشابه اللغات أو بما يسمى العناصر المشتركة أو العامة ، وفي ظل هذا التشابه يستطيع الانسان أن يتعلم لغة ثانية غير لغته القومية ، وفي أثناء تعلمه هذه اللغة سوف يتبين بوضوح العناصر المشتركة بين اللغتين بغض النظر عن العلاقات الثقافية أو التاريخية بينهما .

بيد أن وجوه الشبه التى تحدثنا عن بعضها لا تكفى للتفاهم بين البشر ، لأن كل لغة تتضمن صفات أو خصائص أخرى تميزها عن أية لغة أخرى ، والخلاف بين اللغات يقع في مستويات اللغة المختلفة (الصوتية والصرفية والنحوية والمعجمية) ، ففى المستوى الأول مثلا تختلف وحدات كل لغة عن وحدات أية لغة أخرى كما ونوعا ، كما تختلف عنها في القواعد التى تحكم اتصال بعضها ببعض ، ولكل لغة من لغات البشر طريقتها الخاصة في بناء مورفيماتها ، كما أن لها قواعد نحوية خاصة تحكم العلاقات السياقية بين هذه المورفيمات . وتختلف اللغات كذلك في الكلمات التى يضمها معجمها في التعبير عن المفاهيم العامة أو الخاصة .

اللغـــة متغـــيرة

اللغة ظاهرة اجتماعية والظواهر الاجتماعية ليست ثابتة بل تتعرض للتغير باستمرار ، والتغير تحكمه في الغالب قوانين تكاد تكون ثابتة .

والتغير اللغوى هو انتقال ظاهرة لغوية من حالة الى أخرى ، أو حلول

ظاهرة لغوية محل ظاهرة لغوية أخرى في مرحلة من مراحل تاريخ اللغـــة المعينـة .

والتغير يصيب أنظمة اللغة المختلفة ، وان كان تأثيره في المجال الدلالى أكبر ، ويكفى للتمثيل على ذلك أن نعقد مقابلة بين العربية الفصحى واحدى اللهجات المحلية المعاصرة التى تعد تطورا لها . ففى المستوى الصوتى مثلا تخلصت اللهجة القاهرية من الأصوات الأسنانية الثاء والذال والظاء وحلت محلهـا فونيمات أخرى . كما أنها تخلصت كذلك في المسـتوى النحوى من الاعراب وأحلت محله نظاما محددا للمفردات يحدد العلاقات المعنوية بين عناصر الجملة .

أما معانى المفردات فقد أصابها كثير من التغير توسيعا أو تضييقا أو ابتداعا ، وهو تغير واضح وملموس يغنينا عن التمثيل في هذا المقام .

وقد بذل الباحثون جهودا كبيرة في دراسة أسباب التغير واقترحوا في ذلك آراء ، ولكن لم يقدم أى منهم رأيا متكاملا أو نظرية تفسر كل التغيرات المعروفة في لغات العالم . قال بعضهم ان التغير يرجع الى الظروف الجغرافية أو المناخية وقال آخرون بل يرجع الى الصفات البيولوجية والجنسية ، وقال آخرون يرجع الى النزوع الى السهولة والاقتصاد في الجهد . الخ . وهى عوامل قد يكون لها تأثير ولكن عاملا واحدا منها لا يكفى ، ونعتقد أن من أهم هذه العوامل تأثير لغة في لغة أو ثقافة في ثقافة بفعل الاحتكاك بينهما .

اللغـــة معنى :

هذا هو الجانب الثانى الضرورى من جانبى اللغة ، أما الجانب الأول فهو الصوت والصوت الانسانى أثر سمعى ناتج عما تقوم به أعضاء النطق من حركات ، ويظهر هذا في صورة ذبذبات تلائم هذه الحركات ، ولا يكون الصوت لغويا الا اذا كان له دور في حمل المعنى

والمشكلة الرئيسية في علم اللغة هى تحديد العلاقة بين جانبى اللغة : جانب الصوت أو المنطوق وجانب المعنى أو المفهوم .

بعض الباحثين من القدماء يرى أن الكلمة (المنطوق) جزء من اللغة ، أما المعنى فجزء من العالم الخارجى ، لأن الكلمة تشير الى شىء أو تعبر عن شىء ، أو بعبـارة أخرى الكلمة اسم للشىء ، والشىء هو المعنى .

وبعض يأتى بوسـيط بين الاسـم والشىء هو الصـورة الذهنيـة أو الفكرة ، ويقول في تعريف المعنى انه علاقة متبادلة بين اللفظ والفكرة ، علاقة تمكن كل واحد منهما من استدعاء الآخر .

ويرى آخرون أن التعرف على المعنى لا يتم الا ببيان الموقف الذى يقال فيه الكلام بكل ما فيه ومن فيه ، ودراسة المعنى عند هؤلاء دراسة لمجموعة الخصائص اللغوية التى يستطاع التعرف عليها من الموقف .

ويرى آخرون أن معنى الكلمة يتحدد في ضوء ما يجاورها من كلمات في السياق ، ودراسة المعنى عند هؤلاء دراسة لتوزيع الكلمة في السياقات المختلفـة .

وقد كان المعتقد قديما أن اللغة أداة للتفكير ، وهذا صحيح بيد أن هذه الوظيفة ليست وظيفتها الوحيدة ، فاللغة وسيلة لخلق العلاقات الانسانية وتوثيقها وتحقيق التفاهم والتعاون بين بنى البشر .

وبعد فلعل هذه الصفحات السابقة قد أسهمت في بيان الخصائص أو العناصر التى يمكن أن يتألف منها تعريف مقبول للغـة يساعد في توضيح المقصود بعلم اللغة في هذه الدراسة هذا التعريف هو :

اللغـة : نظام من الرموز المنطوقة المكتسبة تستخدمه جماعة معينة من الناس بهدف الاتصال وتحقيق التعاون فيما بينهم .

الباب الأول
التعريف بعلم اللغة

يمر علم اللغة الحديث Modern Linguistics هذه الأيام بمرحلة نشطة من حياته القصيرة نسبيا بعد أن وضع أسسه العالم السويسرى (دى سوسير) في مستهل هذا القرن ، يمر هذا العلم بمرحلة يصعب فيها على الدارس المتخصص أن يتابع ما تنشر في مجالاته من كتب وبحوث ، وأن تتوفر لديه الفرصة للتعرف على مناهجها في معالجة موضوعاتها .

ومع هذا السيل الذى لا ينقطع من البحوث لم يصل علماء اللغة الى حدود متفق عليها ، حدود فاصلة لموضوعه أو الى تعريفات قاطعة لمصطلحات ، وهذا أمر طبيعى ـ حين يكون متصلا بعلم حديث النشأة كعلم اللغـة ـ في عصر اتسعت فيه المعارف الانسانية اتساعا عظيما ، وتطورت فيه وسائل المعرفة تطورا باهرا كالعصر الحديث .

وقد كان تنوع المدارس اللغوية واختلاف مناهجها على حساب الاستقرار الذى كان مطلوبا حتى يمكن أن تقيم فيه النتائج تقييما دقيقا . لقد كان علم اللغة الوصفى مثلا أثرا من آثار الثورة على الاتجاهات التقليدية في دراسة اللغة ، وكان منهجه علميا يعتمد على وصف اللغة على ما هى عليه في مكان محدد وزمان محدد ، ولم تدم سيادته طويلا ، فسرعان ما ثار (تشومسكى) عليه ، ووضع أسسـا جديدة للدراســة اتضحت معالمها الأولى في كتابـه Syntactic Structure الذى ظهر عام ١٩٥٧ .

ولو قدر لنا أن نعود الى الوراء قليلا قبل ظهور هذا الاتجاه الجديد ، وحاولنا أن نحدد خصائص الدراسة اللغوية عند اللغويين المحدثين لوجدنا ذلك يسيرا ، قد يقال لنا ان علم اللغة هو الدراسة العلمية للغة ، ويقال لنا في تعليل ذلك ، لأن المناهج العلمية قد استخدمت على قدر الامكان لتجعل من دراسة اللغة عملا دقيقا منظما على النحو الذى تحقق في دراسة العلوم .

ومن الضرورى أن نشير هنا الى أمرين :

الأول : من المفيد أن نعرض هنا أسس الدراسة التى اعتمد عليها المنهج الأقدم أى المنهج الوصفى وهو منهج ما زال منتشرا حتى يومنا هذا ، نفعل هذا مع تقديرنا للخلاف القائم بين المنهجين .

الثانى : لقد وجد الباحثون نقطة مشتركة يمكن أن يلتقى عندها المنهجان هى أن علم اللغة ينبغى أن يعرف على أساس منهجى علمى ربما يختلف قليلا عن المنهج السائد في العلوم .

وسوف يختلف الأمر حين نعود أدراجنا الى أيامنا هذه ، سيقول لنا علماء اللغة (المعاصرون) ان مفهوم الدراسة العلمية يختلف ـ من نواح عدة ـ عن المفهوم الذى تبناه اللغويون (التقليديون) (أصحاب المنهج الوصفى)(١) .

---

(١) Crystrl , Linguisties , P. 77

المبحث الأول

السمات الضرورية للدراسة العلمية

لكى تكون الدراسة ـ أيا كان موضوعها ـ علمية ينبغى أن تتوفر بعض السمات الضرورية . قد يختلف العلماء واللغويون ـ الى حد ما ـ في طبيعة عملهم وفي مجاله ، واكن ثمة اتفاق عام فيما يتصل بحاجة علم اللغة الى منهج علمى ، وأن المنهج الذى سارت عليه العلوم قد يكون منهجا ناجحا ، يقال هذا بغض النظر عما يثار من خلاف في تبعية علم اللغة للعلوم الطبيعية أو للعلوم الاجتماعية ، وبغض النظر عما يدور بين اللغويين أنفسهم من جدل في تحديد المقصود « بالعلمية » في هذا المجال .

وقبل أن نأخذ في الحديث عن هذه السمات ينبغى أن يوضع في الاعتبار أن ما قد يعده بعض الباحثين أصلا قد يجعله آخرون فرعا ، وأن المصطلحات التى يستخدمها الباحثون قد تختلف من باحث الى آخر ، ومع ذلك نطمئن الى أن محصول البحث الذى نستخلصه من هؤلاء وهؤلاء سوف يؤلف في النهاية المنهج الملائم للدراسة اللغوية .

هذه السمات هى : الوضوح والدقة والنظامية ، والموضوعية ، والشمول واليقين .

أولا : الوضوح والدقة

الوضـــوح :

الوضوح شرط ضرورى في كل مراحل البحث اللغوى جمعا وتصنيفا وتقعيدا ، وهو ضرورى أيضا حين يختار الباحث النظرية التى على هداها يقوم بالعمل فينبغى أن تكون أسس هذه النظرية واضحة ، وينبغى أن يكون واعيا بالاعتبارات التى استند اليها عند اختياره لها . وسوف نختار للمناقشة

هنا موضوعين نتبين منهما الحاجة الماسة الى الوضوح في البحث اللغوى هاذان الموضوعان هما :

(أ) اختيار مصطلحات البحث .

(ب) اختيار الرواة وصياغة الاستبيانات .

الموضوع الأول : اختيار مصطلحات البحث :

لا مندوحة لنا عن استخدام المصطلحات الفنية ، واذا كان الناس في حياتهم العامة يستخدمون المفردات للاشارة الى أشياء أو أحداث أو وقائع أو صفات . الخ فالعلماء - أيا كان مجال عملهم - يستخدمون مصطلحات خاصة يرون أنها تحقق أغراضهم ، وما يميز هذه المصطلحات أنها تدل على أقسام أو أصناف(١) .

فاللغوى مثلا لا يدرس مفردات اللغة كلها ، اذ لا سبيل الى حصرها ، انه لا يدرس مفردات مثل : محمد وشجرة ورجل وجبل . . الخ بل يدرس قسما بعينه يفترض أنه يضم هذه المفردات وغيرها هو (الاسم) ، انه لا يدرس مفردات مثل : قام ويجلس . . الخ بل يدرس قسما بعينه يفترض أنه يضم هذه المفردات هو (الفعل) ، وقد يتطلب البحث منه أن يجعل من كل قسم أقساما ، فقد يفترض أن قسم (الاسم) مثلا يضم أقساما فرعية هى : العلم والضمير . . الخ وقد يفترض أن قسم (الفعل) مثلا يضم أقساما فرعية هى : الماضى والمضارع . . الخ . وفي التعامل مع الأقسام لا المفردات اقتصاد في الجهد لا يقوم العمل العلمى الا به .

وليست هذه الأقسام التى يفترضها الباحث منفصلة عن الواقع اللغوى الذى يعالجه ، بل انها مفترضة أصلا للتعامل مع الواقع أى لكى نفهم الواقع فهما حسنا ولكى نوصل فهمنا للآخرين .

---

(١) Halliday, Majntosh and Strevens, The Linguietic Science and Language Teaching, P. 7

ومن الطريف الدال أن نشير هنا الى قصة ذلك النحوى الذى سأل أعرابيا قائلا : أتجر فلسطين ؟ فرد عليه قائلا : انى اذا لقوى . فالجر عند النحوى مصطلح خاص يستخدم للدلالة على حالة من حالات الاعراب تميز طبقة من طبقات الكلام هى المعربات ، وليس هذا هو الجر في عرف الأعرابى حين يشير به الى حدث يتصل به حين يشد شيئا أو يسوق حيوانا .

وليس الاصطلاح مجرد اتفاق بين أهل الصنعة على مدلول خاص فحسب ، بل انه اتفاق قائم على معايير . ان أى محاولة لتصنيف المفردات في أقسام ينبغى أن تقوم على أساس أوجه شبه تتحقق في كل ما يدخل في القسم المفترض من أفراد وتميزه عما عداه ، ولهذا اشترط في تعريفه أن يكون جامعا مانعا .

وربما يكون مفيدا هنا أن نشير الى صنيع النحاة في تعريف الاسم والفعل ، لقد عرف بعضهم الاسم فقال : انه ما يدل على مسمى من ذات أو معنى ، وعرف الفعل بأنه : ما يدل على حدث وزمنه . واعترض على هؤلاء بنحو (صه وهيهات) وغيرها مما يطلق عليه أسماء الأفعال ، لأنها تدل على حدث في زمن وان عوملت معاملة الأسماء . ومن الواضح أنهم اعتمدوا في تعريفهما على معيار هو المعنى الذى يدل عليه كل منهما (٢) .

وأدرك نحاه آخرون ما في التعريفين السابقين من قصور ، فوضعوا لكل من أقسام الكلام علامات تميزه عن غيره من الأقسام ، وكانوا في ذلك على طريقة مستقيمة ، وعلى سبيل التمثيل يقول ابن مالك في تعريف الاسم :

بالجر والتنوين والندا وأل ومسند للاسم تمييز حصل

ويقول في تعريف الفعل :

بتـا فعلت وأتت ويا افعلى ونون أقبلن فعل ينجلى

ولا ينبغى أن يصرفنـا التراث القديم من المصطلحات عن محاولة وضـع

---

(٢) أيوب (د. عبد الرحمن) دراسات نقدية في النحو العربى ص ٨ ، ٩ .

مصطلحات أخرى ربما تكون أكثر فائدة في دراسة خصائص الكلام العربى ، وفي هذا المجال نشير الى صنيع الدكتور تمام حسان الذى جعل أقسام الكلام في العربية سبعة بدلا من ثلاثة هى : الاسم والصفة والفعل والضمير والمخالفة والظرف والأداة معتمدا في ذلك على معايير ترجع الى المعنى والمبنى كليهما فتجنب ما اعترض به على النحاة الذين اعتمدوا على المعنى وحده أو المبنى وحده(١) .

ويجب التنبه ـ كما يقول (كريستال) الى تأثير مصطلح جديد أو اعادة تعريف مصطلح قديم ، الى تأثير هذا على التعريفات الأخرى التى يستخدمها الباحث . ان المصطلحات التى نستخدمها في وصف اللغة يعتمد بعضها على بعض الى حد كبير ، فمصطلح ما يحدد مصطلحا آخر ، وهذا المصطلح بدوره يحدد المصطلح السالف ، ومن ثم فان تغيير معنى مصطلح واحد قد يضطرنا الى تغيير معنى بعض المصطلحات المتصلة به .

ولنأخذ مثالا لذلك : اذا أعطيت عددا من الأشياء المختلفة الحجم وطلب اليك أن تصنفها صنفين : (كبير) و (صغير) ، تستطيع أن تفعل ذلك ـ وان لم تتمكن تماما من أن تضع خطا فاصلا بينهما . والآن اذا ما أعطيت الأشياء السابقة نفسها ، وطلب اليك أن تصنفها الى ثلاثة أصناف : (كبير) و (متوسط) و (صغير) تستطيع أن تفعل ذلك أيضا ، ولكن لنلاحظ ما حدث . بعض من أصغر الأشياء التى وضعت في الصنف (كبير) ، وبعض من أكبر الأشياء التى وضعت في الصنف (صغير) قد وضعا معا ليؤلفا هذا الصنف الجديد والنتيجة ليست صنفا جديدا بل ثلاثة أصناف جديدة ، لأن الصنفين (كبير) و (صغير) قد أعيد تصنيفهما في العملية السابقة(٢) .

وكثيرا ما يتعرض الباحثون لمشكلات من هذا النوع فالباحث الذى يتبنى تفسيم الدكتور تمام عليه أن يدرك أن مفهوم (الاسم) عنده مثلا قد تغير عما كان

---

(١) انظر اللغة العربية معناها ومبناها ص ٨٦ ـ ٩٠

(٢) Crystal , Liuguistics , P. P. 91, 92

عليه عند النحاة القدامى بعد أن أخرج منه الصفة والضمير والظرف وجعلها أقساما مناظرة له ، وعليه فينبغى ألا يخلط بين التقسيمين ، كما ينبغى التنبه الى ما ينبنى على اعادة التصنيف من نتائج .

فالدكتور تمام حين جعل الصفة قسما بذاته افترض نمطا ثالثا للجملة العربية هو الجملة الوصفيـة (التى قد تكون أصليـة نحو أقائم المؤمنون للصلاة ؟ وقد تكون فرعية نحو : رأيت اماما قائما تابعوه للصلاة)(١) .

هذا النمط الجديد نظير للنمطين السابقين : الجملة الاسمية والجملة الفعلية ، وهكذا يكون لدينا ثلاثة أنماط جديدة للجملة لا نمطا واحدا .

كما ينبغى التنبه أيضا الى ما ينبنى على ذلك من تغيير في تعريف الأبواب النحوية ، فينبغى عند تحديد صيغة الكلمة الواقعة مفعولا فيه أن يقال انها ظرف ، وينبغى عند تحديد صيغة الكلمة الواقعة حالا أن يقال انها صفة . . وهكذا في الأبواب الأخرى .

ان اختيار المصطلحات أو اعادة تعريفها ينبغى أن تتم ـ اذا ما وجدت فائدة في ذلك ـ بدرجة عالية من الحذر ، انه بناء متماسك يفقد هيكله حين نضيف اليه أو نحذف منه أو نغير فيه .

ويشترط الباحثون في المصطلح أن يستخدم للاشارة الى مدلول واحد ، وألا يشار الى المدلول الواحد بغير مصطلح واحد ، ولا شك أن هذا أدعى الى الدقة وأدنى الى الوضوح وأقرب الى القصد في التعبير ، غير أن ما نراه في مجال البحث اللغوى قديما وحديثا يخالف هذا الشرط . خذ مثلا مصطلح (المفرد) في النحو العربى يستخدم في باب من أبوابه للاشارة الى الواحد أى ما يقابل المثنى والجمع ، وفي باب آخر للاشارة الى ما ليس جملة أو شبه جملة، وخذ أيضا مصطلح الحرف) يستخدم أحيانا ليدل على الكلمـة ، وأحيانا ليدل على قسم بعينه من أقسام الكلام ، ويستخدم كذلك للاشارة الى وحدة من

---

(١) اللغة العربية معناها ومبناها ص ١٠٣ .

وحدات النظام الصوتى أو الاملائى في العربية كالهمزة والباء والتاء . . وغيرها مما يعرف بحروف المعجم .

وقد أحس النحاة بخطورة هذا المسلك فاضطروا الى أن يقولوا : المفرد في باب كذا هو كذا وفي باب كذا هو كذا ، واضطروا الى أن يخصصوا المصطلح بوصف أو اضافة ، ولكن هذا أو ذاك كان على حساب الاقتصاد في العبارة ، وهو من شروط الاصطلاح حتى يسهل استخدامه ويتيسر تداوله . ومع ذلك فقد بقيت المشكلة قائمة حين يستخدم المصطلح مجردا عن تحديد مجال استعماله بعلم بعينه أو في باب خاص أو عند قوم بأنفسهم ، أو حين يستخدم عاريا عن وصف أو اضافة .

ولم يكن اللغويون بأكثر التزاما بالشرط الثانى منهم بالأول . فما أكثر المصطلحات المترادفة للمدلول الواحد . خذ مثلا لذلك ما فعله اللغويون عند وصف بعض الأصوات التى يحدث عند انتاجها انغلاق مجرى الهواء ثم انفتاحه مرة واحدة ، فالدكتور ابراهيم أنيس يطلق على هذه العملية مصطلح (الشدة) ويطلق على الصوت الناتج عنها مصطلح (شديد) ، وقد راعى في ذلك المصطلح القديم عند سيبويه ، والدكتور عبد الرحمن أيوب يطلق على الجزء الأول منها مصطلح (انحباس) وعلى الجزء الثانى منها (انفجار) ثم يطلق على الصوت الناتج عن العملية برمتها مصطلح (انفجارى)توسعا(١) . وكذلك يفعل الدكتور كمال بشر ويقول : هذه الأصوات يمكن تسميتها (وقفات Stops ولكنها باعتبار الانفجار تسمى الأصوات (الانفجارية Plosive) والأول هو ما جرى عليه الأمريكان وأما الثانى فهو وجهة نظر الانجليز ، ولكنه عند الوصف يفضل المصطلح (انفجارى)(٢) .

وشىء كهذا كان عند وصف الأصوات التى يحدث عند انتاجها تضييق في مجرى الهواء ، اذ يفضل الدكتور أنيس المصطلح القديم (رخو)(٣) . على حين يفضل أغلب المحدثين المصطلح (احتكاكى) .

---

(١) محاضرات في اللغة ص ٩٤ .
(٢) علم اللغة العام (الأصوات) ص ١٠٠ .
(٣) الأصوات اللغوية ص ٢٣ ، ٢٤ .

بيد أن ايثار المصطلحات القديمة وبخاصة في مجال الأصوات - وان كان يجد هوى في نفوسنا - له مخاطره ، فكثير من تعريفاتها غامض لا سبيل الى فهمه ، وتعريف سيبويه للصوت المجهور مثل واضح لذلك ، اذ يذهب الباحثون في تفسيره مذاهب وبخاصة اذا وضعنا في الاعتبار أن النحاة الخالفين لم نجد في كتبهم ما يعين على فهمه ، وقنعوا بترداد ألفاظه دون شرح واضح أو تعليق ذى قيمة(٤) . كما أن كثيرا مما قالوه عن مواضع النطق ما يزال الى يومنا هذا موضع خلاف مثل : ذلق اللسان وأسلة اللسان وطرف اللسان ومستدق طرف اللسان . .الخ .

ولم يسلم اللغويون المحدثون مما وقع فيه القدامى ، فلو فتحت كتابا يدرس الأصوات العربية وأحببت أن تصل الى وصف دقيق لمخارجها لأخذك الاعياء أخذا شديدا مما تجده بينها من اضطراب ، واليك مثلا لهذا يبينه الجدول الآتى :

الصوت		د . أنيس	د . أيوب	د . تمام	د . بشر	د. مختار
ق		هوى	هوى	هوى	هوى	هوى
ك		أقصى الحنك	سقف الحنك الرخو	طبقى	حنكى قصى	طبق
خ	حلق	أدنى الحلق إلى الفم	هوى	هوى	أقصى الحنك	طبق
غ	حلق		هوى	هوى	أقصى الحنك	طبق

ويرجع الخلاف الواضح في الجدول الى ما يأتى :

(ا) اختلاف الباحثين في تسمية الموضع الذى يلتقى عنده عضوا النطق ، وانظر الى الرسم الآتى :

---

(٢) الأصوات اللغوية ص ١٢٣ .

فالموضع × × عند الدكتور أنيس هو أقصى الحنك ، وعند الدكتور أيوب سقف الحنك الرخو ، وعند الدكتور تمام والدكتور مختار الطبق ، وعند الدكتور بشر الحنك اللين (أقصى الحنك) .

والموضع × هو اللهاة عندهم جميعا .

(ب) اختلافهم في نسبة كل صوت الى مخرج بعينه ، فالموضع الأول هو مخرج الخاء والغين عند الدكتور بشر والدكتور مختار ، والموضع الثانى هو مخرجها عند الدكتور تمام والدكتور أيوب ، أما الدكتور أنيس فوضع الخاء والغين من الأصوات الحلقية ، وقال ان مخرجهما أدنى الحلق الى الفم ، ولست أدرى المقصود بهذه العبارة : اللهاة أم الحنك اللين ؟(١) .

وثمة مشكلة أخرى عرضت حديثا بعدما اتصل علماء العربية بعلم اللغة الحديث الذى ظهر في أوربا وأمريكا ، واعتمد أساسا على اللغات الأوربية ، هذه المشكلة تتمثل في تعريب المصطلحات التى يستخدمها اللغويون المحدثون ، واذا وضعنا في الاعتبار أن الباحثين الغربيين أنفسهم يشكون من كثرة هذه المصطلحات كثرة مفرطة ومن غموض مدلولاتها ومن اختلاف الباحثين حولها فلا شك أن مشكلتنا في تعريبها وتقديمها للقارىء العربى سوف تكون أعقد وبخاصة اذا اتصل الأمر بمفاهيم أو ظواهر لا تعرفها العربية .

---

(١) الأصوات اللغوية ص ٨٧ ، ٨٨ وانظر مختار عمر (د. أحمد) دراسة الصوت اللغوى ص ٢٧١ ، ٢٧٢ .

والجدول الآتى يوضح الخلاف بين الباحثين في تعريب بعض هذه المصطلحات :

المصطلح الانجليزى	د. تمام	د. أيوب	د. بشر	د. مختار	د. القاسمى
Phoneme	حرف	صوتيم	فونيم	فونيم (وحدة صوتية)	فونيم
allophone	صوت	صوت	صوت جزئى	صوت موقعى	ألوفون
			مثال واقعى		

ونستخلص مما سلكه هؤلاء الباحثون في تعريف هذين المصطلحين ما يأتى :

(ا) أن الدكتور تمام فضل المصطلح العربى (حرف) ليقابل الـ phoneme والمصطلح (صوت) ليقابل allophone معتمدا على أن علماء العربية قد فرقوا بينهما تفريقا شبيها بالتفريق الذى بين المصطلحين الأجنبيين ، فقد نقل عن «مقالات الاسلاميين » قولهم : الكلام حروف والقراءة صوت ، والصوت عندهم غير الحرف(١) .

(ب) أن الدكتور أيوب صاغ مصطلح (صوتيم) بطريقة مبتكرة ، اذ أضاف الى الكلمة العربية ما يشبه أن تكون لاحقة (صوت يم) وهذا ما فعله أيضا بالنسبة لـ (Morfome صرفيم) و (Sememer دلاليم) و قاموسيم ، ولعل هذه الصياغة التى لا تعرفها العربية صرفت الباحثين الباحثين عن استخدامها (٢) .

(حـ) فضل البـاحثون الآخرون تعـريب المصطلح (Phoneme فونيم)(٣) .

---

(١) حسان (د. تمام) اللغة العربية معناها ومبناها ص ٧٣ .

(٢) أيوب (د. عبد الرحمن) اللغة والتطور ص ١٠٤ ، ١٠٠ ، ١١٤ .

(٣) القاسمى (د. على) علم اللغة وصناعة المعجم ص ٣٣ ، ٣٤ ، ٩٦ ، بشر (د. كمال) علم اللغة العام (الأصوات) ص ١٥٧ ، ١٥٨ ، مختار عمر (د. أحمد) دراسة الصوت اللغوى ص ١٥٥ ، ١٥٦ .

(د) اختلف الباحثون في شأن المصطلح allphone على النحو الموجود في الجدول .

هذا ومشكلات المصطلح اللغوى كثيرة ، وليس من همنا هنا أن نعرض لها تفصيلا ، ونكتفى بعد هذا باستخلاص أهم الأفكار والنتائج التى دار النقاش حولها في الصفحات السابقة .

ـ على الباحث أن يكون مدققا في اختيار المصطلحات وفي تحديد معانيها بوضوح ، وينبغى أن يحتفظ بمدلول المصطلح ثابتا في كل مراحل البحث ، وأن يحتفظ كذلك بالعلاقات التى بينه وبين المصطلحات الأخرى التى تتصل به ثابتة أو بعبارة موجزة : الثبات والتناسق .

ـ ليس من العيب أن تتوجه عناية الباحث أساسا الى المصطلحات التى تتصل ببحثه مباشرة ، فليس من الضرورى أن يقف باحث في الأصوات من مصطلحات النحو التى قد تعترضه في بحثه موقف النحوى منها بل يكفى في ذلك أن يتبنى مفاهيم متفقا عليها بين عدد كبير من الباحثين في هذا المجال أو يعتمد على المفاهيم السائدة في علم اللغة تلك المفاهيم التى لم يوجه اليها اعتراضات ذات بال .

ـ ان اختيار مصطلح معروف أو ابتكار مصطلح جديد ينبغى أن يعتمد على معايير قائمة مثلا علىأساس التشابه في الشكل أو الوظيفة أو هما معا . وينبغى على الباحث أن يكون لديه تصور لما يمكن أن يحدث لو استخدم معيار آخر .

ـ أن يبذل الباحث أقصى جهده على أن يكون للمصطلح الواحد مدلول واحد ، وألا يكون للمدلول الواحد غير مصطلح واحد ، وهذا أدعى للدقة وأدنى للوضوح ، فان وقع المحظور ـ وهو يقع كثيرا ـ فالأفضل أن يتبنى أكثرها انتشارا بين الباحثين وأقلها عرضة للنقد .

ـ على من يتصدى لخلق مصطلحات جديدة أن يراعى أن يكون لفظ المصطلح مختصرا وأن يتلائم شكله مع طرق البناء الصرفي والنحوى في اللغة

المعينـــة حتى يسهل تداوله ويعم الانتفـاع به ، وأن يتجنب الألفاظ ذات المدلولات الشائعة في الحياة العامة حتى يضمن لمصطلحه أن يعرى من الدلالات غير المرغوب فيها .

الموضوع الثاني : اختيار الرواة وصياغة الاستبيانات .

اللغة عرفية ، وهذا مؤداه أن ثمة اتفاقا بين المتكلمين باللغة (اتفاق في السـلوك اللغوى) على اسـتخدام كل أشكال اللغة بطريقة تكاد تكون متماثلة ، ولعل هذا هو ما جعل اللغويين يطمئنون الى أن لغة أحد أفراد الجماعة اللغوية يمكن أن تمثل العادات اللغوية للمتكلمين الآخرين في الجماعة نفسـها .

والقول بعرفية اللغة لا يحول دون الاعتراف بما بين أفراد الجماعة اللغوية من فروق لا يحدها الحصر ، بل يقرر علماء اللغة أنه لا يكاد يوجد شخصان في جماعة لغوية واحدة ينطقان نطقا متماثلا ، وفي هذا المجال يقرر (كريستال) أن الرواة الذين نختارهم ليسوا متجانسين كحبات من التفاح في سلة ، فليس ثمة تجانس محقق بين التجارب اللغوية لشخصين ، ان مقدار التنوع الذى يجعل العادات اللغوية لشخص واحد مختلفة عن أى شخص آخر مقدار كبير ، ولا يمكن دراسته نسبيا ، ولكن متى درسنا اللغة فمن المهم أن نتنبه الى العامل الذى يؤثر في تحليلنا للمشكلة ، ونخلق الظروف التى توجه انتباهنا الى الوضوح لكى نجعل الدراسة المقارنة ممكنة ، وبالدراسة المقارنة الفاحصة وحدها يمكن في النهاية أن نرسم صورة أكمل للغة ككل ، ومن ثم نقترب من التفسير العام الذى هو الهدف الذى يسعى اليه علم اللغة(١) .

ولذلك لا سبيل الى دراسة اللغة اذا وضعنا في اعتبارنا كل أفراد الجماعة اللغوية التى ندرس لغتها أو لهجتها ، والسبيل الوحيد لهذه الدراسة أن نختار راويا أو أكثر ونعده ممثلا لهذه اللغة أو اللهجة .

---

(١) Crystal, Linguistics, P. 87 .

كيف نختار الراوى ؟

لقد كان يعتقد حتى وقت قريب أن من الضرورى أن يكون الراوى أميا حتى لا تؤثر العوامل الثقافية في تمثيله للهجته ، وألا يكون قد خرج من المنطقة التى تتكلم فيها هذه اللهجة ، لأن كثرة الأسفار والتعرض للاحتكاك باللهجات الأخرى يجعل لغته عرضة للتغير(١) .

ولقد تبين فيما بعد أن هذه الشروط غير ضرورية ، وأن هدف اللغوى أن يدرس اللغة كما ينطقها أفراد الجماعة اللغوية ، كما يدرس أيضا العوامل المؤثرة في تنوع سلوكهم اللغوى ، ويحاول ما استطاع أن يرد هذه الفروق الى عواملها الصحيحة ، ومن هذا المنطق يصبح من الضرورى أن يكون الراوى ممثلا للجماعة بكل خصائصها اللغوية والاجتماعية .

وعلى الباحث حين يختار الرواة أن يراعى ما يأتى :

ـ ينبغى أن يكون الرواة جميعا من المنتمين الى اللغة أو اللهجة المدروسة .

ـ الباحث بالخيار بين أن يختار الرواة من مجال بيئى متجانس أو من بيئات ثقافية متنوعة وفقا لهدف الدراسة الذى يتطلع الى تحقيقه .

ـ ينبغى ألا يكون لدى الرواة تصور سابق ـ بقدر الامكان ـ عن علم اللغة .

ـ أما عدد الرواة فيختلف باختلاف الهدف من الدراسة (دراسة لهجة عامة أو لهجة خاصة) ويتوقف أيضا على الاعتبارات العملية المناسبة للوقت والناس(٢) .

ـ لا ينبغى على الباحث أن يحدد المقصود مباشرة وأن يسأل الراوى مثلا ـ كما فعل بعض القدماء ـ كيف تجمع (دكانا) ؟ أو كيف تصغر

---

(١) حسان (د. تمام) اللغة بين المعيارية والوصفية ص ١٥٧ .

(٢) Crystal, Linhuistics, P. 137

(شيرة) ؟ (١) لأن معنى هذا أنه يعده لغويا ، وهو ليس كذلك ، وعلى أية حال الراوى قد تكون لديه مفاهيم خاطئة أو غامضة عن هذه المصطلحات (الجمع والتصغير . الخ) بل ربما لا يفهم المقصود منها البتة ، وهـذا يذكرنا بقصة الاعرابى الذى سئل هل يهمز (اسرائيل) ؟ فقال : انى اذا لرجل سوء ، لأنه لا يعرف من الهمز الا الضغط والعصر(٢) .

ـ ولا ينبغى أن أسأله مباشرة عن جملة محددة تضم مثالا لمشكلتى ، لأن هذا سوف يوجه انتباهه الى الظاهرة موضوع الدراسة ، وربما أدى الى أن تكون النتائج متحيزة ، فلا يقال مثلا : أتقول ضربت أخاك ؟ أو ضربت أخوك ؟ ينبغى على الباحث أن يخفى المشكلة بطريقة ما كأن يضع العبارة المطلوبة مثلا في سياق لغوى طويل ، ونطلب اليه أن يحدد موقفه من قبول المنطوق ككل .

ـ وينبغى أن أكون واثقا من أن تعليماتى الى الرواة واضحة ، وأنهم قد فهموا حقا ما ينتظر منهم أن يفعلوه .

ـ **وينبغى أيضا أن أختبر** دقة حدسهم ، ورهافة حسهم اللغوى بما هو مقبول وما هو غير مقبول بأن أقدم اليهم جملا واضحة جدا ليحددوا موقفهم منها ، ومن المفيد أيضا أن تقحم الجملة المقصودة غير مرة في جلسة المناقشة للاطمئنان الى موقف الراوى منها .

ـ وينبغى أن يعنى بتقديم الموضوع بطريقة لا توحى باجابة معينة ، وبقدر الامكان **يحسن بالباحث أن يضع** المقصود في اطار سياقات متنوعة جدا ، اختلف موقف الراوى من نطق كلمة ما منعزلة عن السياق عن نطقها في سياق محددا(٣) .

---

(١) ابن جنى : الخصائص ١/٢٤٢ والسيوطى : المزهر ١/١٤٦ .
(٢) ابن فارس : الصاحبى ص
Crystal, Linguistics, P. 86

الدقـــــة :

لقد قلنا في بداية الحديث عن السمات الضرورية للدراسة العلمية ان الوضوح شرط ضرورى في كل مراحل البحث اللغوى جمعا وتصنيفا وتقعيدا ، وقد تبينا ذلك من مناقشتنا لموضوع اختيار المصطلحات واختيار الرواة ، بل قلنا عند الحديث في الموضوع الأول ان اللغوى لا يدرس مفردات اللغة كلها بل يدرس أقســاما بعينها يفترض أنها تضم هذه المفردات ، والآن نجد أن الحديث عن الوضوح يقتضينا الحديث عن اللغة التى نستخدمها في الدراسة ، ومن المفارقات الشديدة أننا ندرس اللغة باللغة فكأنها هى موضوع البحث ولسانه في الوقت ذاته .

وليس من المقبول البتة في العلم أن تترك عبارة واحدة دون تحديد دقيق أو تستخدم قضية يشوبها الغموض أو الالتباس . فالدقة ضرورية ولا معدل عنها . · ووسيلة العلماء اليها استخدام لغة الرياضيات لغة الكم ، وهذه اللغة تساعد على التعبير عن حقائق العلم بمزيد من الدقة ، ان الفرق هائل من حيث الدقة بين قولنا ان الحديد ساخن ـ كما كان يقول القدماء وحتى أوائل العصر الحديث وقولنا ان درجة الحديد ٣٥٠ درجة مئوية(٢) .

وقد أفاد علم اللغة من هذا المسلك العلمى في بعض مجالات الدراسة فيه ، فلم يعد مقبولا في علم الأصوات أن يتحدث عن علو الصوت أو درجته دون استخدام لغة الكم فنحدد مثلا الطاقة التى تنتج الصوت والطاقة الأكبر تنتج سعة ذبذبة أكبر وصوتا أعلى ، وتكون درجة الصوت أعلى كلما كانت الذبذبات أسرع وعددها في الثانية أكثر · . ويحدد العلماء كل ذلك بدقة بالغة ، وليس هنا مجال الحديث المفصل عنها(١) .

بيد أن في اللغة جوانب أخرى من الصعب أن توصف كميا ومنها جانب المعنى ، ومازال علماء اللغة حتى اليوم مختلفين في اعتباره موضوعا صالحا

---

(٢) زكريا (د. فؤاد) التفكير العلمى ص ٥٤ ، ٥٥ .
(١) مختار عمر (د. أحمد) دراسة الصوت اللغوى ص ١٢ ، ١٣ .

للدراسة العلمية ، ونكتفى هنا بهذه الاشارة وسوف نعود اليه عند الحديث عن مستويات البحث في اللغة .

وثمة أمر آخر له ارتباط بلغة العلم وهو التجريد ، والرياضة بطبيعتها علم مجرد أى أنه لا يتحدث عن أشياء ملموسة فحين نقول أن ٣ + ٢ = ٥ لا يكون المقصود من هذا أية ثلاثة أشياء محددة ، وانما المقصود هو العلاقة المجردة بين حدود معينة بغض النظر تماما عما اذا كانت هذه الأرقام تعبر عن بشر أو فاكهة أو كتب . ومن هنا كان التجريد صفة ملازمة للعلم سواء تم عن طريق الرياضة (وهو الأغلب) أم عن طريق أى نوع آخر من الرموز أو الأشكال(١) .

والنحو العربى مثل واضح للتجريد ، فالاعراب مثلا نظام مجرد يعتمد على بيان الموقع والحالة والعلامة خذ الجملة الآتية مثلا لذلك : الشمس ساطعة، ولنبدأ في اعرابها .

الشمس : مبتدأ (موقع) مرفوع (حالة) بالضمة (علامة) .

ساطعة : خبر (موقع) مرفوع (حالة) بالضمة (علامة) .

ان استخدام المصطلحات (موقع وحالة وعلامة) عمل تجريدى بحت ، فليست خاصة بكلمة الشمس فحسب أو بكلمة ساطعة فقط ، وانما هى صفة تستحقها أية كلمة يمكن أن تشغل هذا الموقع أو ذاك . بل ان الحالات الاعرابية (الرفع والنصب والجر والجزم) على درجة عالية من التجريد ، اذ انها موضوعة للتمييز بين المواقع الممكنة في اللغة العربية ، فالفاعل يميزه عن المفعول به أنه مرفوع ، والمفعول به يميزه عن الفاعل أنه منصوب ، والرفع والنصب لا وجود لهما الا في أذهان النحاة الذين يدرسون المواقع النحوية ، ان النحاة في الحقيقة لا يتعاملون مع مفردات وانما يتعاملون مع أقسام ، وهم في النهاية يحددون علاقات مجردة .

---

(١) زكريا (د. فؤاد) التفكير العلمى ص ٥٣ .

ثانياً : النظاميـة

من أهم سمات التفكير العلمى التنظيم أى أننا لا نترك أفكارنا تسير حرة طليقة ، وانما نرتبها بطريقة محددة وننظمها عن وعى ، ونبذل جهدا مقصودا من أجل تحقيق أفضل تخطيط ممكن للطريقة التى نفكر بها(١) .

ومن هذا المنطلق يحذرنا علمـاء اللغة المحدثون من كثير من مزالق الدراسة غير العلمية ، فدراسة بنية اللغة كيفما اتفق ، أو دراستها دراسة جزئية غير شاملة دون قصد ووعى ، أو تفسير ظواهرها تفسيرا انطباعيا ، أو تحليلها تحليلا مضطربا ، أو استخدم المصطلحات استخداما متقلبا ، أو الفشل في فهم الأعمال السابقة ، هذه السمات كلها ينبغى أن يتجنبها الباحث الذى يريد أن تكون دراسته للغة دراسة علمية(٢) .

واللغة ظاهرة على جانب كبير من لاتعقيد والتنوع : فالجمل أو التراكيب أو الأبنيـة التى تؤلف نسيجها لا حصر لها وتتنـوع تنوعا حتى ليبدو من المستحيل أن نصل الى أية نتائج عامة من فحصها الا اذا درست بطريقة على درجة عالية من التنظيم .

لا مندوحة لنا اذا ما أردنا أن ندرس اللغة دراسة علمية ـ عن تبنى منهج منظم يساعدنا في اكتشاف النظام الذى يحكم اللغة وفي وضع النظرية التى تفسر الطريقة التى يعمل بها . والمنهج العلمى ما هو الا شكل منتظم بطريقة خاصة للتفكير والبحث . والآن ما الخطوط التى تمثل هذا المنهج العلمى ؟ وكيف يمكن أن يستفيد منه اللغـويون ليجعلوا دراسـتهم للغـة علميـة ؟

خطوط المنهج العلمى :

(أ) أن يختص أى علم من العلوم بمجموعة من الظواهر يمكن تحديدها

---

(١) زكريا (د. فؤاد) التفكير العلمى ص ٢٧ .

(٢) Crystal. Linguistics, P. 87

بوضوح وتمييزها عن غيرها من الظواهر التى يختص بها علم آخر ، هذه الظواهر هى ميدان هـذا العلم أو موضوع بحثه . وعلم اللغـة ميدانه أو موضوع بحثه اللغة ، وقد سبق القول بأنها نظام من الرموز المنطوقة المكتسبة تستخدمه جماعة معينة من الناس بهدف الاتصال وتحقيق التعاون فيما بينهم (ونعنى باللغة هنا المنطوقة وهى العنصر الأساسى والمكتوبة وهى العنصر الثانوى ، ونعنى بها كذلك اللغات الحية التى ما تزال تستخدم حتى اليوم واللغات الميتة التى كانت تستخدم في وقت من الأوقات) . ولهذا يكاد اللغويون يتفقون على أن دراسة العمليات العقلية السابقة لعملية انتاج الكلام أو التالية لاستقباله خارج نطاق البحث اللغوى .

(ب) أن تقوم الدراسة على الملاحظة المباشرة .

وفي هذه المرحلة يقرر الدكتور فؤاد زكريا أن المنهج العلمى يبدأ بملاحظة منظمة للظواهر المراد بحثها ، وأن هذا العمل يفترض عملية اختيار وانتقاء وعزل للوقائع التى تهم الباحث في ميدان عمله من بين ألوف الوقائع الأخرى التى تتشابك مع هذه الظواهر(١) .

وفي مجال الدراسة اللغوية نتبين أن تعقد الظواهر اللغوية البالغ الذى يواجهنا عندما نبدأ في البحث يجعل من الضرورى أن نختار من جوانب اللغة المتنوعة ما يمكن أن نبدأ به بحثنا ، ولكن من أين نبدأ وليس في الكلام ذاته ما يهدينا الى نقطة البداية ؟

بعض الباحثين يفضل أن يبدأ بدراسة النظام الصوتى للغـــة (علم الأصوات والفونولوجى) محددا طبيعة السواكن والحركات مبينا الطرق التى بها تندمج هذه الوحدات لتؤلف مقاطع أو أية امتدادات أخرى ، وبعد ذلك ينتقل الى دراسة أبنية الكلمات (الصرف) وبعد هذا ينتقل الى دراسة الطرق التى تنتظم فيها الكلمات ، لتؤلف جملا أو عبارات (النحو) ، وقد يحاول فيما بعد دراسة المعانى المختلفة التى تنقلها هذه الكلمات أو الجمل (المعنى) .

---

(١) التفكير العلمى ص ٣١ .

لقد كان هذا منهجا شائعا في علم اللغة حتى عهد قريب ، ولكن ـ كما يقول كريستال ـ : لا شيء طبيعيا في هذا المنهج ، ولغويون كثيرون يفضلون غالبا المنهج المقابل له ، هذا المنهج يبدأ بدراسة العلاقات الدلالية التى بين الكلمات أو بين المجموعات الكلامية المتعاقبة ، ثم يحدد بعد ذلك النماذج النحوية أو الصرفية التى تعبر عن هذه المعانى ، وبعد ذلك فقط ربما ينتقل الى دراسة الوسيلة التى تنطق بها هذه النماذج . وليس هذا أيضا هو الاختيار الوحيد فثمة بدائل أخرى(٢) .

ويتحدث الدكتور تمام حسان عن الظواهر اللغوية التى يمكن أن تخضع للملاحظة قائلا : « وسبيل الملاحظة الاستقراء ، ويتطلب الاستقراء عددا هائلا من المفردات التى يتناولها ، وقد تكون هذه المفردات أصواتا عند دراسة الأصوات أو حروفا أو مقاطع أو ظواهر موقعية عند دراسة التشكيل الصوتى (الفونولوجى) أو صيغا عند دراسة الصرف أو أبوابا عند دراسة النحو أو غير ذلك . وتتطلب كل مجموعة من هذه المجموعات أن يتم استقراء مفرداتها ، وقد وضع كل منها تحت ظروف مختلفة ، فاذا أردنا استقراء سلوك معين مثلا اخترنا من حالات النطق ما يكون هذا الصوت مجاورا فيها لكل صوت آخر من أصوات اللغة اما سابقا واما لاحقا له ثم وضعناه في أول الكلمة أو بين صوتى علة أو مشددا أو ساكنا في الوسط .. الخ ثم لاحظنا ما يعتوره في كل حالة من هذه الحالات من خصائص صوتية ، ثم يجيء التقسيم وتسمية الأقسام بعد الملاحظة ، وعملية التقسيم تقوم على ايجاد أوجه الاتفاق بين المفردات فما توافق منها ائتلف وما تنافر منها اختلف ، وانما تكون أوجه الاتفاق بين ما ائتلف منها متعددة الجوانب كالشركة في الشكل أو في الوظيفة أو فيهما معا » (١) .

أما الطرق التى يستخدمها اللغوى في ملاحظة الظواهر المدروسة فكثيرة منها : السماع أو التدوين الصوتى ، وقد يستخدم الأجهزة في تسجيل المادة

---

(٢) Crystal, Linguistics, P. 89

(١) اللغة بين المعيارية والوصفية ص ١٥٨ ، ١٥٩ .

أو في تحليلها وفي التعرف على خصائصها مثل : راسم البذبات Oscilograph أو جهاز رسم الأطياف Spectrograph أو الكيموجراف Kymograph الخ (١)

وقد يعمد الباحث الى الاحصاء أو الى استخدام الرموز والمعادلات ، على أن استخدام هذه الطرق كلها ـ كما يقول (كريستال) : ليست الا وسائل لغاية محددة ، وليست غاية في حد ذاتها ، ومن الفهم القاصر والضلال البين أن ننظر الى علم اللغة على ضوء هذه الوسائل ، وربما كان أكثر من ذلك أهمية الطريقة التى تستند اليها الاجراءات أو المخططات العلمية في الدراسة ، أو بعبارة أفضل أن ننعم النظر في المنهج العلمى الذى يعتمد عليه البحث(٢) .

(حـ) وبعد أن يستوفي الباحث ملاحظاته ، وينتهى من ترتيبها ترتيبا يكشف عن العلاقات الداخلية التى تربط بين الظواهر المدروسة ، ويستخلص أوجه الاتفاق أو الاختلاف بينها ـ يضع الفروض التى تفسر هذه الظواهر .

والفرض Hypothesis قضيـة تفترض أو تتنبأ بعلاقـة بين متغيرين أو أكثر كأن يقال اذا وقع (ا) مثلا وقع (ب) ومن الفروض الأولية في اللغة : تفخم الحركات العربية حين تسبق بصوت مفخم ، ينصب الفعل المضارع اذا سبق بأداة نصب . . . الخ ومن الفروض الأكثر تعقيدا : التغيرات الصوتية مطردة ، اللغة ظاهرة انسانية ، العربية الفصحى كانت لهجة قريش. . الخ .

والفرض الواحد قد يقوم على أساس عدد من الفروض التى يمكن اختيارها قبل وضعه بطرق احصائية فالفرض القائل بنصب الفعل المضارع حين يسبق بناصب قد سبق بعدد من الفروض التى حددت احصائيا النواصب التى يجىء بعدها الفعل المضارع .

(د) وبعد أن يضع الباحث الفروض المناسبة لتفسير الظواهر المدروسة ينبغى عليه أن يتحقق من صحتها ، لأن الفرض ـ من حيث المبدأ ـ يقرر علاقة يمكن أن يبرهن عليها أو يتبين خطؤها . وذلك بوضع الظواهر المدروسة في

---

(١) أنظر مختار عمر (د. أحمد) دراسة الصوت اللغوى من ص ٣٣ ـ ٤٤ للتعريف بهذه الأجهزة .

(٢) Crystal, Linguistics ,P. 48.

ظروف محكومة مع تنويع الظروف كلما أمكن ، وينبغى أن تكون الظروف التى تتم فيها التجربة واضحة بحيث يمكن الآخرين أن يكرروا التجربة ويؤكدوا صحة النتائج(١) . بيد أن الظواهر اللغوية التى يمكن أن تختبر بالطريقة السابقة المتبعة في الأشياء المادية قليلة (كدراسة الجوانب الفسيولوجية والسمعية للأصوات اللغوية) . بيد أن هذه الطريقة ليست وحدها السبيل الى الاستيثاق من الفرض ، فاللغوى مثلا يمكنه أن يقوم بفحص أكبر عدد من المتغيرات في موقف تجريبى خاص ، فعلى سبيل المثال يمكنه أن يتحقق عن طريق مادة لغوية جديدة من تأثير متغير ما على المتغيرات الأخرى في الموقف (مثل وجود لن وغيرها من النواصب قبل الفعل المضارع) كما يقوم أيضا بفحص العوامل الأخرى التى يمكن أن يكون لها دور في التغير المذكور كأن يفحص مثلا تأثير موقع الناصب من الفعل المنصوب ، أو الفصل بينه وبين الفعل بفاصل ما (حرفا أو كلمة أو جملة) . . الخ وعليه عندئذ أن يستبعد العوامل غير المؤثرة أو غير الصالحة لتفسير النتيجة .

وقد يكون العامل المؤثر في الحالة اللغوية هو فقدان السبب الموجب لتأثير معين ، وهذا هو ما فسر به النحاة حالة الرفع في الفعل المضارع حين قالوا : يرفع الفعل المضارع حين لا يسبقه ناصب أو جازم .

وينبغى الحذر عند وضع الفروض من تأثرنا بالفروض التقليدية في المجال المدروس ، ولذلك ينبغى أن توضع هذه الفروض موضع الاختبار الدقيق . ومثال ذلك أن النحاة القدامى قالوا : ان الفعل المضارع يأتى منصوبا بأن مضمرة وجوبا بعد حتى ولام التعليل ، والسر في ذلك كما يقول سيبويه : فانما انتصب هذا بأن ، وأن هنا مضمرة ، ولو لم تضمرها لكان الكلام محالا ، لأن اللام وحتى انما يعملان في الأسماء فيجران وليستا من الحروف التى تضاف الى الأفعال(٢) .

فليس ثمة ما يمنع من وضع فرض جديد لتفسير النصب في الفعل المضارع

---

(١) زكريا (د. فؤاد) التفكير العلمى ص ٣٣

(٢) سيبويه : الكتاب ٣/٥ ، ٦ .

بعد اللام وحتى وهو أن اللام وحتى قد يجران اذا سبقا اسما وقد ينصبان اذا سبقا فعلا مضارعا .

ومن الضرورى أن يكون واضحا أن الفرض الذى يقترحه الباحث لتفسير الظاهرة موضوع البحث ينبغى العدول عنه اذا لم يتبين صحته والبحث عن فرض آخر . . وهكذا حتى نصل الى الفرض الصحيح ، وهذا يتطلب العودة الى مادة البحث أو جمع مادة أخرى كلما احتاج الأمر الى ذلك .

(هـ) بعد أن ينتهى الباحث من اختيار الفروض والبرهنة على واحد منها يأتى الى المرحلة الأخيرة حيث تصبح الفروض المختبرة قوانين أو قواعد أو سلوكا يمكن التنبؤ به .

وفقا لهذا الأساس يمكن أن نجعل الفرض الآتى قاعدة فنقول : فقدت لهجة القاهرة فونيم (الثاء والذال وحل محلهما على التعاقب فونيم (التاء والدال) .

هذه القاعدة يتوقع أن يجىء الكلام وفقا لها فكلما وجدت (ثاء) في الفصحى مثل : ثوب وثوم وثلاثة . . الخ توقعت أن تحل محلها (التاء) فيقال : توب وتوم وتلاتة . . الخ وكلما وجدت (ذالا) توقعت أن يحل محلها (الدال) فيقال في : ذئب وذراع وذيل ـ ديب ودراع وديل .

وليس المقصود بوضع القواعد في العلوم اللغوية بخاصة أن تكون كلية تشمل كل الأفراد ، بل الهدف هو الوصول الى قواعد عامة تنتظم أغلب الأفراد ، وينبغى ألا ينظر الى القاعدة في العلوم اللغوية كما ينظر الى القانون في العلوم الطبيعية مثلا .

فاذا ما وجد الباحث شيئا يختلف عن القاعدة فلا يتسرع باتهامها أو بتخطئة الظاهرة أو المثال المخالف لها ، بل عليه أن يبحث عن تفسير لذلك ، وعلى سبيل المثال ماذا نقول اذا تبين من المادة المجموعة أن (السين) تحل أحيانا محل (الثاء) وأن الزاى) تحل أحيانا محل (الذال) في اللهجة القاهرية وهو ما يبدو متعارضا مع القاعدة السابقة ؟

وتفسير ذلك أن بعض الكلمات التى تحل فيها (السين) محل (الثـاء) مثل : سورة وحديس . . الخ أو تحل فيها (الزاى) محل (الذال) مثل : زكى وزكر يغلب أن تكون على ألسنة أفراد من طبقة اجتماعية أرقى تعلما من الطبقة التى تجعلها (تاء) أو (دالا) . ويفسر بعضها الآخر أن استخدام (السين) أو (الزاى) يغلب حين يكون الموقف مرتبطا بالعلم أو الدين أو الأدب فيقال مثلا : الأدب الحديس والزكر الحكيم . . الخ .

ويلخص الدكتور تمام الأسس التى ينبغى مراعاتها عند وضع القواعد فيما يأتى :

ـ القاعدة وصف لسلوك عملى في تركيب اللغة ، ويلاحظ أن يكون هذا السلوك مطردا حتى يعبر عنه بالقاعدة .

ـ القاعدة لهذا السبب جزء من المنهج لا جزء من اللغة .

ـ لابد أن تتصف القـاعدة بالعمـوم وليس من الضرورى أن تتصف بالشمول .

ـ أن تكون القاعدة مختصرة قدر الطاقة .

ـ من الضرورى ايراد بعض الشواهد والأمثلة التى جرى عليها الاستقراء لتكون سندا للقواعد وايضاحا لها(١) .

ثالثاً : الموضوعيـة

الموضوعية سمة أساسية للتفكير العلمى ، والمقصود بها أن القضايا التى تثار أو النتائج التى يوصل اليها أو الأدلة التى يعتمد عليها ينبغى أن تكون قابلة ـ بعامة ـ للملاحظة والتجربة ، والكلمة التى تلخص هذه المعانى هى أن يكون العمل تجريبيا empirical ، والعمل التجريبى هو اختيار يتم فيه فحص ظاهرة في ظروف تجريبية محكومة ، وتكون النتائج فيه قابلة للملاحظة المباشرة

---

(١) اللغة بين المعيارية والوصفية ص ١٦٣ ، ١٦٤ .

والحكم المباشر ، فاذا ما أعيد الفحص وصل الباحث الى النتيجة ذاتها والحكم ذاته ، ولنقل بعبارة أخرى : النتائج يمكن البرهنة عليها (١) .

وثمة طريق آخر للنظر الى الموضوعية هو أن ننظر اليها على ضوء نقيضها الذاتية ، وحينئذ يكون المقصود بها : أن يكون التفكير مرتبطا بسلوك الظواهر الخاضعة للملاحظة بحيث تصبح طبيعة موضوع الدراسة هى الفيصل في الحكم على الظواهر دون اعتماد على ميول الذات الباحثة ولا عواطفها وآرائها الشخصية ومعتقداتها (٢) .

ان الدراسة الموضوعية ينبغى أن تفهم على أنها مناقضة للنظرة الذاتية ، ان العالم الذى يريد أن يعرف درجة حرارة طفل مثلا لا يعتمد على شعوره الذاتى أو موقفه العاطفى نحو هذا الطفل بل يخضعه للملاحظة الموضوعية ، وقد يستعين في ذلك (بالترمومتر) العيارى ليكون القياس دقيقا ، ولن يتطلب التحقق مما وصل اليه من نتيجة الا وجود ملاحظ آخر يتبين مطابقة الشىء المراد قياس درجة حرارته للمقياس المعيارى (أى قراءة الترمومتر) .

أما المعالجة الذاتية فهى قائمة على أساس يختلف باختلاف الأشخاص الذين يقومون بالمعالجة ، فلو كان الملاحظ مثلا والد الطفل وقام بنفسه بالتعرف على درجة الحرارة معتمدا على شعوره الذاتى نحو ولده ـ ما توقعنا حكما يمكن التحقق منه ، وهكذا سيكون الأمر حين يطلب الى شخص آخر أن يقوم بالملاحظة بالطريقة ذاتها ، ولهذا قيل : ان المعالجة الموضوعية علمية ، لأن الملاحظين الذين يراقبون الموضوع المدروس لن يختلفوا في ملاحظاتهم أو في أحكامهم ، أما المعالجة الذاتية فغير علمية ، لأنها تحتاج الى ملاحظين يتخذون نفس الموقف الشعورى نحو الموضوع المدروس وهذا لا سبيل اليه .

وثمة معان اضافية للمصطلح « الموضوعية » على درجة كبيرة من الأهمية ، انها تعنى أن يتخذ الباحث مسلكا نقديا مبدئيا حين يتشكك في أى فرض من

---

(١) Crystal, Linguistics, P.P. 99,100

(٢) حسان (د. تمام) الأصول ص ١٤ .

الفروض الى أن يتأكد من صحته بدليل تجريبى ، انها تعنى الحذر من المفاهيم السابقة التى ربما تدعم فرضا من الفروض المقترحة ، وعلى الباحث من أجل ذلك أن يبذل جهدا في التفكير بعيدا عن القضية المطروحة فيدرسها من زاوية جديدة ، أو يعرض فروضه على رفقائه من الباحثين لقراءتها بدقة ونقدها ، انها تعنى أيضا استخدام مخططات دراسية موحدة Proceedure **مخططات** تحظى بالقبول عند معظمأو كل اللغويين ، لأنها صالحة للبحث ولا تحتاج الى تعديلات خاصة في كل مرة تستخدم فيها . . الخ(١) .

لقد تكلمنا عن الذاتية في مضمونها المرفوض علميا حيث يعتمد الباحث في الملاحظة وفي وضع الفروض على شعوره أو معتقده أو حدسه تجاه الموضوع المدروس ، بيد أن لها جانبا آخر قد يضيف بعدا ثمينا وٌنوعيا للدراسة ، وقد يزودنا بفروض مفيدة وبخاصة في مراحل البحث الأولى ، ولكن ينبغى أن نضع في اعتبارنا أن مـثل هذه الفروض غير علميـة الا اذا تم اختبارها والبرهنة عليها(٢) .

وعلى هذا فليست الملاحظة الذاتية معيبة في كل الأوقات أو مخطئة في كل الظروف ، فهناك دراسات في الأدب والنقد مثلا تستند في بعض أحكامها على الملاحظة الذاتية ، وليس هذا معيبا بحال من الأحوال ، ولا ينبغى أن يكون مدعاة الى اتهام هذه العلوم بعدم الدقة ، والذى يعنينا هنا أن الدراسة اللغوية ـ لكى تكون علمية ـ ينبغى أن تكون موضوعية .

وقد كان البحث اللغوى ـ وبخاصة فيما يتصل بنشأة اللغات ـ مجالا **لكثير من الفروض والنتائج غير العلمية . لقد قيل مثلا : (اللغة العبرية أقدم اللغات) وهو فرض لا سبيل للبرهنة عليه علميا** (أى باستخدام المنهج العلمى الذى حددنا خطوطه العامة في الصفحات السابقة) وثمة مزاعم أخرى تدفع هذا الفرض فثمة من يقول : (اللغة العربية أقدم اللغات) ومن يقول (اللغة الألمانية أقدم اللغات) . . الخ .

---

(١) See : Crystal, Linguietics, P.P. 99 - 102

ومن ذلك أيضا ما يتصل بالحديث عن أفضل اللغات أو أكمل اللغات أو أغنى اللغات أو ما شاء أصحاب هذا الحديث من صفات التفضيل ، فهذا ابن فارس يقرر أن اللغة العربية خصت بالبيان وأن سائر اللغات قاصرة عنه وواقعة دونه ، ولو احتجت الى التعبير بها عن شيء مثلا لوجدت عشرات من الألفاظ تدل عليه ، ولو اردت ذلك بغيرها لما أمكنك ذلك ..(١) وشيء من هذا يقوله (جالينوس) عن اليونانية ، اذ هى أفضل اللغات ، لأن سائر اللغات انما تشبه نباح الكلاب أو نقيق الضفادع(٢) .

من طرق البحث الموضوعية :

لقد تحدثنا عن الموضوعية على أنها سمة أساسية للتفكير العلمى وسلوك ينبغي على الباحث أن يسلكه حين يدرس موضوعه ، هذا جانب له أهميته ، وثمة جانب آخر لا يقل عنه أهمية هو أن نقترح طرقا أو (تكنيكات) معينة تتحقق فيها النظرة الموضوعية الخالصة .

(أ) استخدام مخطط موحد :

يرى (كريستال) أن من معـانى الموضوعية أن يستخدم الباحث مخططات موحـدة بقدر الامكان ، مخططات يقبلها معظم اللغويين أو كلهم ، ويرون أنها صالحة للدراسة وليست في حاجـة الى تبريرات أو تعديلات في كل مرة تستخدم فيها .

وهذا الموضوع يحتاج الى توضيح وبخاصة ما يتصل بالكلمة (موحدة الى تعنى هنا أمرين :

الأول : تشير الىطرق أو (تكنيكات) يجزم علماء اللغة بأنها صالحة للدراسة أو على الأقل يقرر الباحثون صلاحيتها على أسس غير الأسس المقررة في علم اللغة ، كاستخدام التفسير الاحصائى أو غيره من التفسيرات الرياضية

---

(١) الصاحبى ص ١٦ ـ ٢٥ .

(٢) ابن حزم : الاحكام في أصول الأحكام ١/ ٣٩ .

أو استخدام المنهج الشكلى(١) .

الثانى : تشير الى طرق أو (تكنيكات) ينتشر استعمالها في علم اللغة ويعرف اللغويون قيمتها . وما هو أكثر من ذلك أنهم يفهمون حدودها فهما جيدا ، مثال ذلك ما يعرف باختبار الثنائيات الصغرى Minimal Pair في علم الأصوات التشكيلى أو Phonology ، وهذا المنهج استخدمه معظم اللغويين عندما كانوا يدرسون لغة لأول مرة ، ويريدون اكتشاف نظامها الصوتى(٢) .

واليك صورة موجزة لهذا الاختبار .

من بين الأصوات التى يمكن للانسان أن ينتجها أصوات يستخدمها بالفعل في لغته لغرض الاتصال وأصوات أخرى لا تستخدم لهذا الغرض ، ففى العربية الفصحى مثلا يمكنك أن تنطق الفتحة الطويلة في الفعل (طغى) أو ما يشبهه فتحة طويلة ممالة الى الكسرة / / لأنه لا ينبنى على ذلك أى فرق في المعنى ، ولكنك لو وضعت الطاء مثلا موضع التاء من الكلمة (تين) لكان الأمر مختلفا ، اذ ينبنى على ذلك خلاف في المعنى ، وتخيل معى ما يكون حين يقال : أكلت طينا وعنبا بدلا من تينا وعنبا واختيار الثنائيات الصغرى - باختصار - وسيلة يقرر بها اللغوى الذى يدرس لغة معينة - الأصوات التى تفرق في المعنى والأصوات التى لا تفرق في المعنى ، انه يعمل على النحو الآتى :

خذ كلمة مستقلة بذاتها لتبدأ بها ، ثم غير صوتا واحدا من أصواتها ، فاذا ما نتج عن ذلك كلمة جديدة مختلفة (أى اذا أخبرك الراوى بأن الكلمتين ليستا متماثلتين) فلديك اذا صورة للثنائيات الصغرى ، ومن هنا يعتبر الباحث الصوتين اللذين أحدث تغييرهما هاتين الكلمتين - صوتين أساسيين ، أى أنهما عنصران من عناصر النظام الصوتى ، ويطلق اللغويون على كل صوت منهما مصطلح (فونيم) انظر مثلا الى : قال وكال وبال وسال ومال . . الخ

---

(١) سنتكلم في نهاية هذا الفصل عن استخدام الصيغ الرياضية في البحث اللغوى .

(٢) Crystal, Linguistics, P. - 00

فالقاف والكاف والباء والسين والميم فونيمات في اللغة العربية الفصحى تشكل وحدات من نظامها الصوتى ، لأنها تقوم بالتفريق في المعانى كما هو واضح عند المقابلة بين الكلمات السابقة .

(ب) فحص عينة محدودة :

لقد ذكرنا من قبل أن موضوع علم اللغة هو اللغة منطوقة أو مكتوبة في المواقف الفعلية . والهدف من دراسة هذه المادة عند أصحاب المنهج التجريبى هو أن نسلكها في أنماط ونماذج ، نماذج صوتية أو صرفية أو نحوية . . وعلى أساس مادة محدودة نضع فروضا تتصل ببنية هذه المادة تنطبق على أية مادة أخرى تضاف الى المادة المختبرة ، هذا القدر من المادة الذى نستخدمه للبرهنة على فروضنا يطلق عليه مصطلح العينة Corpus (١) .

والعينة ـ كما يعرفها (هارتمان) و (ستورك) : قدر غير منتظم من المادة اللغوية المجموعة في مجال لغوى محدد (منطوقة أو مكتوبة) . هذه المادة يحللها اللغوى لكى يضع فروضا أو مقولات تتصل بالخصائص الصوتية أو الاملائية أو الصرفية أو النحوية أو المعجمية للغة(٢) .

وقد كان هذا المسلك الذى يعتمد في الدراسة على تحليل قدر محدود من اللغة منتشرا في الأربعينات والخمسينات من هذا القرن ، وقد عرف بأسماء عديدة ، ربما كان أكثرها لأشهرة المنهج البنيوى Structural Approach.(٣) .

وقد نهج علماء العربية الأوائل حين جمعوا مفرداتها ووضعوا نظامها الصوتى والصرفي والنحوى هذا المنهج ، فاكتفوا بالقليل عن الكثير ، وقاسوا ما لم يسمع على ما سمع ، وفي ذلك يقول المازنى : ألا ترى أنك اذا سمعت « قام زيد » أجزت أنت (ظرف خالد) و (حمق بشر) وكان ما قسته عربيا كالذى قست عليه ، لأنك لم تسمع أنت ولا غيرك اسم كل فاعل ومفعول ، وانما

---

(١) Crystal, Linguistics, P. - 02

(٢) Dictionary of Languagl and Linguistics

(٣) Crystal, Linguiestics, P. 103

سمعت بعضا فجعلته أصلا ، وقست عليه ما لم تسمع ، فهذا أثبت وأقيس(١) .

البحث اللغوى بين أنصار المنهج التجريبى وأنصار النحو التوليدى :

لم يستمر المنهج التجريبى مسيطرا على البحث اللغوى طويلا ، وان كان مازال يستخدم حتى اليوم ، فقد ظهر منهج جديد في أواخر الخمسينات عرف بالنحو التوليدى . ويرتبط هذا المنهج أساسا باسم (ناعوم تشومسكى) هذا المنهج معارض للمنهج التجريبى : ذلك المنهج الذى يعتمد على الملاحظة الموضوعية واختبار الفروض بالتجربة المباشرة ، ولا يعتمد البتة على الفروض أو الاستنتاجات العقلية التى لاتخضع لهما .

وقد قرر (تشـومسكى) أن علم اللغة يعنى بما هو أكثر من مجموعة النماذج الموجودة في أية عينة ، ونحن معه في ذلك ، لأن العينات ـ كما يقول (كريستال) لا يمكن أن تمثل اللغة كلها بل تعكس فحسب صورة جزئيـة مختارة أضف الى ذلك أن تسجيل الكلام في المواقف الطبيعيـة يكشف عن بدايات زائفة جدا ، انحرافات عن القواعد ، تغيرات في مجرى الحديث حين يدرك المتكلم أن السامع لم يفهـم ما يقول أو أنه هو لم يعبر عما يريد تعبيرا مقبولا . . هذه الأخطاء أو العثرات قد تكون راجعة الى عدد من العوامل مثل : الذاكرة الضعيفة ، أو انشغال السامع عن المتكلم . . الخ والمهم أن لدينا قدرة على التعرف على ماهية هذه العوامل وكيف نتجنبها . نحن لا نأخذ هـذه العوامل في الحسبان حين ننصت الى ما يقوله شخص ما ، وهذا يفترض ـ كما يقول (تشومسكى) ـ أننا تعلمنا طريقة لتمييز المنطوق الخاطىء من الصائب عند التفريق بين الجمل . ولهذا نفترض أن البشر قد تمكنوا من نظام من القواعد ، هذا النظام ليس كامنا في العينات بل انه قابع خارجها ، من المحتمل أن يكون في عقول المتكلمين باللغة(٢) .

ان وجود هذا النظام من القواعد يفترضه ما نلاحظه في الاستعمال اللغوى

---

(١) المصنف حـ ١ ص ١٨٠ .

(٢) Crgstal, Linguistics, P. - 03

من مظاهر الخلق والابتكار ، ومن البدهى في هذه الأيام أن يقال : ان كل واحد منا لديه قدرة على انتاج وفهم عدد هائل من الجمل الجديدة ، جمل لم يؤلفها ولم يسمعها من قبل ، أو على الأقل لا يذكر ذلك .

خذ مثلا لذلك الجملة الآتية التى أتوقع أنك لم تؤلفها ولم تسمعها من قبل ومع ذلك تفهمها جيدا . (كتاب البنت الصغيرة دعاء الكثيرة صفحاته البارزة حروفه الزاهية ألوانه الجميلة صوره مشوقة حكاياته أحداثها مثيرة ومضمونها أخلاقى) .

والهدف الرئيسى للنظرية اللغوية هو أن تجيب عن السؤال الآتى : كيف فهمنا هذه الجملة ؟ ربما نكون قد تمكنا من وسيلة تجعلنا قادرين على تقسيم كل جملة الى أجزاء أو وحدات مألوفة (مبتدأ + خبر) كما في : (السيارة مسرعة) مثلا ، ونصل الى تأليف أية جملة جديدة بالرجوع الى هذه الأجزاء أو الوحدات(١) .

وفي كل لغة عدد لا حصر له من الجمل ، ولدى كل فرد من المتكلمين بها قدرة على علاج أجزائها من الكلمات والعبارات وأشباه الجمل بهذه الطريقة . اللغة ـ كما يقول التوليديون ـ ما هى الا استخدام غير محدود لوسائل محدودة ، وهذا يتطلب أو يفترض وجود نظام من القواعد يتمثل في كل شخص يتعلم لغة معينة ، بهذا النظام يفهم هذا الشخص وينتج جملا جديدة أو قديمة مقبولة أو مرفوضة ـ ولا شيء غير هذا .

ويمضى (تشومسكى) في المناقشة ليوضح أن دراسة هذا النظام من القواعد يكون ـ في النهاية ـ أكثر أهمية من دراسة الجمل الفعلية ذاتها ، لأن هذا النظام ما هو الا مخطط أو مشروع عمل يحدد كل الاحتمالات في اللغة ، على حين أن أية مجموعة من الجمل (كما في العينة) مهما كانت كبيرة تقدم فحسب صورة لما يمكن أن نفعله . ولهذا وضع فرقا أساسيا بين معرفة المتكلم بلغته أى نظام القواعد المتمكن منه ، واستخدامه الفعلى للغة في مواقف الحياة

---

(١) Crystal, Linguistics, P. - 04

الواقعية ، وقد أطلق الأول على مصطلح (ملكة Competence) وعلى الثانى (فعل ، تنفيذ Performance)

ومن أعظم مهام علم اللغة ـ كما يقول (تشومسكى) أن يدرس هـذه الملكة ، ان مشكلة اللغوى (ومثلها مشكلة الطفل الذى يتعلم لغته) هى أن يميز (أو يستخرج) من مادة الفعل data of performonce نظام القواعد الكامن underlying System الذى تمكن منه المتكلم والسامع كلاهما ، والذى يلجأ اليه في التنفيذ الفعلى(١) .

ونعود بعد هذا الاستطراد الى موضوعنا الخاص بالتعارض بين المنهج التجريبى الذى يلاحظ المادة المجموعة ويخضعها للتجربة ، والتوليدى الذى ينظر الى النظام اللغوى نظرة عقلانية .

يقول (كريستال) ان الملكة ـ كما أوضحها (تشومسكى) في النصوص السابقة ـ نظام عقلى تحتى ، انه يكمن وراء السلوك الفعلى ، ولذلك لا يصلح للدراسة التجريبية المباشرة ، واذا لم يكن صالحا للملاحظة المباشرة فان الطريق الرئيسى الذى يمكننا من اكتشافه هو الاستبطان intrespection أى بسؤال أنفسنا كيف نستجيب (أو نفسر أو نحلل) لجملة معينة ؟ ان صاحب اللغة (أو اللغوى الذى قد يكون من أصحاب اللغة المدروسة) مدينان للحدس اللغوى الذى يتيح لهما أن يحللا اللغة وفقا لحاجتهم (ازالة اللبس ، تجاهل الأخطاء ، فهم الجمل الجديدة . . الخ) . والذى نستخلصه من ذلك أنه اذا كان هدف علم اللغة هو وصف الملكة Competence ، واذا كان المدخل الوحيد المباشر اليها هو الحدس intuition فان الحدس يصبح دليلا من الأدلة التى نستشهد بها على ماهية هذه الملكة ، ولنقل هذا بعبارة أخرى : اذا كانت الملكة أو القدرة هى الموضوع الفعلى لعلم اللغة فان حدسنا يكون جزءا من المادة الذى عليه تستند نظرية الملكة(٢) .

والحدس من حيث هو طريقة للمعرفة يتميز بأنه معرفة مباشرة لا تحتاج

(١) Crystal, Linguistics, P. 104

Crystal, Linguistics, P. 105

الى وسائط ، ولا تسير بالتدريج من خطوة الى خطوة ، وهو ينقلنا مباشرة الى لب الموضوع المدروس بدلا من وصفه وصفا خارجيا أو مقارنته بغيره ، وهو في جوهره معرفة فردية أى أنه يتاح لشخص بعينه لا لأى شخص آخر ، وهو يتطلب تجربة من نوع خاص يصعب نقلها الى الغير أو تعليمها أهم ، ويستحيل أن نعممها على الجميع(١) .

ولعل ما سبق من تعريف الحدس هو السبب في أنه لا يعد جزءا من موضوع البحث أو أداة له في العلوم ، فليس من المحتمل مثلا أن يسمح عالم في وظائف الأعضاء لشعوره الذاتى بما يحدث في ذراعه مثلا عندما يحركها أن يكون مادة تقف جنبا الى جنب مع بحوثه التشريحية والاشعاعية وسوف يتهم هذا العالم بالذاتية وباعتماده على نتائج مسبقة . . وغير ذلك من الانتقادات . ان المعرفة التى تعتمد على الحدس مادة للبحث أو أداة له نمط من المعرفة يختلف عن المعرفة الناتجة عن الملاحظة المباشرة والتجربة الموضوعية ، والعلماء لا يعترفون بغير هذه المعرفة ولا يرضون بغيرها بديلا عنها .

أما (تشومسكى) فيرى أن علم اللغة علم عقلانى في جوهره . . ويرى أن المقارنة بين موقف عالم الطبيعة وعالم العلوم الاجتماعية خارجة عن الموضوع ، علم اللغة فصل من دراسة العقل ، ومن المقرر أن يقال انه فرع من فروع علم النفس الادراكى ، وعلم اللغة بهذا الاعتبار ليس على خطأ حين يعد الحدس جزءا من مادته(٢) .

ولا ينبغى أن نبالغ في تصوير التعارض الملحوظ بين المنهجين أو نستخف بما يمكن أن يكون نقطة اتصال يلتقيان عندها .

ان النظرية التوليدية لا يستبعد أصحابها على الاطلاق البرهان التجريبى من مجالات البحث والعكس هو الصحيح ، لقد أكد (تشومسكى) غير مرة على الحاجة الى الفروض في اللغة ، الفروض التى يمكن اختبارها تجريبيا ،

---

(١) زكريا (د. فؤاد) التفكير العلمى ص ٩٥ .

(٢) Crystal, Linguistics, P. 106

ونقد أولئك الذين يعارضون ذلك ولا أحد من العقلانيين ينكر العلاقة التى بين هذه الطرق وموضوع البحث من حيث اكتشاف نظام من القواعد خاص بالملكة ، ومن حيث اكتشاف أن هذه القواعد كانت تنتج الجمل الموجودة في أية عينة ، بل ربما يقرر ـ هذا الباحث العقلانى ـ في النهاية أن شيئا ما في مكان كان خطأ ، وأن عليه أن يعيد دراسة موقفه ، وهكذا نتبين التلازم الضرورى بين المنهج العقلانى والمادة اللغوية التى يمكن أن تخضع للتجربة .

وفي الجانب الآخر لا أحد ممن يعارض المنهج العقلانى يحصر نفسه في النماذج التى يكتشفها في العينة ، ان هذا العالم ـ كما يقول (كريستال) ليس بالضرورة عالم عينة محددة ، ليس ثمة لغوى يعتقد أن قواعده التى يستخرجها من المادة المجموعة لا تتجاوز هذه المادة . . . ان هذا اللغوى في الحقيقة يقبل تماما الهدف المقرر لعلم اللغة وهو : بناء نظام تجريدى من القواعد لتفسير الظواهر اللغوية(١) .

ومع ذلك فعدد كبير من اللغويين يعتقد بوجود تعارض مبدئى بين وجهة النظر العقلانية في التحليل اللغوى وما يعرف بوجهة النظر التجريبية ، وربما كان من الأسباب الرئيسية للمشكلة ، مشكلة التعارض بين المنهجين ، المعنى الذى تشير اليه كلمة (حدس) . فثمة ادعاء بأن المعنى المقصود للأحداس في النظرية التوليدية لا يتعارض مع المناهج التجريبية ، فما يشار اليه بالحدس ليس الا رد الفعل المباشر الذى يظهره راو لغوى informant ازاء ما يقبله من لغته معنى ومبنى . (أى ما موقفه من صيغة معينة ؟ أيقبلها أم يرفضها ؟ ما موقفه من تركيب معين ؟ أيقبله أم يرفضه ؟ ما الذى يعنيه بكلمة معينة أو بجملة معينة ؟ . . الخ) ، وثمة ادعاء آخر بأن ما يشار اليه بالحدس يتضمن أكثر مما سبق ، وان أحداس المتكلم ذاتها فيما يتصل ببناء لغته هى بحكم حقها الطبيعى جزء من موضوع البحث في التحليل اللغوى ، واذا كان الأمر كذلك فهذا الزعم يختلف ولا شك عن وجهة النظر التجريبية المثالية ،

---

(١) Crystal, Linguistics, P. 106

كما أن الرأى المضاد له (القائل بعدم التعارض بين المنهجين) ربما يكون مضللا .

ربما تكون المشكلة ناتجة عن ممارسات خاطئة وقع فيها بعض اللغويين ، قد ترجع الى : فشل في الاستخدام المنظم للطرق التجريبية في اختبار عمومية أحداس المتكلم صاحب اللغة ، أو الى عرض صورة مختارة للمادة المدروسة حدسيا ، أو الى خلط أحداس اللغوى أو موقفه بأحداس المتكلمين أو مواقفهم ، أو غير ذلك من الأخطاء(١) .

ان المشكلة في الحقيقة ترجع الى الادعاء بأن المعلومات التى يحصل عليها عالم اللغة التوليدى ينبغى أن تحظى بمكانة مساوية للمعلومات المبرهن عليها تجريبيا . ان الادعاء يحمل مضامين مشوشة بخصوص أى تعريف لعلم اللغة بأنه الدراسة العلمية للغة ، فاذا ما رغب شخص في أن يستخدم مصطلح علم اللغة بهذا المفهوم ، وفي الوقت نفسه يؤكد ثقته بالنظرية التوليدية فقد يكون من الضرورى له أن يعيد تعريف كلمة (علم Science) لكى يدعم تركيزه على الحدس الذى يرفضه الموقف الثابت للعلم ، ربما يكون عليه أن يقول : ان علم اللغة ليس (هذا النوع من العلم) الذى يكون فيه البرهان التجريبى هو البرهان الوحيد ، أى أن علم اللغة ليس علما بالمعنى العادى للعلم ، بيد أن محاولة كهذه هى من غير شك محل مناقشة .

وفي هذه المحاولة يقرر (كريستال) أن علم اللغة الجديد عليه أن يحذر من هذه المحاولة لسببين أساسيين :

الأول : أن أى تعريف جديد للعلم ملائم لمجال بحثى محدد سوف يلقى معارضة من فروع العلم الأخرى وبخاصة من فلاسفة العلوم .

الثانى :أن ذلك سوف يجعل من الصعوبة بمكان ـأن لم يكن من المستحيلـ على المعارف اللغوية أن تندمج في اطار الشكل العام للمعرفة العلمية ، ومن حيث المبدأ فالمعرفة في علم من العلوم تتواصل مع المعرفة في علم آخر ، لأن

(١) Crystal, Linguistics, P. 108

أوليات الدراسة نفسها مشتركة ، فاذا ما طور اللغويون أساسا عقلانيا خاصا بهم فسوف يعزلون أنفسهم عن التيار العام للبحث العلمى ، وسوف يكون علم اللغة بذلك علما شاذا ، على الأقل حتى يجىء الوقت الذى تكون فيه العلوم كلها عقلانية(١) .

والآن هل من سبيل لازالة هذا التعارض بين المنهج العقلانى والتجريبى ؟ لقد بذلت في هذه السبيل محاولات قامت على أساس ابتكار وسائل تجريبية معقدة لوصف وتصنيف استجابات الراوى الحدسية للغة ، وقد احتل علم النفس اللغوى الذى يبحث في موضوع (القبول acceptability)مكانا ظاهرا استطاع منه أنيضع جسرا بين المنهجين المتعارضين .

ويشير (كريستال) حين يتكلم عن هذه المحاولات الى أنه ينبغى علينا أن نميز بوضوح بين حدس المتكلم وحدس اللغوى أو الباحث ،
فالحدسان يعملان بطرق مختلفة ـ فالمتكلم يمكن الرجوع اليه فحسب ليزودنا بمعلومات عما يشعر به ازاء الاستعمال اللغوى السليم ، أو المعنى أو الخطأ اللغوى . وليس من المأمون أن يطلب اليه أن يزودنا بآراء فيما يتصل بكيفية تحليل المادة .. أما أحداس اللغوى أو الباحث فهى نتيجة تدريب واحتراف ، وفي هذا المجال لا يفترق (اللغوى عن عالم الطبيعة مثلا ، والفرق بينهما أن اللغوى قد يكون متكلما باللغة المدروسة (native speaker)وهـذا معناه أن لـه حدسين (حدس اللغوى وحدس المتكلم) ، وهنـا مكمن الخطورة المتصلة بالذاتية ، بيد أن لهذه المشكلة حلا ، فاذا ما استطاع اللغوى أن يبعد أحداسه عن أحداس المتكلم فعندئذ يكون من المحتمل جدا الحصول على تفسير معدل تجريبيا لما يقصد باستخدام الحدس .

ان استخدام حدس أىشخص آخر قد قبل في الواقع كوسيلة معيارية في علم اللغة (وبخاصة في الفرع المعروف بعلم اللغة الانثروبولوجى) فعند تحليل لغة أجنبية نختار أحد المتكلمين بها (الراوى) ، وبسؤاله بعض الأسئلة

Crystal, Linguistics, P. 110

نستخرج منه مقولات أو بيانات تتصل بلغته مثل : معانى الكلمات أو الجمل ..الخ . ان اختبار الثنائيات الصغرى الذى تحدثنا عنه منذ قليل يعتمد على أساس حدسى بالغ الأهمية ، لأن الراوى هو الذى يقرر ما اذا كانت الكلمتان تعنيان نفس الشىء أو لا تعنيانه .

وثمة طريق آخر تصبح بمقتضاه طرق الملاحظة والتجربة ممكنة ، فاذا ما صيغت الأسئلة ووجهت توجيها محكما ، ووصفت الاستجابات المجموعة وصفا دقيقا بعد تصنيفها وتحديدها باحكام فعندئذ يتوفر لدينا احتمال قوى راجح في الحصول على تفسير يمكن اثباته موضوعيا لبعض جوانب من أحداس المتكلمين مثلا : ربما نحصل على موقف ما يتصل بمقدرة الشخص اللغوى اذا ما عرضنا عليه عددا من التراكيب وطلبنا اليه أن يخبرنا أى هذه التراكيب مقبولة في لغته . واذا ما استطعنا ابتكار طريقة للسؤال لا تكيف اجابته ، واذا تمكنا من السيطرة على المتغيرات غير اللغوية في الموقف فعندئذ يمكن اعتبار اجابته دليلا مباشرا على حدسه فيما يتصل بهذه التراكيب، ومن المحتمل جدا أن نعيد التجربة فنحاول مرة أخرى مع أفراد آخرين تحت ظروف مختلفة ، ومن ثم نبنى ـ وبالتدريج ـ صورة للملكة الكامنة على ضوء المبادىء التى تقنع العالم السلوكى . ان الدراسات التى جعلت اهتمامها دراسة موضوع (القبول) تتقدم بالفعل(١) .

ونظرا لأهمية موضوع (القبول) نعرض هنا تعريفه الذى قدمه (هارتمان) و (ستورك) : القبول : معلومات لها أهمية متميزة في علم اللغة وبخاصة في النحو التوليدى الذى يقصد بقواعده تمييز الجمل جيدة التركيب من غيرها ـ هذه المعلومات يستند اليها أصحاب اللغة في الحكم على منطوق معين بأنه صحيح أو مناسب . ويصمم اللغويون أحيانا اختبارات مختارة تبين ما اذا كان منطوق معين مقبولا عند الراوى أو غير مقبول عنده . وغالبا ما يميز بين القبول في القواعد : أى اذا ما كان المنطوق مطابقا للعرف التركيبى والقبول في (السيمانتيك) المعنى : أى اذا ما كان لمنطوق معنى في سياق محدد . ويشار

---

(١) Crystal, Linguistics, P. 110

الى الأمثلة المستشهد بأنها غير مقبولة لسبب أو لآخر بالعلامة * ويطلق عليها الأشكال النجمية (١) .

رابعا: الشمول واليقين

الشمـــول :

المعرفة العلمية معرفة شاملة بمعنى أنها تسرى على جميع أمثلة الظاهرة التى يبحثها العلم ، ولا شأن لها بالظواهر في صورها الفردية ، وحتى لو كانت المعرفة تبدأ من التجربة اليومية المألوفة مثل سقوط جسم ثقيل على الأرض فانها لا تكتفى بتقرير هذه الواقعة على النحو الذى نشاهدها عليه ، وانما تعرضها من خلال مفاهيم ذات طابع أعم مثل فكرة الجاذبية والكتلة والسرعة والزمن .. الخ بحيث لا تعود القضية العلمية تتحدث عن سقوط هذا الجسم بالذات أو حتى عن مجموعة الأجسام المماثلة له بل عن سقوط الجسم عموما ، وبذلك تتحول التجربة الفردية الخاصة على يد العلم الى قضية عامة أو قانون شامل . على أن شمولية العلم لا تسرى على الظواهر التى يبحثها فحسب بل على العقول التى تتلقى العلم أيضا ، فالحقيقة تفرض نفسها على الجميع بمجرد ظهورها ولا يعود فيها مجال للخلاف بين فرد وآخر(٢) .

وهذا هو ما يقرره علماء اللغة في مجال البحث اللغوى يقول (كريستال) : اذا ما زودنا الوصف بقواعد تفسر كل المادة المتيسرة فان هذا الوصف من المحتمل أن يكون أفضل من الوصف الذى يفسر لنا ثلاثة أرباع المادة . . أو بعبارة أخرى اذا ما كان الوصف يفسـر كل المادة بطريقة أكثر اقتصـادا ـ الاقتصاد هنا محدد في ضوء عدد الرموز أو القواعد الضرورية للقيـام بالتفسير ـ فان هذا من المحتمل أن يكون أفضل وصف (٣) .

---

(١) Crystal, Linguistics, P. 110

(٢) زكريا (د. فؤاد) التفكير العلمى ص ٤٦ .

(٣) Crystal, Linguistics, P. 118

وقد تحدثنا من قبل عن القاعدة في العلوم اللغوية وأنها قاعدة عامة تنتظم أغلب الأفراد لا كلهم ، وبينا كيف نعالج بقية الأفراد في اطار قاعدة أخرى أو تفسير آخر .

وعالم اللغة لا يتعامل مع الصور الفردية للكلام أو ماأطلق عليه (دى سوسير) مصطلح (الكلام La parol) وانما يتعامل مع الظواهر العامة المشتركة أو اللغة La Langue) وما ذلك الا لأن الصور الفردية أبعد ما تكون عن الوحدة والتجانس فلا تصلح للدراسة ، ولكى ندرس شيئا ما دراسة علمية ينبغى أن يكون لدينا موضوع محدد حتى نستطيع اجراء احصاء بأجزائه واجراء تحليل له ، وصور الكلام الفردية ـ أو النشاط الكلامى الذى يقوم به الأفراد ـ غير محدودة ، ولا يمكن والأمر كذلك وصفها الا اذا كان هذا الوصف أيضا بلا حدود وهذا ما لا سبيل اليه(١) .

اليقين :

واليقين في العلم مرتبط ارتباطا وثيقا بطابع الشمول الذى قلنا ان القضايا العلمية تتسم به ، اذ ان كل عقل لابد أن يكون (على يقين) من تلك الحقيقة التى تفرض نفسها عليه بأدلة وبراهين لا يمكن تفنيدها .. واليقين هنا هو اليقين الموضوعى ، وانما يكون اليقين موضوعيا حين يركز على أدلة منطقية مقنعة لأى عقل ، ولابد للوصول الى هذا اليقين الموضوعى من هدم كل أنواع اليقين الذاتى ، فلابد أن يزعزع العالم ـ كخطوة أولى في بحثه ـ ما رسخ في عقول الناس من أوهام وتحيزات عملت على تثبيتها عوامل غير موضوعية .. واذا كان اليقين العلمى يعتمد على براهين وأدلة منطقية فان هذا لا يعنى على الاطلاق أنه يقين ثابت أو نهائى .. بل ان المقصود من ذلك أن البرهان العلمى يقنع كل من يستطيع فهم هذا البرهان في ضوء حالة العلم في عصر معين ـ أما أن تتحول القضية العلمية الى حقيقة تفرض نفسها على الناس في كل العصور فهى شىء يتنافى مع طبيعة العلم ذاتها(٢) .

---

(١) Dinnæen, An Jntroduction to general Linguistics, P. 198

(٢) زكريا (د. فؤاد) التفكير العلمى ص ٤٧ ، ٤٩ ، ٥٠ .

ولعله من المفيد أن نشير هنا الى بعض العقبات التى تعترض الباحث في اللغة العربية ، والتى تحول دون انطلاقه في البحث .

عقبة كأداء تلك التى وقف عندها البحث في اللغة العربية ، انها التمسك برأى القدماء الذين أجمعوا - كما يقول السيوطى - على أنه لا يحتج بكلام المولدين والمحدثين في اللغة والعربية(١) .

ولو أن أصحاب المعاجم تجاوزوا هذا الرأى ، وتجاوزوا الفترة التى حددها القدماء للاستشهاد ، وجعلوا معاجمهم صورة تمثل اللغة كما انتهت اليهم في عصرهم ، لو أن هذا قد حدث لتغير تاريخ العربية . فالمعجم القديم منذ ظهر كتاب « العين » الى أن ظهرت المعاجم الحديثة ليس الا صورة للبيئة العربية وللانسان العربى في وقت محدد ، وليس صورة لأسلافنا بعد هـذا الوقت ، ولا يمكن الزعم أنه يصور حياتنا المعاصرة .

عقبة أخرى لا تقل عن سابقتها يضعها بعض المشايعين للقدماء أمام الداعين الى الفكر اللغوى الحديث ذلكم هو كتاب سيبويه ، بل قل اذا أردت الحق انها ألفية ابن مالك وشروحها وحواشيها ، فاذا ما رأى باحث رأيا جديدا يختلف عماذكره سيبويه أو أورده ابن مالك وشراحه - عمى هؤلاء المشايعون للقديم عن هذا الرأى وصموا ، كأن سيبويه سلطة لا تناقش وكأن ابن مالك وشراحه حجة لا ترد . لا ينبغى أن يكون رأى القدماء صوابا لأنهم القدماء الذين أوتوا الحكمة وفصل الخطاب ، ولا ينبغى أن يكون رأى المحدثين خطأ لأنهم المحدثون الذين لم يؤتوا الحكمة ولا فصل الخطاب . لننشد الحقيقة أينما وجدت ، وعلى لسان من قيلت ، ففى القديم كثير صالح وكثير فاسد ، وليس كل الجديد فاسدا فكثير منه صالح .

---

(١) السيوطى : الاقتراح ص ٧٠ .

المبحث الثانى

علم اللغة بين النظرية والطراز

اللغة شكل من أشكال النشاط الانسانى ، شكل يتميز بميزتين ظاهرتين ، أنه يحدث في مجتمع ، وأنه يتمثل في نماذج .وعلم اللغة ـ كما قررنا آنفا ـ هو الدراسة العلمية للغة ، أو هو ـ كما يقول (هاليداى) ورفيقاه : دراسة كيف تعمل اللغة ، وهذا معناه : دراسة النماذج ودراسة المفردات أو الوحدات التى تدخل فيها ، كيف يستخدمون هذه المفردات أو الوحدات ، كيف يستمرون في استخدامها أو كيف يكفون عن استخدامها ويستبدلون بها غيرها في أوقات مختلفة أو في أ ماكن مختلفة وبين جماعات مختلفة من النـاس . كل هـذه الموضوعات يمكن اعتبارها المجال الخاص لعلم اللغة .

ودراسة اللغة أو دراسة الموضوعات السابقة دراسة علمية تعنى في النهاية: انشاء نظرية متناسقة ، نظرية تبين لنا كيف تعمل اللغة ، نظرية نستخرج منها مناهج دقيقة محددة لوصف اللغات .

ان النظرية ليست ـ كما يقول (هاليداى) : روحا سابحة في الهواء ، ان النظرية لها عناصرها التى تتمثل في ملاحظات لا حصر لها تتصل بالأحداث اللغوية . ولأن النظرية تنبنى علاقاتها على أساس الملاحظات ، الملاحظات التى يشار اليها على أنها تجريدات (ينبغى أن تفهم على أنها علاقة لا عملية) فانها ـ أى النظرية ـ يمكن أن تأخذ أشكالا مختلفة ، بعبارة أخرى : النظرية ثمرة بيانات مضبوطة في داخل اطار العملية(١) .

الهدف اذا هو بناء نظريات لا جمع وقائع عن اللغة ، بيد أن كثيرا من الناس قد يسيئون فهم المقصود من النظرية ، النظرية عند هؤلاء تشير الى

(١) Halliday et al., Linguistic sciences anp Language teaching P.P. 56

مستوى من التعقيد والتفكير المجرد ، مستوى من الانفصال عن الواقع .. وهذا مفهوم خاطىء ، لأن النظرية ـ اذا كانت جيدة لا تنفصل عن الواقع أبدا ، بل العكس هو الصحيح . الغرض الأعظم من بناء النظرية هو تفسير الواقع أو المادة ، والواقع الذى نريد فهمه وتفسيره هنا هو اللغة ، اننا نريد أن نكتشف كيف تعمل اللغة ، والنظرية وحدها هى التى تقدر على أن تفعل ذلك(١) .

ويشير (هاليداى) الى تأثير البحوث التطبيقية في انتشار علم اللغة مقررا أن الدراسة اللغوية النظرية الخالصة لم يقدر لها الانتشار الا بعد أن اتضح للباحثين كيفية الاستفادة منها ، ومن هنا فحسب حظيت بالاحترام وتوفر المال اللازم لتعليمها ودراستها(٢)

وسوف نتكلم عن هذا الموضوع بالتفصيل عند الحديث عن علم اللغة التطبيقى .

ولعله من المفيد أن نقدم هنا تعريفا للنظرية مع أن هذا العمل معقدا جدا ومحاط بالمخاطر ، النظرية : تفسير لظاهرة أو مادة يعرض علينا جانبا من الواقع نرغب في فهمه ، ونبنى منه نظاما محددا أو ما يشبه ذلك . وفي مجال علم اللغة المادة المباشرة المراد تفسيرها هى الجمل المنطوقة والمكتوبة التى يستخدمها فرد من أفراد المجتمع اللغوى المدروس ، واذا ما أردنا أن نوسع هذا المفهوم ليشمل رأى أصحاب المنهج التوليدى فسنقول : المادة المباشرة هى قائمة من الأحداس اللغوية تؤلفها ملكة هذا الشخص اللغوية .. ان النظرية ـ ببساطة ـ ليست تلخيصا للمادة ولا هى تفسير لمادة مختارة خاصة فحسب ان النظرية التى توضع لتفسر أنماطا موجودة في جزء خاص من المادة ربما تكون نظرية بمعنى ضيق جدا .. الهدف الكلى للنظرية أن تكون تفسيرا عاما : التفسير الذى تفترضه النظرية سوف يعالج كل المادة التى درست أولا ، ولنه سيعالج كذلك مادة أخرى بجانبها .. ان الحديث عن نظرية يعنى ـ وهذا أمر مألوف ـ تجاوز المادة التى وضعت في الاعتبار أصلا . ولنقل ذلك بعبارة أخرى : النظرية

---

(١) Crystal, Linguistics, P. 112

(٢) Linguistic Scienes and Language teaching, P. 6

تقدم ادعاءات حول النمط أو النظام الذى يكمن في المادة ، وتتنبأ بان هـذا النظام سوف يفسر جيدا وعلى سواء عينات مستقلة من المادة وما يمكن اثباته من هذه التنبؤات هو المعيار الدقيق لصلاحية النظرية(١) .

والآن بعد أن عرفنا النظرية وحددنا الهدف منها نسأل كيف يقوم اللغوى بتفسير المادة التى يدرسها ؟

يفسر اللغوى مادته بتقرير علاقات بين المتغيرات في هذه المادة من خلال الاستخدام المنظم للفروض ، فاذا ما اتبعنا معيارى الوضوح والنظامية اللذين تحدثنا عنهما من قبل فسوف ننتهى بعدئذ الى هيكل عام يمثل نظرة منظمة للمـــادة .

لقد رأينـا من قبل أن التنوع غير المحدد في مادة اللغة يمكن أن يفسر بالرجوع الى قائمة محدودة من القواعد البنائية (فالفاعل مرفوع قاعدة تفسر كل فاعل في اللغة العربية الفصحى المستعملة بالفعل) وبالرجوع الى عدد محدود من الأقسام (فالمصطلح فعل مثلا يشير الى قسم معين من أقســـام الكلام ، قسم يضم عددا يصعب حصره من المفردات) . واذا ما أردنا أن نضع الفكرة السابقة بطريقة تلائم النظرية التوليدية قلنا : نحن نحدد قائمة مرتبة من القواعد سوف تعد تحليلا لكل الجمل الصحيحة الممكنة في اللغة ، وتصف بوضوح بناءها المنتظم معنى ومبنى(٢) .

وثمة توضيح ضرورى عند الحديث عن النظرية ، هو أن النظرية قد تكون عامة هدفها ـ كما قلنا سابقا ـ بناء قائمة من القواعد والأنماط تفسر الخصائص البارزة في اللغة ككل ، وقد تكون خاصة هدفها بناء قائمة أضيق من القائمة السابقة . قد نرغب مثلا في وضع نظرية تفسر لغة معينة أو جانبا معينا منها . وهنا علينا أن نقيد مفهوم النظرية بهذا القيد فنقول مثلا : نظرية في اللغـة العربية ، أو نظرية الحرف في اللغة العربية . وقد تتوجه جهودنا الى تفسير

---

(١) Crystal, Linguistics, P.P. 112, 113

(٢) Crystal, Lingistics, 117

أساس عملية انتقال الكلام عبر الموجات الصوتية فنقول : (نظرية سمعية) أو نظرية صرفية أو نظرية نحوية .. الخ .

ومع هذا كله ينبغى أن نلاحظ أن أية تفريعات من هذا النوع تفترض سلفا وجود نظرية لغوية أكثر عمومية تزودنا ـ في المقام الأول ـ بأساس للقيام بهذه التفريعات ، على أى أساس نعتمد في التمييز بين النحو والصرف أو بين الظاهرة الصوتية والفونولوجية ؟ ثمة أساس لذلك بلا شك . ومهمة النظرية الأولى هى تقديم مبررات لكى يكون هذا التفريع واضحا . وفي النهاية فالأمل كبير في أن التحليلات المتنوعة لجوانب مختلفة من اللغة يمكن أن تتكامل وتندمج في هيكل لغوى واحد(١) .

غير أن بعض اللغويين يرى أن الوصول الى بناء نظرية عامة لتفسير كل جوانب اللغة ربما كان عملا غير واقعى ، بل انهم يعدون الفكرة العامة للنظرية فكرة غامضة جدا ومجردة جدا ، ولا يمكن تطبيقها مباشرة على المادة ، ولهذا يفضلون العمل بشىء أكثر واقعيـة ووضوحا وهو الطراز (Model) وفي هـذا يقول (كريستال) : الطراز هو طريقة أخرى للاجابة عن السؤال الذى طرحناه آنفا وهو : كيف تفسر النظرية المادة ؟ ربما يكون ذلك بتقديم طرز مفسرة . وهذا المصطلح له معان كثيرة في علم اللغة وفي غيره ، ولكن معناه المركزى واضح . الطراز هو : قياس مفصل ذو نظام يبنى لكى يساعد في تصور جانب محدد من بنية اللغة أو وظيفتها ، جانب غير قابل للملاحظة مباشرة ، وربما تكون أهميته ـ من ناحية أخرى ـ غير مدركة . بعبارة أخرى : انه وسيط بين المفهوم العام « للنظرية » والمفهوم الخاص جدا « للفرض » .

وعلم اللغة يستخدم طرزا كثيرة بهذه الطريقة : الطرز الرياضية التى تستخدم المفاهيم الاحصائية أو الجبرية والمعادلات ، والطرز الفيزيائية التى تجعلنا قادرين على انتاج مقياس ثابت وفعال Working analoge لتفسير الظواهر (كما هو الحال غالبا في علم الأصوات) .

---

(١) Crystal, Linguistica, P. 117

وقيمة الطراز تكمن في وضوح وتركيز العلاقات التى يفترضها ، فعلى ضوء طراز خاص نحصل على نظرة ما في اللغة لم نحصل عليها من قبل ، فاذا ما كف الطراز عن توفير نظرات جديدة ، أو فشل في تقديم نظرة أية نظرة فعلينا أن ننبذه ونبحث عن طراز جديد . ومن هنا نرى أن الطرز أمور وقتية - انه يقال أحيانا ان العلم يتقدم من خلال البحث عن طرز جديدة تقترح نظرات جديدة .

والطرز أعمال انتقائية ، جوانب معينة يلقى الضوء عليها ، وأخرى تهمل تماما ، واختيارنا طرازا محددا يوجه بحثنا ينبغى أن يكون دقيقا ، وينبغى أن نستخدمه بروح ناقدة ، فاذا ما اخترنا طرازا يبدو أنه يفسر خصائص لغوية معينة ينبغى أن نتذكر أنه ربما يعمينا عن وجود خصائص أخرى ، وينبغى أن نكون منتبهين الى أننا لا نزعم أن كل جوانب الطراز مناسبة على سواء لدراسة اللغة(١) .

وربما يكون القياس خادعا من بعض الوجوه ، وعلينا لهذا السبب أن نراجعه باستمرار ولنأخذ مثالا حديثا لذلك ، انه الرأى الذى يقترحأن ننظر الى اللغة على ضوء طراز يميز بين مستويات أو طبقات متنوعة من البناء (أى بين علم الأصوات ، والفونولوجى ، والصرف ، والنحو.. الخ) . ولكن هذا الرأى خادع اذا ما استخدمنا الطراز حرفيا ، وزعمنا أن هذه المستويات تعمل مستقلة بعضها عن بعض ، والحق أنها لا تعمل كذلك . ان المعلومات النحوية تتداخل في تعريف الأبنية الصرفية ، والمعلومات الفونولوجية توجه تحليلنا للمادة الصوتية .. وهكذا .

ومن أمثلة التداخل بين المعارف اللغوية التى تقدمها هذه المستويات أنه يشترط في الكلمات التى تشغل موقعا نحويا معينا أن تكون من صيغة صرفية خاصة ، فالحال في العربية يكون وصفا والمفعول المطلق والمفعول لأجله يكونان مصدرين .. وهكذا .

---

(١) Crystal, Linguistics, P. 115

وفي مجال تقييم الطراز يقول (كريستال) : من السهل أن نرى لماذا يفضل الناس الحديث عن الطرز لا عن النظريات ، فالطريقة التى بها يوجه الانتباه الى جانب خاص من اللغة ، ويفترض في قياسه تفسيرا متماسكا مختبرا ، هذه الطريقة تجعله بوضوح مفهوما جذابا جدا ، بيد أن مفهوم الطراز لا يجعل الحديث عن مفهوم النظرية فضولا . ان قيمة الطراز تكمن في الغالب في مقدرته الخاصة على تفسير جانب خاص من اللغة ، أو بعبارة أخرى : انه يفتقر الى الشمول والعمومية التى تدعى النظرية أنها تقدمها الينا (١) .

ومن الطرز التى استخدمها اللغويون في وصف أو تفسير الظواهر اللغوية أو في المجال التطبيقى (تعليم لغة أجنبية أو قومية) .

ـ ما يعرف في علم اللغة التاريخى بشجرة العائلة family tree وهو طراز يفسر ما بين اللغات من علاقات تظهر في شكل انتساب فرع الى أصل كالانتساب الفرنسية مثلا الى اللاتينية .

ـ مفهوم التنوع اللغوى الذى يتمثل في مستويات لهجية أو أسلوبية (٢)

دراسة اللغة في مستويات محدودة وفقا لوحدات لغوية محددة (٣) .

ـ استخدام الاحصاء أو الصيغ الرياضية في وضع قوائم بأكثر الكلمات انتشارا أو أكثر الأبنية والتراكيب استعمالا ـ وما ينبنى على ذلك من نتائج في تعليم اللغات الأجنبية أو القومية . ونظرا لأهمية هذا الطراز في الأعمال اللغوية المعاصرة نعرف هنا ببعض مجالات استخدامه .

---

(١) Crystal, Linguistics, P. 115

(٢) يعد كتاب الدكتور السعيد بدوى (مستويات العربية المعاصرة في مصر) نموذجا لهذا الطراز .

(٣) يعد كتاب الدكتور تمام حسان (اللغة العربية معناها ومبناها) نموذجا لهذا الطراز .

عمل المعـاجم التكرارية :

ان اتقان لغة أجنبية يتضمن عددا من القدرات أو المهارات ، انه يعنى مثلا التمكن من قواعدها والالمام بمفرداتها ، ولا شك أن المفردات تشكل أهمية كبيرة في تعلم أية لغة أجنبية ، ولهذا توجهت عناية اللغويين الى وضع المعاجم الثنائية التى تقدم للمتعلم الأجنبى مفردات اللغة التى يريد أن يتعلمها ، وبانتشار معاهد تعليم اللغات وبتطور طرق تعليمها ظهر أن المعجم الذى يناسب صاحب اللغة ـ وفي الغالب يكون معجما ضخما ـ لا يناسب الأجنبى الذى يتعلم هذه اللغة ، وأن المهمة الأساسية في تدريس أية لغة أجنبية هى تعليم الدارس أهم مفردات اللغة التى يتعلمها أى أقل عدد من الكلمات يحقق هذا الغرض ، وقد تبين فيما بعد أن أهم مفردات اللغة هو أكثرها استعمالا .

ولكن ما المعيار الموضوعى لقياس عدد الكلمات الضرورية التى ينبغى أن يتضمنها المعجم ؟ وما هى الكلمات التى يمكن أن يقال انها أكثر الكلمات تكرارا ، ومن ثم ينبغى أن يتضمنها أقل المعاجم عددا ونستبعد ما عداها .

قبل أى شيء ينبغى أن نبين المقصود من (أكثر الكلمات تكرارا) نقصد بذلك أن كلمة بعينها تتكرر كثيرا في الكلام وفي الكتابة ، وكلما كثر استخدامها زاد معدلها التكرارى .

وبدهى أن الأمر يتوقف كثيرا على طبيعة النص الذى يتناوله الاحصاء ، فالمتوقع مثلا ـ لو تناول الاحصاء كتابا في (سلوك الحيوان) أن تتكرر فيه الألفاظ التى تشير الى الحيوانات ، وهى ألفاظ يندر استخدامها مثلا في كتاب في (التاريخ) كما أن لكل كاتب معجمه الخاص الذى يعد سمة مميزة له فقد تتكرر عنده كلمات ربما لا يستخدمها كاتب آخر ولهذا وجد أن أفضل طريقة لاختيار العينات التى يجرى عليها الاحصاء أن تكون متنوعة(١) .

وقد تم عمل عدد كبير من المعاجم التكرارية في عدد من اللغات ، ومن أضخمها (معجم اللغة الانجليزية) الذى وضعه (ثورنديك) ويعطينا بيانات

---

(١) ا كندراتوف : الأصوات والاشارات ٨٣ ، ٨٤ .

من استعمالات ٣٠ر٠٠٠ كلمة مختلفة تتكرر أربع مرات أو أكثر في سياق نصوص مختلفة جملة كلماتها ١٨ر٠٠٠ر٠٠٠ كلمة .

وتأخذ القواميس التكرارية عادة شكل قوائم للكلمات مرتبة ترتيبا تنازليا حسب المعدل التكرارى للكلمة ، فأول الكلمات هى أكثرها تكرارا ..وهكذا حتى نصل الى آخر الكلمات وهى أقلها تكرارا .

ولكن ما عدد الكلمات التى نحتاج اليها في أصغر معجم للمفردات ؟

قلنا ان معجم (ثورنديك) يضم ٣٠ر٠٠٠ كلمة من أكثر الكلمات انتشارا في الانجليزية ، فهل من الضرورى أن يكون هذا المعجم هو أصغر المعاجم التى تقدم مفردات الانجليزية للأجانب ؟

ليس ذلك ضروريا ، فبهذا العدد لن نصل الى المعجم المثالى الذى ينبغى أن يضم أقل عدد ممكن من المفردات ، لقد تبين للباحثين أن عددا كبيرا جدا من المفردات النادرة الاستعمال لا يشكل الا جانبا ضئيلا من أى نص فالغالب في أى نص أن يتألف أساسا من عدد صغير من الكلمات ذات المعدل التكرارى العالى ، لقد تبين مثلا أن ٧٣٦ كلمة انجليزية من الكلمات ذات المعدل التكرارى العالى تؤلف ٧٥٪ من أى نص ، ومعنى ذلك أن ثلاثة أرباع كلمات النص ستكون كلمات مألوفة لنا اذا ما بدأنا بهذا العدد ، وكذلك فان ١٠٠٠ كلمة من أكثر الكلمات شيوعا تغطى ٥ر٨٠٪ من أى نص مكتوب بالانجليزية ، وان ٢٠٠٠ كلمة تغطى ٨٦٪ و ٣٠٠٠ كلمة تغطى ما يقرب من ٩٠٪ و ٥٠٠٠ كلمة تغطى ٥ر٩٣٪ ، ويدل هذا على أننا اذا عرفنا ٥٠٠٠ كلمة من أكثر الكلمات شيوعا فاننا سنعرف ٢٨١ كلمة من كلمات النص وسنفشل في معرفة ١٩ كلمة فقط . وعلى هذا فان الأجنبى الذى يدرس الانجليزية سيكون قادرا على قراءة أى نص انجليزى بطلاقة لا بأس بها اذا عرف هذا القدر . .وقد تبين كذلك أنه ليس من الحكمة أن نوسع من قائمة المفردات لتغطى النسبة الباقية ٥ر٦٪ ، لأننا لو ضاعفنا قائمة المفردات وتعلمنا ١٠ر٠٠٠ كلمة فاننا سوف سنعرف فحسب ٩٦ ٪ من كلمات النص ، واذا ضاعفنا عدد المفردات مرة أخرى فلن يزيد علمنا الا بنسبة ٩ر٢ ٪ فقط ، وهى نسبة لا تبرر الجهد المتوقع بذله لتعلم هذا العدد الضخم

من المفردات(١) ولكن ما الفائدة التى يمكن أن تتحقق من هذه الاحصاءات ؟

ينبغى على خبراء التعليم وواضعى المناهج أن يضعوا الحقائق السابقة في الاعتبار ويحددوا أكثر الكلمات شيوعا والتى ينبغى أن يتضمنها أى كتاب مدرسى في مراحل التعليم المختلفة ، وأن يحددوا على ضوئها أكثر النصوص ملاءمة للمرحلة الأولية للقراءة أو للمراحل الأخرى .

الأبنية والتراكيب الشائعة

لم يقف دور الاحصاء على مفردات اللغات الأكثر تكرارا بل تجاوزه الى أبنية اللغة وتراكيبها وأنماط جملها ، ومن أحدث الدراسات التى تمت في هذا المجال في اطار اللغة العربية الدراسة التى قدمها الدكتور محمد على الخولى بعنوان (التراكيب الشائعة في اللغة العربية) وقد اعتمد في هذه الدراسة على مادة لغوية حددها بالصفات الآتية : مكتوبة ، حديثة ، نثرية ، فصحى ، أصيلة (لا مترجمة) . ومن البدهى أن نتائج الدراسة سوف تختلف حين تختلف المادة اللغوية فتصبح منطوقة أو قديمة أو شعرية أو عامية أو مترجمة . وتبلغ العينات التى تناولها الاحصاء ٨٨ عينة ، كل عينة منها من خمسين كلمة ، وهذا يعنى أن العينات تتألف من ٤٤٠٠ كلمة ، وتبدأ العينة من بداية الفقرة وتنتهى بالكلمة الخمسين . وتتنوع العينات من حيث المضمون تنوعا مناسبا فقد أختيرت من مجالات الأدب والاجتماع والدين والفيزياء ..الخ(٢) .

أما الطريقة التى تم بها عرض البيانات الاحصائية فتحتاج منا الى صفحات لعرضها وهذا لا يتسع له المقام .

ومن أهداف هذه الدراسة : معرفة الوظائف النحوية والصيغ الصرفية وأنماط الجمل الشائعة والنادرة ومن الممكن استخدام هذه المعارف الناتجة عن البيانات الاحصائية في المقارنة بين اللغة المكتوبة والمسموعة ومقارنة

---

(١) ا. كندراتوف : الأصوات والاشارات ص ٨٥ ، ٨٦ .

(٢) الخولى (د. محمد على) التراكيب الشائعة في اللغة العربية ص ٢٦ ـ ٣١ .

الفصحى بالعامية ، ولغة النثر بلغة الشعر واللغة الحديثة بالقديمة وهى مقارنات تثرى علم اللغة .

ولهذه النتائج فائدة كبيرة في تخطيط وتدريج قواعد اللغة العربية لطلاب المدارس ، اذ تقدم المتغيرات الشائعة في المراحل الأولى وتؤجل المتغيرات النادرة الى المراحل العليا أو الى مراحل التخصص في اللغة العربية . وتفيد كذلك في تخطيط وتدريج المواد القرائية في المراحل الدراسية المختلفة(١) .

وهذه بعض البيانات الاحصائية الخاصة بالأسماء المرفوعة والمنصوبة والمجرورة :

الأسماء المرفوعة : ويقصد بها الأسماء المرفوعة أو التى في محل رفع ، تكرارها الكلى في جميع العينات ٤٧٠ (سبق القول بأن عدد العينات ٨٨ عينة وتتألف من ٤٤٠٠ كلمة) بمتوسط ٣٤ر٥ ٪ في العينة الواحدة ونسبتها الى جميع المفردات ٦٨ر١٠ والى الأسماء ٣٤ر١٨ .. الخ .

الأسماء المنصوبة : ويقصد بها الأسماء المنصوبة أو التى في محل نصب ، تكرارها الكلى ٤٩٨ بمتوسط ٦٦ر٥ في العينة الواحدة ، وكانت نسبتها الى جميع المفردات ٣٢ر١١٪ والى الأسماء ٦٣ر١٩٪ ..الخ .

الأسماء المجرورة : ويقصد بها الأسماء المجرورة والتى في محل جر ، تكرارها الكلى في جميع العينات ١٥٦٩ بمتوسط ٨٣ر١٧ في العينة الواحدة ، نسبتها الى جميع المفردات ٦٦ر٣٥ والى الأسماء ٨٤ر٦١ .. الخ .

ومما سبق نتبين أن المجرورات أكثر شيوعا من المنصوبات والمرفوعات ، وتكاد المنصوبات والمرفوعات تتساويان من حيث الشيوع . وتشكل المجرورات ثلاثة أخماس الأسماء تقريبا وتشكل المرفوعات خمسها والمنصوبات خمسها

---

(١) الخولى (د. محمد على) التراكيب الشـــائعة في اللغـة العربية ص ٣٧ .

تقريبا ، تشكل المجرورات ثلث جميع المفردات التى نستخدمها تقريبا ، وتشكل المرفوعات عشرها تقريبا وكذلك المنصوبات ٠٠٠٠ الخ .

ويفسر شيوع المجرورات : أنها تشمل الاسم المجرور بالحرف أو الاضافة أو التبعية ، ويفسر شيوع حروف الجر أنها تمثل دورا كبيرا في تكوين العلاقة بين الفعل ومشتقاته والاسم٠٠٠(١) .

ألا يمكن بعد ذكر هذه البيانات أن يوصى المعلمون بالاهتمام بالمجرورات التى تمثل نسبة كبيرة من المفردات التى نستخدمها في الكتابة ! ؟

---

(١) الخولى (د. محمد على) التراكيب الشـــائعة في اللغة العربيـــة ص ٨٤ ـ ٨٩ .

الباب الثاني

علم اللغة بين العلوم والدراسات التطبيقية

اللغة نشاط اجتماعى

اللغة نشاط أو سلوك اجتماعى تقوم به جماعة من الناس بهدف الاتصال والتعاون ، وهى بهذا المعنى تتدخل في أشكال النشاط الاجتماعى السائدة في المجتمع ، وكل فرد من أفراد المجتمع يباشر نشاطا من هذه الأنشطة يستخدم اللغة بشكل أو بآخر في تحقيق نشاطه .

فالطبيب الذى يستفسر من مريضه عن أعراض مرضه أو يستشير زميله في أمر من الأمور ، والمحامى الذى يعد مذكراته أو يلقى دفاعه ، والتاجر الذى يعقد صفقة والمشترى الذى يساومه ، والضابط الذى يوجه جنوده لاحتلال موقع ، والمدير الذى يلقى تعليماته الى المرءوسين لانجاز أعمالهم ، والصحفى الذى يكتب مقالا ، والشاعر الذى ينشىء قصيدة ، والخطيب الذى يلقى خطبة ، والعالم الذى يؤلف كتابا ، والفنان الذى يمثل شخصية على خشبة المسرح ، كل هؤلاء وغيرهم كثير ، يستخدمون اللغة في تحقيق أغراضهم .

ونحن جميعا نستخدم اللغة في كثير من مواقف الحياة بعيدا عن العمل الذى نعمله أو الهواية التى نمارسها ، نستخدمها حين نشكر شخصا على عمل أو نعتذر عن عمل ، حين نستقبل شخصا أو نودعه ، حين نجلس لنتناول الطعام أو لمناقشة موضوع .. أو غير هذا أو ذاك من المواقف التى تستدعى الكلام ، بل كثيرا ما نتجاذب أطراف الأحاديث من أجل المتعة التى نجدها فيها فحسب .

اللغة في هذه المواقف وأمثالها ، وعلى ألسنة هؤلاء الناس وأمثالهم مصاحب لهذه المواقف والأعمال وأداة للاتصال وتحقيق التفاهم والوصول الى الأغراض .

ومن الواضح أن الأشكال اللغوية المصاحبة للأنشطة السابقة وغيرها

وللمواقف المشار اليها وغيرها مادة صالحة للدراسة اللغوية بالمعنى الدقيق ـ لقد قلنا سابقا ان اللغة هى موضوع الدراسة في علم اللغة ـ ويكاد يتفق اللغويون على أنها اذا درست في ذاتها ، ولأجل ذاتها دخلت في المجال الذى يعمل فيه علم اللغة بالمعنى الدقيق .

ولكن قد يدرس بعض العلماء اللغة أو جانبا منها ، لأن اللغة أو هـذا الجانب يدخلان في اطار العلم الذى يدرسونه ، فعالم النفس قد يدرس اللغة ، لأن لها علاقة بالتفكير أو بغيره من موضوعات علم النفس ، وعالم الاجتماع قد يدرس اللغة ، لأنها شكل من أشكال السلوك ، وهى بهذا الاعتبار داخلة في اطار علم الاجتماع ، والأنثربولوجى قد يدرس اللغة لأن لها علاقة بثقافة المجتمع ، وهى لهذه العلاقة داخلة في اطار علم الأنثروبولوجيا ، وعالم الطبيعة قد يدرس الجانب الفيزيائى من الكلام الانسانى ، وهـذا داخل في اطار علم الطبيعة .. وهكذا الحال فيما يتصل بعالم وظائف الأعضاء أو بالمنطقى أو الناقد الأدبى أو بغيرهم ممن له اتصال باللغة .

وقد تدرس اللغة لغرض عملى لا نظرى ، كأن يدرسها مثلا بعض الباحثين من اللغويين أو غيرهم لعمل المعاجم أو لمعالجة أمراض الكلام أو لتعليم اللغة للأجانب .. أو لغير هذا وذاك من الأغراض العملية ، هذه الدراسات داخلة في اطار ما يسمى علم اللغة التطبيقى .

وهكذا يتبين لنا أن علم اللغة ليس وحده الذى يدرس اللغة ، بل يشركه في دراستها علوم أخرى ، وليس لدينا من سبيل على هذه العلوم فنعين لها ما تدرسه وما لا تدرسه ، والذى في مقدورنا هو أن نقرر أين نضع حدود علم اللغة التى تبين موضوعه بدقة بحيث تفصله عن حدود العلوم الأخرى ، غير أن وضع حد بين علم وآخر ليس عملا يسيرا (وبخاصة في العصر الحديث الذى تراكمت فيه المعارف العلمية تراكما يؤذن بانفجار معرفي ـ كما يقول المؤرخون) ، وربما يكون ذلك راجعا الى أن موضوع الدراسة هى أقرب ما تكون الى المنطقة التى بين لونين من ألوان الطيف .

وسبيلنا الى حل هذه المشكلة ـ كما يقول الدكتور السعيد بدوى ـ : أحد أمرين : اما أن نعين الخط الفاصل بطريقة اعتباطية كما هو الحال في

الحدود السياسية بين الدول ، واما أن نخصص نوعا من ميادين الدراسة يأخذ من كلا الجانبين بنصيب ويغطى منطقة الحدود بينهما ، وفي هذه الحالة تكشف أسماء هذه العلوم عن طبيعتها مثل : الكيمياء العضوية ، والجغرافيا الاقتصادية .. الخ(١) .

وفي مجال علم اللغة حدث شيء كهذا ، وفيه يقول (كريستال) : ان الطريقة التى تتداخل بها موضوعات علم اللغة بالدراسات الأكاديمية الأخرى أصبحت تلقى تقديرا بين الباحثين في السنوات القليلة الماضية ، وفي العقد الماضى رأينا تطورا لدراسات مميزة مثل علم اللغة الاجتماعى Sociolinguistics وعلم اللغة النفسى Psycholinguistics وعلم اللغة الفلسفى philosophical Linguistics وعلم اللغة الرياضى Mathematical Linguistics وهذه الدراسات ـ كما يبدو من عناوينها ـ تشير الى جوانب أو ملامح لغوية لها اتصال وثيق بالعلوم الأخرى ، كما أنها صالحة للدراسة من منطلقين : علم الاجتماع وعلم اللغة ، علم النفس وعلم اللغة .. الخ وتتطلب كذلك ادراكا وتطورا لمفاهيم وتكنيكات مستنبطة منهما معا(٢) .

وبعد فان الغرض من هذا الجزء من البحث أن ندرس علاقة علم اللغة بالعلوم الأخرى لنستبين بوضوح الحدود التى ينبغى له أن يعمل في اطارها أو بعبارة أخرى لنحدد ما هو من علم اللغة وما ليس منه ، ونستبين الحدود المشتركة بينها وبينه والفائدة التى تحققت أو يمكن أن تتحقق لعلم اللغة ولهذه العلوم من عملها في ميدان البحث اللغوى . لدينا اذا :

أولا : علم اللغة أو علم اللغة النظرى أو العام ، وهو يدرس اللغة في ذاتها ، ولذاتها وقد عرفنا به في الفصل السابق ، وسنتكلم عن فروعه ومستويات البحث فيه في البابين القادمين .

ثانيا : دراسات تبحث في اللغة أو في جانب منها لا لذاتها ، وانما لغرض

---

(١) محاضرات في علم اللغة ص ١٥ (مخطوط) .

(٢) Crystal, Linguistics, P. P. 251 252

يتصل بعلوم أخرى غير لغوية ، مثل علم اللغـــة النفسى أو علم اللغـــة الاجتماعى ٠٠ الخ وهى دراسات صالحة للبحث من منطلقين : علم النفس وعلم اللغة ، وعلم الاجتماع وعلم اللغة ٠٠ الخ .

ثالثا : علم اللغة التطبيقى : وهو يبحث في الاستخدامات المتنوعة للعلوم اللغوية المرتبطة بالمجالات العملية .

وسوف نبدأ هنا بالحديث عن علاقات علم اللغة بالعلوم وبالدراسات الأكاديمية التى تبحث في اللغة أو في جانب من جوانبها ، ثم نتكلم عن علم اللغة التطبيقى بمجالاته المختلفة .

المبحث الأول

علم اللغة والعلوم

أولا : علم النفس

ان علاقة علم اللغة بعلم النفس كانت مصدرا لجدل عنيف ثار مؤخرا ، ويرجع هذا أصلا الى عناية (تشومسكى) الخاصة بهذه القضية ، ونظريته في علم اللغة تنتهى الى أن أعظم عمل يمكن الاسهام به في علم اللغة هو أن ندرس العقل الانسانى ، وأن علم اللغة سيكون أكثر دقة ووضوحا اذا ما عد فرعا من علم النفس الادراكى (١) .

ومع أن معظم اللغويين اليوم لا يشاركونه هذا الرأى فلا أحد منهم ينكر الروابط المشتركة القوية بين علم النفس وعلم اللغة .

ومن الأمثلة التى توضح أمر هذه العلاقة :

١ ـ اكتساب اللغة

موضوع اكتساب اللغة من أكثر مجالات الدراسة المشتركة بين علم اللغة وعلم النفس أهمية وبخاصة في هذه الأيام والى عهد قريب جدا ـ كما يقول (كريستال) ـ لم يكن شىء يعرف عن الحقائق الفعلية لاكتساب اللغة عند الأطفال وبخاصة ما يتصل بالنظام المكتسب الذى يتمثل في الأبنية النحوية ، ولم يكن لدى أحد اجابة عن أسئلة أولية مثل : متى وكيف يطور الطفل مقدرته على صوغ الأسئلة صياغة مقبولة ؟ ومتى يتعلم الأنظمة الصرفية للغته ؟ ان جهودا كبيرة قد بذلت حديثا من أجل دراسة هذه المشكلات وصفيا ومنهجيا ،

---

(١) Crystal, Linguistics, P.P. 254, 255

ومن أجل الحصول على معلومات بهذا الشأن وتحليلها(١) .

وقد كان المعتقد قبل ظهور النظرية التوليدية أن الشرط الأساسى لاكتساب اللغة هو التعاون بين الطفل والراشد ، فاللغة هى الأداة المثلى التى تم بواسطتها التماس والاحتكاك بينهما ، الا أنها لا تكتسب بصورة تلقائية .. فلابد من التدرب على النطق والتعلم لفترة طويلة حتى يستخدم لغته بطريقة مرضية(٢) .

كان اهتمام أصحاب النظرية التوليدية موجها الى القضية الآتية : كيف نفسر ظاهرة التطور اللغوى عند الأطفال ؟ ان الأطفال العاديين يتمكنون من لغتهم في سن الخامسة تقريبا ، وقد كان من المستحيل ـ كما يقول التوليديون ـ أن يفسر هذا التطور اللغوى تفسيرا مقنعا على ضوء التقليد أو التعزيز الذى يقول بهما « السلوكيون» ، وهم يؤكدون أيضا أن سرعة التطور اللغوى لدى الطفل وتعقده لا يمكن أبدا تفسيرهما على ضوء أنه يقلد الكبار المحيطين به . ان التقليد عامل هام في تطور لغة الطفل ، ولكنه ليس العامل الرئيسى ، ومن ثم لا يصلح ليكون أساسا لنظرية في اكتساب اللغة ، وذلك يرجع الى أن قدرا كبيرا من المضامين الأساسية في اللغة لا تخضع للملاحظة المباشرة ، ومن ثم لا يمكن تقليدها ـ كالعلاقات الدلالية المتنوعة بين الجمل أو بين أجزاء الجمل ، ولنأخذ مثلا أكثر عموما ، معرفة الطفل المجردة بالقواعد النحوية للغته (هذه القواعد التى لدى أى راشد) والتى تعد جزءا من ملكته اللغوية . ان كل طفل عادى يطور مثل هذه القواعد لنفسه . ويحاول أصحاب المنهج التوليدى أن يثبتوا أن هذه العملية (عملية تطور لغة الطفل على النحو السابق) يمكن فحسب أن نتبينها بوضوح اذا افترضنا سلفا أن صفات معينة لهذه الملكة تتمثل في عقل الطفل منذ البداية ، أو بعبارة أخرى : انهم يزعمون أن عقل الطفل يتصف بسمات فطرية معينة تعده سلفا لتعلم اللغة . والشرط الضرورى لكى نجعل

---

(١) Crystal, Lingistics, P. 254

(٢) بن عيسى (د. حنفى) محاضرات في علم النفس اللغوى ص ١٤٢ .

هذه الخصائص الفطرية متطورة في اتجاه ملكة الراشد هو أن يتلقى الطفل لغة انسانية ، ينبغى أن يثار حتى يستجيب(١) .

ولا يعنى ما سبق أن الطفل مهيء لاكتساب لغة بعينها ، ليس هذا صحيحا البتة ، بل انه مهيء لاكتساب أية لغة من لغات البشر التى يقدرله أن يعيش بين أصحابها ، ولهذا يقول أصحاب النظرية التوليدية : ان الخصائص الفطرية المزود بها الطفل ينبغى أن تكون عامة ، انها عميقة deep بحيث تجعله قادرا على امتلاك البنية التحتية لأية لغة انسانية بيسر وعلى حد سواء . وفي هذا المجال ينبغى أن تكون الاهتمامات المشتركة بين نظرية في علم اللغة ونظرية في علم النفس ـ ينبغى أن تكون واضحة .

وثمة اعتراضات على نظرية (تشومسكى) في اكتساب اللغة ، بيد أن هذا لا يقلل من أهميتها ، لأن مفاهيم هذه النظرية ـ كما يقول (كريستال) : لم تنتشر الا حديثا جدا ، وهذا المجال من الدراسة اللغوية هو من أكثر مجالات الدراسة اثارة هذه الأيام ، وسوف يظل من غير شك في طليعة اهتمامات علم اللغة في السنوات القليلة القادمة(٢) .

٢ ـ التفكير

لسنا نريد أن نتورط في مشكلة التعريفات المختلفة للتفكير وبخاصة أن علماء النفس أنفسهم يقررون أن (التفكير) من المفاهيم الغامضة التى (نفهمها) ولكن نعجز عن (شرحها) .. انه يعوزه التحديد في لغة علم النفس وفي لغة الحياة اليومية كذلك(٣) .

ولحل هذه المشكلة أو بعيدا عنها سوف نأخذ أحد التعريفات المشهورة

---

(١) Crystal, Linguistics, p. 256

(٢) Crystal, Linguistics, p. 257

(٣) عثمان (د. سيد) وأبو حطب (د. فؤاد) التفكير دراسات نفسية ص ١٩٦ ، ١٩٧ .

ونجعله نقطة بداية للسير في بحثنا هذا ، يعرف (همفرى) التفكير بأنه : ما يحدث في خبرة الكائن العضوى سواء أكان انسانا أم حيوانا حين يواجه مشكلة أو يتعرف عليها الى حلها .

والمشكلة تنشأ بالطبع حين لا يمكن للكائن العضوى أن يصل الى هدفه بالطرق المباشرة المتاحة ، وعلى ذلك فان حل المشكلة قد يكون دلالة على التفكير حين يبدو لنا أن الحل يتضمن معالجة داخلية لعناصر الموقف أو حين يقوم الكائن العضوى بتجهيز المثيرات والدلالات (من داخله) حين لا تتوفر في الموقف الادراكى الراهن ، ولا يمكن أن يكون من أمارات التفكير وعلاماته أن يقوم الكائن العضوى باستخدام طريقة المحاولة والخطأ ، أو بتكرار استجابة تعلمها أو استرجاعها بصورتها الأصلية (دون تعميم أو تمييز مثلا) . والموقف المشكل الذى يستثير (التفكير) قد ينشأ عن نقص المعلومات أو الأدلة أو الوسائل أو العادات(١) .

ولنفسر ما سبق بالمثال الآتى : نفرض أن (ا) كان يجلس تحت شجرة تفاح ، وأراد أن يقطف ثمرة منها ، فلو كانت في متناول يده ما وجدت مشكلة ، ولكن لو كانت التفاحة بعيدة عن متناوله لظهرت المشكلة ، ولو حاول الحصول عليها بعصا أو بسلم يتسلقه ٠٠ لوجد الحل . فما يحدث في عقله حين واجه هذه المشكلة أو حين سعى الى حلها هو ما يطلق عليه) التفكير) .

وقد ثار جدل شديد بين علماء النفس في طبيعة العلاقة بين اللغة والتفكير وفي امكانية الفصل بينهما حتى انتهى أحدهم وهو (فيجوتسكى) الى أن النظريات التى وضعت لتفسير طبيعة هذه العلاقة كانت تنتهى دائما الى دائرة مفرغة لم يعثر لها على حل حتى الآن(٢) .

ومع ذلك فلدينا آراء أكثر شيوعا وأهمية ، لقد ظهر للباحثين أن بعض

---

(١) عثمان (د. سيد) وأبو حطب (د. فؤاد) التفكير دراسات نفسية ص ٢٠٠ ، ٢٠١ .

(٢) (فيجوتسكى) التفكير واللغة ترجمة د. طلعت منصور ص ٧٣ .

الحيوانات وبخاصة الراقية منها قد يظهر في سلوكها نشاط عقلى يتمثل في استخدام بعض الأدوات وفي حل بعض المشكلات غير أن هذا النشاط يتم في غيبة اللغة ، لأن هذه الحيوانات غير قادرة على وضع نشاطها الفعلى في رموز لغوية ، أما الانسان فالطابع الجوهرى لنشاطه العقلى هو استعمال الرموز

وثمة رأى شائع بين الدارسين من علماء النفس واللغة يذهب الى تطابق التفكير واللغة ، فنحن حين نفكر نتكلم ولكن دون ألفاظ ، وحين نتكلم نعبر عن أفكار ، ولعله من هنا أمكن أن يقال : ان التفكير يصوغ اللغة وأن اللغة توجه التفكير .

أما أن التفكير يصوغ اللغة فمعناه أن اللغة عند الانسان مقيدة ومحددة بعدة عوامل أو محددات منها ما هو بيولوجى ومنها ما هو عقلى ومنها ما هو اجتماعى ، فاذا ما استطعنا أن نتعرف على هذه العوامل والمحددات التى تؤثر في اللغة وكيف تؤثر فيها عرفنا كيف يحدد التفكير اللغة ويطورها . كما أن اللغة في ذاتها وبعد صياغتها توجه التفكير وتؤثر في العمليات المعرفية وفي التعاملات والتواصلات الاجتماعية ولو استطعنا أن نحدد أنواع هذا التأثير ونفسر كيف يحدث عرفنا كيف تحدد اللغة التفكير وتصوغه(١) .

واللغة ظاهرة انسانية ، لأن الانسان وحده ـ كما قلنا آنفا ـ هو الذى يضع نشاطه العقلى في رموز لغوية ، وبين لغات البشر على اختلافها عناصر متشابهة أو عموميات ، لأن البشر الذين يتحدثون بهذه اللغات متشابهون في ادراكهم لما يحيط بهم أى أنهم يجربون العالم المادى بطرق متشابهة في جوهرها ، وهذا يعنى أن لدى البشر عموميات فكرية .

ومن زاوية أخرى نلاحظ أن لكل مجتمع نظرة خاصة في الكون وسلوكه في حياته وعلاقته بالبيئة ، وهذه العناصر كلها تتمثل في اللغة المعينة التى يتلقاها الفرد في المجتمع المعين الذى يقدر له أن يعيش فيه ، ومن هنا صح أن

---

(١) عثمان (د. سيد) وأبو حطب (د. فؤاد) التفكير ص ٢٧٨ ، ٢٧٩ .

يقال : ان اللغة الموجودة سلفا تشكل نظرة الانسان وتصوغ سلوكه وتحدد

ومن أوضح الأمثلة التي تبين هذين الجانبين (تأثير التفكير في اللغة وتأير اللغة في التفكير) الظاهرة الطبيعية المعروفة بألوان الطيف ، فاللغة الانجليزية تقسمها مثلا الى ستة أقسام على حين تقسمها لغة (السونا) لغة روديسيا الى ثلاثة أقسام ، ولغة (الباسا) لغة ليبريا الى قسمين ، وربما كانت هناك تقسيمات فرعية ، ولكن ما يراد ابرازه هنا هو أن تقسيم ألوان الطيف الى ثلاثة أقسام لا ستة لا يشير الى فرق في القدرة على ادراك الألوان ، ولكنه يشير فحسب الى فرق في الطريقة التى تصنف بها كل لغة(١) .

وهكذا نجد أن وجود مفردات تعبر عن ألوان الطيف ظاهرة عامة في كل اللغات ، لأن الظاهرة الطبيعية واحدة ، ولأن ادراكها لا يختلف من شخص الى شخص ، بيد أننا نجد أن كل لغة تعالج تصنيف هذه المفردات بطريقتها الخاصة أى أن التصنيف يختلف من لغة الى لغة أى أن اللغة تفرض على أصحابها هذا التصنيف وتصوغ تفكيرهم في قالبه .

٣ ـ التحليل النفسي

والتحليل النفسى من أوضح الأمثلة لتبيان العلاقة الوطيدة بين اللغة وعلم النفس ، لأن المحلل النفسى اذا أراد أن يدرس الأحلام لدى شخص من الأشخاص للكشف عن بعض العقد أو الأمراض أو المواقف المتأزمة فانه سيطلب من ذلك الشخص أن يحول أحلامه الى سلوك لغوى أى سيطلب اليه أن يتكلم وحينئذ لا يسعنا الا أن نلاحظ بأن المحلل النفسي انما يدرس ألفاظ ذلك الشخص وتعابيره لا أحلامه في حد ذاتها(٢) .

وهكذا يبدو لنا حاجة النفسانى الذي يقوم بالتحليل الى قدر مناسب من المعارف اللغويةيعينه علي تحليل اللغة التي يدرسها والتعرف علي خصائصها .

---

(١) Gleayon, An Introduction to discriptive Linguistics p. 105

(٢) بن عيسي (د. حنفى) محاضرات في علم النفس اللغوي ص ١٣٨ .

٤ ـ المعنى عند السلوكيين

المعنى من المباحث المشتركة في علم اللغة والنفس ، بل ان نظرية لها شأنها في علم اللغة وهى نظرية (بلومفيلد) قامت أساسا على التفسير الذى قدمه السلوكيون للمعنى . لقد كان (بلومفيلد) يعرف المعنى على أنه المقام الذى ينطق فيه الكلام والاستجابة التى يستدعيها عند السامع(١) .

يقول الدكتور حنفى بن عيسى في بيان موقف السلوكيين من الدلالة : واذا طبقنا النظرية السلوكية في اللغة فمعنى هذا أن الظروف والملابسات التى تدفع بالانسان الى التكلم هى التى تكسب كلامه دلالة معينة ٠٠ والسلوكيون كذلك ينظرون الى اللغة في ضوء موقفهم من كثير من أنماط السلوك الانسانى ، ان السلوك اللغوى نمط من السلوك الاجتماعى ، فالمواقف الاجتماعية التى يعمل ضمنها الانسان هى بمثابة منبهات تدفعه الى سلوك معين ، وما يصدر عنه من كلام هو الاستجابة لتلك المنبهات(٢) .

وقد كان تصنيف الاستجابات اللفظية من الموضوعات التى عنى بها علماء النفس ، ولعله من توضيح الواضح أن نقرر هنا علاقة هذا الموضوع بعلم اللغة ، ولهذا سوف نلخص هنا أهم الأفكار التى انتهى اليها علماء النفس من دراسته .

يظل الانسان ساكتا حتى يخرجه عن سكوته سبب من الأسباب ، وهذه الأسباب عند علماء النفس السلوكيين محركات أو مثيرات ، وما يعنينا من هذا أن هذه المحركات أو الأسباب قد تؤدى أحيانا الى استجابة لفظية هذه الاستجابة قد تكون :

(ا) استجابة لدوافع ملحة كأن أقول أعطنى خبزا استجابة لحالة الجوع

---

(١) انظر كتابى : مدخل الى اللغة ص ١٤٧ ، ١٤٨ .

(٢) بن عيسى (د. حنفى) محاضرات في علم النفس اللغوى ص ١٧٠ ـ ١٧٣ .

من ناحية ووجود انسان أتوقع منه أن يحقق لى هذه الحاجة ، والسلوك اللفظى هنا قد يتمثل في صيغ لغوية محددة كالأمر والنهى والترجى ٠٠ الخ وهذه الصيغ تختلف بحسب الموقف وبحسب علاقة المتكلم بالمخاطب ومنزلته منه ، ومهما كانت الصيغة التى نستعملها فهى على كل حال تعبر عن حاجاتنا الملحة .

(ب) الاستجابة للمنبهات الخارجية كأن أصوغ جملة خبرية لكى أفيد السامع بمضمونها ، وليست الفائدة هنا تعود على السامع فقط ، فالمتكلم هو الآخر قد يستفيد مما يلقاه من السامعين من شكر أو استحسان أو موافقة ٠٠ مما قد يدفعه الى مزيد من الكلام .

(ح) الاستجابة للأصوات اللغوية . وهو ما يحدث ردا على كلام ملفوظ أو مكتوب ، فالكلمات التى ينطقها المتكلم تثير السامع وتحثه على الكلام ، ومن ثم يستمر الكلام بينهما حتى ينقطع لسبب من الأسباب وشبيه بهذا الاستجابة الصوتية للمثيرات البصرية فلقد اعتاد كثيرون منا أن يقرأوا جهرة ما يرونه مكتوبا .

(د) الاستجابة للعادات اللفظية ، ان كلامنا أكثره استجابة للعادات اللفظية الراسخة في أنفسنا ، فلقد حشونا أدمغتنا بالقصائد والأمثال وحفظنا العديد من الأقوال ٠٠٠ فتكونت لدينا من ذلك عادات لفظية تسهل علينا عملية التعامل اليومى ، وتجعل الكلمات تنساق الينا متى احتجنا اليها ، وهى تخطر على أذهاننا بعفوية ويسر(١) .

٥ ـ العادات اللفظية وآثارها في الأداء اللغوى

لقد تبين لنا أن العادات اللفظية تيسر لنا عملية التعامل اليومى ، بيد أن لها أثرا آخر لا يقل عن ذلك أهمية ، وهى أنها أحيانا تضع للفكر قوالب وصيغا

---

(١) بن عيسى (د. حنفى) محاضرات في علم النفس اللغوى ص ١٧٦ ـ ١٨٠ .

جاهزة ، فلقد تخطر ببالنا فكرة ، وعندما نعبر عنها نهيىء الكلمات المناسبة لها نجد أنفسنا قد اضطررنا الى استخدام كلمة معينة ، لأنها غالبا ما تجيء في صحبة الكلمة المقصودة مع أن الفكرة لا تتطلبها بحال من الأحوال . وعلى سبيل المثال تأتى الكلمات الآتية متلازمة في أغلب الأحوال :: البلد الشقيق ـ الوطن الحبيب ـ العدو اللدود ـ أدهى وأمر ٠٠الخ ومعنى هذا أن العادات اللفظية سلاح ذو حدين فهى من ناحية تسهل عملية الكلام ومن ناحية أخرى تقيد الفكر وتورط المتكلم فيما لا يقصد(١) .

ان دراسة العادات اللفظية يجعلنا قادرين على أن نتنبأ ـ على وجه الاحتمال ـ بما عسى أن يصدر عن شخص ما في مناسبة معينة ، لقد تبين لنا آنفا أن الكلام الانسانى غالبا ما يأتى في سلاسل من ألفاظ يستدعى بعضها بعضا وأن دراسة هذه السلاسل ربما تكشف عن نتائج هامة في سلوك المتكلمين ، ومن النتائج التى توصل اليها الباحثون من دراسة هذه العادات أنه يمكن الاستفادة منها في المجالات الآتية :

١ ـ اعداد التراجمة اعدادا جيدا بتدريبهم على معرفة العادات اللفظية للمتكلمين .

٢ ـ اختيار أشخاص لمهن لغوية كالتراجمة أو أشخاص يتقنون مصطلحات علم النفس أو مجال معين ، وتعتمد الاختبارات على الدقة في اختيار الكلمة المناسبة والسرعة في ذكرها .

٣ ـ قياس الذكاء اذا أخذنا برأى من يقول ان الذكاء هو القدرة على انشاء ترابطات ، ولا شك أن الحصيلة اللغوية من أحسن القرائن على ذلك .

٤ ـ دراسة نماذج الشخصية .

٥ ـ العلاج النفسى عن طريق الكشف عن بعض الميول الكامنة أو النزعات المكبوتة أو المشاغل الذهنية المتأزمة .

---

(١) بن عيسى (د. حنفى) محاضرات في علم النفس اللغوى ص ١٧٩ .

٦ - العادات اللغوية لها دور كبير في تسهيل عملية القراءة وبخاصة اذا كانت اللغة تركيبية كالغة العربية(١) .

وثمة مجالات أخرى للعمل المشترك بين اللغويين وعلماء النفس كدراسة الفروق الفردية في استخدام اللغة وموضوع الأسلوب وعلاقته بالشخصية وموضوع التفكير وعلاقته بالذاكرة والاستدعاء والانتباه وعلاقة هذه العمليات باللغـــة .

ثانيـا : علم الاجتماع

اللغة في المجتمعات الحديثة وثيقة الصلة بكل أشكال السلوك الجماعى ، ويتمثل هذا على السواء عند استحضار تاريخ هذا المجتمع أو تجاربه الماضية أو عند الاتصال المباشر بالأحداث أو بالتجارب اليومية أو عند مباشرة العمل وتوجيه القائمين به(٢) .

وهذا الدور الكبير الذى تقوم به اللغة في المجتمع يلقى عبئا ثقيلا على علماء اللغة والاجتماع للكشف عن أبعاده ، وتفسير اتجاهاته ، وابتكار وسائل لتحديد وجوه التأثير المتبادل بين علم اللغة والمجتمع ، وهذا هو ما يعلل ظهور علم اللغة الاجتماعى Sociolinguistics

ويشير هذا المصطلح الى تطبيقات خاصة بوسائل بحث مستخدمة في علم اللغة والعلوم الاجتماعية ، وبنتائج مستخلصة منها جميعا لدراسة اللغة في مجتمع معين .

ويسوغ ظهور هذه الدراسة أن المشكلات اللغوية والاجتماعية مترابطة ترابطا وثيقا حتى ان علم اللغة ذاته قد اعتبر أحيانا من العلوم الاجتماعية . فكل متحدث بلغة معينة هو في الوقت نفسه أحد أفراد المجتمع الذى يستخدم هذه اللغة ، ولهجته الفردية idiolect أو الطبقية Social dialect سوف يتحددان

---

(١) بن عيسى (د. حنفى) محاضرات في علم النفس اللغوى من ص ١٩١ - ٢٢٠ .

(٢) لويس : اللغة والمجتمع ص ١٢٧ .

في الوسط الذى يعيش فيه ، وهذا الوسط بدوره يصبح ذ أثر فعال في كلامه(١) . ومن مجالات الدراسة التى يشير اليها أصحاب التعريف السابق :

ـ دراسة اللغة التى قد يكتسبها أحد المتحدثين بلهجة محلية في المدرسة أو من خلال وسائل الاتصال كأجهزة الاعلام ويعدها لغة ثانية أو مساعدة ، كما يحدثللعربى مثلا حين يتعلم الفصحى في المدرسة . وهو ما يطلق عليه اللغة الرسميـــة .

ـ دراسة لغة أو لهجة تستخدم كوسيلة اتصال بين أفراد من جماعات لغوية مختلفة ، وليست هذه اللغة أو اللهجة لغتهم أو لهجتهم القومية ، كاللغة السواحلية التى قد يستخدمها ـ في شرق افريقيا جماعات ليست من البانتو أصحاب هذه اللغة .

ـ ظاهرة الثنائية حيث يكون في المجتمع الواحد مستويان لغويان أحدهما عال والآخر هابط ، وهى ظاهرة شائعة في كثير من الدول ، ففى مصر وغيرها من الدول العربية مستويان : اللغة الفصحى وهى المستوى العالى واللهجة المحلية وهى المستوى الهابط .

ـ النظم الرمزية التى تطورها الفئات المتصارعة للتفاهم فيما بينها في الدول ذات اللغات المتعددة كالهند والولايات المتحدة .

ويحدد (كريستال) مجال هذا العلم بقوله : يدرس علم اللغة الاجتماعى الطرق التى تتفاعل بها اللغة مع المجتمع ، انه يدرس الطريقة التى بها تتغير البنية اللغوية استجابة لوظائفها الاجتماعية المختلفة والتعريف بماهيـة هذه الوظائف .

ويستخدم (كريستال)كلمة المجتمع في التعريف بأوسع معانيها لتشمل طائفة من الظواهر لها علاقة بالجنس والقومية ، ولها علاقة أكبر بجماعة

---

(١) Hartman, and Stork, Dictionary of Language and Linguistics.

متميزة ـ اقليميا أو اجتماعيا أو سياسيا ـ ولها علاقة أيضا بتفاعل الأفراد في الجماعات(١) .

وقد ظهرت تصنيفات مختلفة لتضم هذه الطوائف من الظواهر المشتركة بين علم اللغة وعلم الاجتماع منها :

(ا) علم اللغة الأنثربولوجي Anthropological Linguistics

وعلاقة هذا العلم بعلم اللغة الاجتماعى تنبنى أساسا على طبيعة العلاقة بين علم الأنثربولوجيا وعلم الاجتماع ، وبعض الباحثين يرى أن العلم الأول يدرس الثقافات البدائية وأن الثانى يدرس وحدات سياسيـة أكثر تقدما ، والمدارس الأمريكية والانجليزية تختلف فيما بينها في هذا المجال اختلافا كبيرا .

ويحدد (بيلز) و (هويجر) وهما أمريكيان موضوع الأنثربولوجيا بأنه دراسة المجتمعات والثقافات الانسانية ، وتاريخها وتتابع نموها وتطورها ، ودراسة الثقافات البشرية وأدائها لوظائفها في كل مكان وزمان ، فالأنثربولوجيا الثقافة تهتم بالثقافة في ذاتها : ثقافة أسلافنا أبناء العصر الحجرى أو ثقافة المجتمعات المعاصرة في أوربا وأمريكا ، وجميع الثقافات تستأثر باهتمام دارس الأنثربولوجيا ، لأنها تسهم جميعا في الكشف عن استجابات الناس ـ المتمثلة في الأشكال الثقافية ـ للمشكلات العامة التى تطرحها البيئة المادية (الطبيعية) وعن محاولات الناس الحياة والعمل معا ، وتفاعلات المجتمعات الانسانية بعضها مع بعض(٢) .

ويحدد الباحثان السابقان مهمة عالم اللغة الأنثربولوجى بقولهما : لا يقصر اهتمامه بالمشكلات اللغوية البحتة فحسب ، اذ أنه يهتم أيضا بالعلاقات العديدة القائمة بين لغة شعب من الشعوب وبقية جوانب ثقافته ، وهكذا يمكن أن يدرس على سبيل المثال الكيفية التى ترتبط بها لغة جماعة معينة بمكانة تلك الجماعة

---

(١) Crystal, Linguistics, p. 252

(٢) بيلز وهويجر :مقدمة في الأنثربولوجيا العامة ط ص ٢١ .

أو وضعها الاجتماعى ، والرموز اللغوية المستخدمة في الشعائر والاحتفالات الدينية ، وكيف تختلف هذه الرموز عن الكلام اليومى العادى ، وكيف يعكس تغير الحصيلة اللغوية في احدى اللغات الثقافة المتغيرة للشعب الذى يتكلمها ، وكذلك العمليات التى تنتقل بوساطتها اللغة من جيل الى جيل ، وكيف تساعد تلك العمليات على نقل المعتقدات والمثل العليا والتقاليد الى الأجيال التالية ، فدارس اللغويات - باختصار - يحاول أن يفهم دور اللغة في المجتمعات البشرية والمهمة التى اضطلعت بها في رسم الصورة العامة للحضارات الانسانية المتطورة(١) .

ولنأخذ الموضوع الآتى لبيان العلاقة الوثيقة بين علم اللغة والأنثربولوجيا .

اللغة والثقافة

ان علاقة اللغة بالثقافة من أهم النقاط التى يلتقى عندها علم اللغة بالأنثربولوجيا ، ويعد الالتقاء عندها التقاء عظيم الخطر جليل الفائدة للعلمين كليهما ، اذ ان اللغة تعكس ثقافة المجتمع من ناحية وهى التى تملى عليه ثقافته من ناحية أخرى .

والثقافة - ودون أن نتورط في مشكلات تعريفها - ببساطة هى أسلوب شعب ما أو جماعة معينة في الحياة ، ونظرة هذا الشعب أو تلك الجماعة الى حياتهم ، انها تتمثل في أعراف وتقاليد وآداب وفنون وأنماط من السلوك .. الخ وكلها عناصر يتلقاها الفرد من مجتمعه ، انها - بايجاز - كيف يتصرف الفرد في موقف معين ؟ ولماذا يتصرف على هذا النحو ؟

ومن المعروف أن اللغة تعكس ثقافة المجتمع الذى يستخدمها وتعبر عن حاجاته وتكشف عن مظاهر الحياة فيه ، ولهذا تغنى اللغة في مجال معين وتفتقر في مجال آخر .

---

(١) بيلز وهويجر : مقدمة في الأنثربولوجيا العامة ط ص ٢٧ .

فالعربية مثلا تفيض بالمفردات التى تشير الى الحياة البدوية وما يتصل بها من مظاهر الطبيعة وحيوان الصحراء ومظاهر السلوك التى تناسب هذه الحياة ، فلا عجب اذا أن نجد مئات الألفاظ بل آلافها تتحدث عن الأبل ، فاذا نظرت في معجم عربى قديم وجدته مليئابكل ما يتصل بها : حملها ووضعها ونتاجها وأعمارها وأمراضها وطعامها وأوبارها وسيرها وأحمالها .. الخ بل وضعوا للشيء الواحد غير لفظ واحد .

فاذا ما انتقلت الى بيئة أخرى كالاسكيمو وجدت ثقافة أخرى لا تعرف الصحراء ولا حيوانه ، ولا تعرف الحياة البدوية ولا أنماطها ، وجدت لغة لا تمثل هذه الثقافة ولا تعكس هذه الحياة ، وجدت لغة تتحدث عن الثلج وأنواعه ، وتفرق بين أحواله وأوقات نزوله وكيفياتها وآثاره على الحيوان والشجر ، لغة تتحدث عن (الرنة والفقمة) وأنواع لا حصر لها من حيوان الماء وطيره .

وهكذا يبدو لنا أن اللغة صورة لثقافة الأمة ومرآة تعكس حياتها ، بيد أن هذا جانب من القصة ، وللقصة جانب آخر ، حيث تقوم بتشكيل ثقافة الأمة وصنع فكرها .

ان نشأة الثقافة وتطورها يتوقفان على خلق نظام من الرموز واستخدامها، وهكذا ما يؤكده علماء الانثروبولوجيا ، وفي هذا الاطار يقول (ليزلى هوايت) : أن السلوك البشرى بكافة أنواعه ينشأ باستخدام الرموز . . وقد نشأت كل الحضارات واستمرت باستخدام الرموز . . فالرمز هو الذى يحول الطفل الى كائن بشرى مكتمل . . ان أنواع السلوك البشرى كافة تتكون من استخدام الرموز أو تعتمد على أنواع من الرموز ؛ فالسلوك البشرى سلوك رمزى والسلوك الرمزى سلوك بشرى(١) .

---

(١) بيلز وهويجر : مقدمة في الأنثربولوجيا العامة ط ص ١٦٦ .

أن القدرة على استخدام اللغة أو غيرها من الرموز مكنت الانسان من الاحتفاظ بخبراته ومعارفه ونقلها الى غيره من بنى جلدته ، كما أنها يسرت له أن يعبر الفجوة بين الخبرات المادية المنفصلة مما يضفى طابع الاستمرار على عملية اكتساب الخبرات الانسانية .

ان البشر لا يتعلمون عن طريق الخبرة المباشرة والملاحظة والتقليد فقط ، وانما يتعلمون كذلك من خلال الخبرة التى تتراكم في صورة رمزية لغوية غالبا ، فما ان ينجح انسان ما في حل مشكلة معينة حتى يصبح في وسعه تلخيص هذه الخبرة في كلمات ، وبهذه الطريقة تصبح جميع خبرات وملاحظات أى فرد في متناول بقية أفراد المجتمع الحاضر ، ليس هذا فحسب بل انها تمكن البشر من تلخيص أساليب السلوك التى تعلموها ونقلها الى كل جيل جديد(١) .

ومن ثم فليس غريبـا أن يقال ان الثقافة في جوهرها هى تراكم لأنماط السلوك المتعلم التى نشأت وتطورت بفضل الرموز التى ظهرت الى الوجود عندما تعلم الانسان كيف يرمز للأشياء .

بيد أن وظيفة اللغة لها أهمية أكبر من كونها وسيلة للتعبير عن الخبرة أو نقلها ، بل ان اللغة تملى على الفرد أسلوب حياته ونظرته اليها وفي هذا يقول (سابير) : البشر لا يعيشون في العالم المادى فحسب ، ولا في عالم النشاط الاجتماعى بالمفهوم العادى ، ولكنهم واقعون تحت رحمة تلك اللغة المعينة التى اتخذوها وسيلة للتفاهم في مجتمعهم ، انه لوهم كبير أن نتخيل أن فردا ما يتكيف مع الواقع دون استخدام اللغة ، وحقيقة الأمر أن العالم الحقيقى مبنى الى حد كبير على العادات اللغوية لمجتمع معين ، كما أنه ليس في العالم لغتان تتشابهان تشابها كبيرا الى درجة اعتبارهما تمثلان نفس الواقع الاجتماعى ، ان العوالم التى تعيش فيها المجتمعات المختلفة عوالم مختلفة لا عالم واحد نسميه

---

(١) مقدمة في الأنثروبولوجيا العامة ط ص ١٦٧ .

بأسماء مختلفة(١) .

اللغة اذا هى التى تجعل مجتمعا معينا يتصرف ويفكر بطريقة خاصة ، ومن هنا يقرر (ورف) : أن اللغة ليست مجرد وسيلة للتعبير عن الأفكار بل انها هى نفسها التى تشكل هذه الأفكار ٠٠ نحن نحلل العالم من خلال جمل حددتها قبلا لغاتنا القومية ٠٠ نحن نحلل العالم ونصنفه في أفكار ونعطى لذلك أسماء ، نفعل هذا لأننا أفراد متفقون على أن ننظمه بهذه الطريقة ، انه اتفاق ينعقد خلال المجتمع اللغوى ويقعد له في أنماط لغتنا(٢) .

وهكذا يبدو لنـا الدور الكبير الذى تقوم به اللغـة في نشأة الثقافة وفي استمرارها وفي تطورها وفي تشكيلها لأفكارنا وأنماط سلوكنا ونظرتنا الى العالم . وهذا ما جعل الانثروبولوجيين يعدون دراسة اللغة فرعا من أكثر فروع الدراسة الاثنولوجية أهمية لأنهم يرون أن تحقيق ادراك تام بالاثنولوجيا لا يتم بغير معرفة باللغة ، ولأن المفاهيم التى تكشف عنها اللغات الانسانية لا تختلف في النوع عن الظواهر الاثنولوجية ، وأكثر من هذا لأن خصائص اللغات تنعكس بوضوح في آراء وتقاليد شعوب العالم(٣) .

(ب) علم الأجناس اللغوى Ethno Linguistics

يجعله بعض الباحثين فرعا من علم اللغة الأنثروبولوجى ، وينظر اليه أحيانا على أنه علم متميز عن بقية العلوم الاجتماعية ، وهو يشير الى العلاقات اللغوية التى يمثلها في مستوى واقعى النتائج اللغوية للهجرة ، ويشير أيضا الى مشكلات الجماعات العرقية ، وثمة جانب لغوى في العلاقات الجنسية

---

(١) Corder, Introducing Applied Linguistics, p. 75

(٢) أنظر ا كندراتوف : الأصوات والاشارات صـ ٦١ ، ٦٧ .

(٣) بيلز وهويجر : مقدمة في الأنثروبولوجيا العامة حـ ٢ ص ٦٦٤ .

يدركه تماما العاملون في هذا المجال(١) .

ومن الموضوعات التى درسها الباحثون في هذا الفرع الخواص اللغوية المميزة لانجليزية الزنوج والهنود الحمر واليهود وغيرهم من الجماعات العرقية في الولايات المتحدة ، وقد انتهى اللغويون الى أن هذه الخواص لا ترجع الى الجنس بل تخضع لعوامل اجتماعية في المقام الأول ، فهى تظهر مثلا في لغة المهاجرين الأوائل الذين تمكنت فيهم لغاتهم الأصلية ، أما أبناؤهم الذين خضعوا لظروف طبيعية في مواطنهم الجديدة فانهم يكتسبون الانجليزية كأبناء المجتمع الأصليين .

لقد احتفظ الزنوج بلهجة انجليزية خاصة يطلق عليها في أمريكا Black Enùllch لأسباب اجتماعية وتعليمية واقتصادية ، ان التعصب العنصرى عبر التاريخ ضد الأمريكيين السود لم يسمح لهم أن يكونوا مواطنين عاديين ، لقد كانوا يعيشون في مناطق منعزلة عن مناطق البيض ، وكانوا يتعلمون في مدارس خاصة بهم ، وحيثما يكون الانعزال تزيد الفروق اللهجية وتتكثف .

ولقد كان كثير من الأمريكيين يعتقدون أن المتحدثين بانجليزية الزنوج عقلياتهم متخلفة وثقافتهم فقيرة ، بل ويقررون أنها غير ناقصة وغير منطقية وغير كاملة .

والحق كما يقول بعض اللغويين الأمريكيين : ان هذه النعوت لا تصح أن تطلق على أية لغة انسانية ، ان الثقافة الفقيرة ما هى الا خرافة كخرافة اللغة الفقيرة تماما ، ان الشخص قد يكون فقيرا في مجال ثقافي ، ولكنه يكون غنيا في مجال ثقافي آخر . ان الأمريكى الأسود الذى يقول : Mary Hat ليس فقيرا في فكره ولا في لغته بالقياس الى من يقول Mary's Hat (٢) .

---

(١) Crytal, Linguistics, p. 252

(٢) Fromkin and Rodman, Introduction to Language, p. 261

وعلى كل فقد كان للبحوث اللغوية التى تمت في هذا المجال فضل كبير في أن تبين الصواب في موضوع الثقافات البدائية واللغات البدائية .

(ح) علم الأسلوب Stylistics

كانت الدراسة التقليدية للأسلوب تعنى أساسا بتحليل الأسلوب الأدبى أو السمات اللغوية المتنوعة للكاتب ، ولذلك وضعت معايير متعددة لمعالجة الأساليب الفردية أو الجماعية عند اتصالها بالسيرة الذاتية أو بالسمات السيكلوجية والاجتماعية التى تعكس شخصية خالقها .

وقد ظهر حديثا جدا اهتمام كبير بدراسة الأسلوب ولكن بمفهوم يختلف عن المفهوم التقليدى السالف يقول (كريستال) : يهدف علم دراسة الأسلوب بشكل عام الى تطبيق الطرق الفنية لعلم اللغة في دراسة أنواع خاصة وشائعة من الاستخدامات اللغوية من حيث صلتها بمجتمع لغوى معين Speech Community له طبيعة خاصة ، مثل دراسة لغة العلم أو القانون أو الدين أو السياسة أو لغات الطبقات الاجتماعية المختلفة . ثم يقول في موضع آخر « ان علم الأسلوب يحدد لنا أنواع الكلام أو الكتابة التى تتناسب مع المواقف المختلفة ، كما يحاول تطوير معرفتنا وتحكمنا في هذه الاختلافات التى تعلمنا بعضا منها في سن مبكرة »(١) .

ونحن نعرف كثيرا من هذه الأساليب التى تلقيناها في البيت أو في المدرسة من نوع (قل ولا تقل) وقد يكون الأمر أو النهى بالحديث مع شخص معين أو في موضوع معين .

ومن الواضح أن (كريستال) يربط الأسلوب أحيانا بالطبقة الاجتماعية التى ينتمى اليها المتكلم وهو ما يعرف عند باحثين آخرين باللهجة الاجتماعية ، وفي مجال تحديد العلاقة بين اللهجة والأسلوب يقول (هدسن) ان اللهجة محلية

---

(١) كريستال : التعريف بعلم اللغة ترجمة د. حلمى خليل ص ١٨٥ ، ١٨٦ .

أو اجتماعية تحددها شخصية المتكلم : المنطقة التى يسكنها أو الطبقة التى يشغلها في المجتمع ٠٠ ان اللهجة أو اللهجات التى يكتسبها الفرد أو يستخدمها دليل على هويته في المجتمع ٠٠ وثمة تنوعات أخرى في اللغة مستقلة عن هوية الفرد في المجتمع ، وانما تحددها أمور أخرى : الموضوع الذى يتحدث فيه أو الشخص الذى يتحدث اليه أو الوسيلة اللغوية التى يستخدمها في الاتصال ، ان هذه التنوعات هى ما يطلق عليه : الأسلوب ، واذا كنا قد انتهينا الى أن اللهجة تتحدد بصفات لها علاقة بالمتكلم فقد يجوز لنا هنا أن نقول : ان الأسلوب يتحدد بصفات لها علاقة باستخدام اللغة ، ونحن في حاجة ماسة الى هذا التفريق بين التنوعات اللهجية والأسلوبية ، لأن الشخص الواحد قد يستخدم أشكالا لغوية مختلفة جدا ليعبر عن نفس المعنى في مناسبات أو ظروف مختلفة(١) .

وقد حدد بعض الباحثون الأساليب التى يمكن للفرد أن يستعملها بأنها الأسلوب الجامد والأسلوب الرسمى والأسلوب الاستشارى والأسلوب العادى وأسلوب الألفة الشديد . ولباحثين آخرين رأى آخر في هذا الوصف(٢) .

ويستخدم بعض الباحثين منجزات علم اللغة الرياضى وطرقه الفنية في تحليل أسلوب كاتب معين أو نص معين ، وذلك لأغراض متنوعة ، فعالم النفس مثلا يعده أفضل الوسائل للكشف عن سريرة الانسان وشخصيته والناقد الأدبى يعده من الطرق التى تساعده على التعرف على خصائص الكاتب الفنية أو تعينه على الكشف عن خصائص فن أدبى معين ٠٠ الخ .

ومن المعروف أن أفراد الجماعة الواحدة لا يتكلمون على وتيرة واحدة ، بل نجد بينهم فروقا في الأصوات أو في اختيار الكلمات أو في بناء الجمل .. الخ وهذا الاختلاف هو الذى يسوغ الحديث عن السلوك اللغوى الفردى باعتباره سمة من سمات الشخصية وعلامة فارقة بين الناس .

---

(١) Hudson Socio Linguistics p. 48

(٢) أنظر في تفصيل ذلك كتابى مدخل الى اللغة ص ٢٦٨ - ٢٧٥ .

ولكل فرد من أفراد الجماعة اللغوية عدد خاص من المفردات يستخدمها في الكلام أو في الكتابة أو يتعرف عليها عند القراءة ، وهو ما يعرف بالحصيلة اللغوية . ويختلف كل فرد أيضا في الطريقة التى يستخدم فيها هذه المفردات ، فبعضهم يوجز وبعضهم يطيل وبعضهم يكرر وبعضهم لا يكرر وهو ما يعرف بتنوع المفردات ، وقد ابتكرت طرق احصائية لدراسة هذين الجانبين ، ودرست العلاقة بينها وبين الذكاء . وقد درست أيضا الطرق التى تؤلف بها الجملة ، فمن الناس من يصوغها طويلة معقدة ، وبعضهم يصوغها قصيرة بسيطة ، وقد درست أسباب ذلك وعلاقتها بالكاتب أو بالموضوع .

ولا تنحصر الفروق الفردية في السلوك اللغوى فيما ذكر من الحصيلة اللغوية أو تنوع المفردات ٠٠ الخ بل يختلفون كذلك في استعمالهم لمختلف أقسام الكلام من أسماء وأفعال وحروف ونعوت أى من حيث نسبة كل منها الى الآخر .

ولكن ما قيمة الدراسة الاحصائية للأسلوب ؟

يجيب الدكتور حنفى بن عيسى عن هذا السؤال قائلا : ان الأسلوب الذى ينكشف لنا بعد التحليل الاحصائى تنقصه عناصر كثيرة اذا ما قورنت بالأسلوب الذى ندركه عن طريق الحدس والشعور المباشر ، ويبدو أن الطرق الاحصائية مهما كانت دقيقة ومهما استعانت بالأرقام فانها تغفل جانبا من جوانب الأسلوب ، وأن العقل البشرى أكثر قدرة على الاحساس بتلك العناصر وعلى تسجيلها بصورة مباشرة ٠٠ ، ومع ذلك فان الطريقة الاحصائية - وآن كانت لا تطلعنا على لوينات الأسلوب فانها تقدم لنا معلومات مفيدة عن الفروق الفردية في أساليب التعبير ، ولا شك أن الطريقة الاحصائية من أحسن الروافد لفهم بعض أسرار السلوك اللغوى(١) .

---

(١)أنظر : محاضرات في علم النفس اللغوى ص ٢٤٥ - ٢٥٩ وبخاصة الصفحة الأخيرة .

المبحث الثاني

علم اللغة والدراسات التطبيقية

(علم اللغة التطبيقي)

عند الحديث عن تعريف علم اللغة تبين لنا أنه يهدف الى وضع نظرية في اللغة ، نظرية تفسر لنا كيف تعمل اللغة ، ونظرا للطبيعة النظرية لهذا العلم أطلق عليه بعض الباحثين (علم اللغة النظرى Theoretical Linguistics ويوصف علم اللغة بالتطبيقى Applied Linguistics ليشير الى بعض الجوانب العملية لهذا العلم ، ومن البدهى أن العلماء ـ في أى فرع من فروع العلم ـ ليسوا مطالبين بأن تكون لهم أهداف عملية ، فربما كانت ملاحظة الظواهر وتفسير العلاقات بينها والوصول الى النظام الذى يحكمها ـ ربما كانت هذه الأمور هدفهم الوحيد الذى تخلص له النوايا وتتوجه اليه الأعمال . وقد تكون هناك أهداف عملية لهذه الأعمال ربما عمل العلماء أنفسهم على تحقيقها ، وربما استفاد منها علماء آخرون ، وهؤلاء هم العلماء التطبيقيون ، ويطلق على العلوم التى تعنى بهذه الاستخدامات العملية : العلوم التطبيقية (ومن بينها مثلا الهندسة والجراحة والفلاحة ٠٠ الخ) ومن بينها أيضا علم اللغة التطبيقى ، ولا شك أن العلوم التطبيقية تعتمد على العلوم النظرية ، وتستخدم ما تنتهى اليه من نتائج في تطوير استخداماتها .

ويعرف (كريستال) علم اللغة التطبيقى بأنه : تطبيق نتائج المنهج اللغوى وأساليبه الفنية في التحليل والبحث في ميدان غير لغوى ، ثم يعلق على التعريف قائلا : وعلم اللغة بهذا المعنى ما هو الا وسيلة لغاية معينة أكثر منه غاية في ذاته(١) .

---

(١) كريستال : التعريف بعلم اللغة ترجمة د. حلمى خليل ص ١٧٤ .

وبعض اللغويين يستخدم هذا المصطلح للاشارة فحسب الى النواحى التعليمية (تعليم لغة أجنبية أو قومية) ، غير أن لغويين آخرين توسعوا في مجالات استعماله فشمل استخدامات أخرى غير تعليمية .

ومن أهم مجالات علم اللغة التطبيقى :

عمـــل المعـاجم

عمل المعاجم من أهم مجالات علم اللغة التطبيقى ، لأنه من أقربها الى جمهور الناس من غير المتخصصين ، وصناعة المعجم ـ كما يقرر أهلها ـ ليست علما بل هى فن لا يمكن أن يتقيد بالطرائق الموضوعية التى يتبعها علم اللغة الحديث ، وعلى حد تعبير المعجمى (كوف) : « لم تصبح الصناعة المعجمية علما بعد ، وربما لن تصبح علما أبدا ، فهى فن معقد دقيق وبالغ الصعوبة أحيـانا يتطلب تحليلا ذاتيـا وقرارات اعتباطيـــة واستنتاجات حدســـية »(١) .

ومن الضرورى أن نشير هنا الى الفرق بين علم المفردات أو المعجم الذى هو فرع من علم اللغة النظرى وصناعة المعجم . « يهتم علم المفردات من حيث الأساس باشتقاق الكلمات وأبنيتها ودلالاتها المعنوية والاعرابية والتعابير الاصطلاحية والمترادفات وتعدد المعانى ، أما الصناعة المعجمية فتشمل خطوات أساسية خمس هى : جمع المعلومات والحقائق ، واختيار المداخل ، وترتيبها طبقا لنظام معين ، وكتابة المواد ، ثم نشر النتاج النهائى ، وهذا النتاج هو المعجم أو القاموس » (٢) .

وهكذا نتبين الطبيعة النظرية لعلم المفردات أو المعجم من حيث البحث في الاشتقاق والصيغ والدلالات ٠٠ الخ والطبيعة العملية لصناعة المعجم ، والتى

---

(١) القاسمى (د. على) علم اللغة وصناعة المعجم ص ١٢ .
(٢) القاسمى (د. على) علم اللغة وصناعة المعجم ص ٩ .

تستفيد من نتائج العلم السابق بالاضافة الى معارف ووسائل خاصة لانجاز معجم يستخدم بالفعل .

ويمكن تعريف (المعجم) بأنه كتاب يحتوى على كلمات منتقاة ترتب عادة ترتيبا هجائيا ، مع شرح لمعانيها ، ومعلومات أخرى ذات علاقة بها ، سواء أعطيت تلك الشروح والمعلومات باللغة ذاتها أو بلغة أخرى »(١) .

وتتنوع المعاجم تنوعا كبيرا وفقا للأهداف التى تسعى الى تحقيقها ، ولكن يمكن على سبيل التبسيط أن يقال انها تنقسم الى نوعين :

معاجم عامة : لا ترتبط بموضوع خاص مثل (المعجم الوسيط) الذى أخرجه مجمع اللغة العربية بالقاهرة .

معاجم متخصصة : تقتصر على مجال معين ومنها ، المعجم الجغرافي والمعجم الفلسفى ومعجم ألفاظ الحضارة ، وهى أيضا من أعمال مجمع اللغة العربية بالقاهرة .

والمعاجم قد تكون أحادية اللغة كالمعاجم الآنفة الذكر أو ثنائية اللغة ، كالمعاجم الانجليزية ـ العربية أو الفرنسية العربية ٠٠ الخ .

وتعنى المعاجم العامة أحادية اللغة ببيان معلومات متنوعة تتصل بالمفردات التى تعالجها ، ومنها على سبيل المثال :

١ ـ طريقة هجاء الكلمة .

٢ ـ كيفية نطقها .

٣ ـ نوع الكلمة (اسم ، فعل ، حرف ٠٠ الخ) .

٤ ـ صيغها الاشتقاقية (اسم الفاعل ، اسم المفعول ، اسم الزمان .. الخ) .

٥ ـ ما يتصل بها من سوابق أو لواحق أو أحشاء ، أو ما يحدث فيها

---

(١) القاسمى (د. على) علم اللغة وصناعة المعجم ص ٩ .

من تغيير للتعبير عن معان صرفية كالإفراد والتثنية والجمع ، والتأنيث والتذكير والتعريف والتنكير ٠٠ الخ .

٦ ـ قد تعنى بعض المعاجم ببيان المعنى الأصلى للكلمة ثم تتناول التغيرات التى حدثت عبر مراحل زمنية محددة (المعاجم التاريخية) .

٧ ـ قد تشير بعض المعاجم الى المعانى المعاصرة (المعجم الوسيط) .

٨ ـ قد تشير بعض المعاجم الى الألفاظ المقترضة من لغات أخرى .

٩ ـ قد تشير بعض المعاجم الى استعمال اللفظ في مكان معين (لهجة محلية) أو عند طبقة معينة (لهجة اجتماعية) أو في موضوع معين في موقف معين (أسلوب) .

ولعله قد اتضح الآن أن بيان هذه المعلومات يعتمد اعتمادا كبيرا على علوم اللغة المختلفة (علم الأصوات ، وعلم الصرف وعلم النحو وعلم المعجم أو المفردات) .

وللمعاجم ثنائية اللغة منهج خاص في شكلها ومضمونها ، ونحيل القارىء الى كتاب الدكتور القاسمى ففيه غناء وبخاصة ما يتصل بالمعايير التى ينبغى مراعاتها عند تصنيف أو تقييم هذا النوع من المعاجم(١) .

أمراض الكلام وعلاجها

هذا المجال من المجالات المشتركة التى يعمل فيها الطبيب والنفسانى وعالم اللغة ، والعمل في هذا المجال يدور في اطارين : يعرف أولهما : بـ Speech pathology أى دراسة العيوب أو الاضطرابات التى**تعوق فعالية الاتصالات** التى يقوم بها المتكلم ، وهذه الدراسة تهدف الى اكتشاف أسبابها عضوية أو نفسية أو بيئية . ويعرف ثانيهما بـ Speech Therapy أى : علاج يهدف الى

---

(١) القاسمى (د. على) علم اللغة وصناعة المعجم ص ٢٠٧ ـ ٢١٢ .

التخلص من الاضطرابات الكلامية أو اللغوية أو التخلف من آثارهما(١) .

وقد جرت عادة الباحثين على أن يقسموا اضطرابات الكلام وعيوب النطق الى قسمين :

١ ـ عيوب ترجع العلة فيها الى أسباب أو عوامل عضوية .

٢ ـ عيوب ترجع فيها الى أسباب وظيفية .

وترجع عيوب القسم الأول الى أحد العوامل الآيتة : عيب في الجهاز الكلامى أو السمعى كالتلف أو التشوه أو سوء التركيب ، أو النقص في القدرة الفطرية العامة (الذكاء) يؤدى الى خلل في تأدية هذا العضو أو تلك القدرة فيحدث لذلك عيب في النطق أو احتباس في الكلام أو نقص في القدرة التعبيرية .

أما المصاب بعلة من علل القسم الثانى فلا يشكو من أى نقص عضوى في الجهاز الكلامى أو السمعى ، وكل ما هنالك أن قدرة الفرد على التعبير متأثرة بعوامل غير عضوية تسبب له اضطرابات عدة تختلف من حيث نوعها وشدتها وفقا لمدى قوة العوامل وتأثيرها في الفرد(٢) .

ومن ملاحظات العاملين في الحقل الأول أن بعض أعضاء النطق أو السمع قد تصاب بتلف يعطلها عن أداء وظيفتها في انتاج الكلام أو في استقباله أو يجعل أداءها مضطربا ، فقد يولد بعض الأطفال صما بكما ، وقد يولد بعضهم بعيوب خلقية أخرى تتصل بأعضاء النطق أو السمع (كالحلق المشقوق ـ قصر اللسان ـ انسداد في الأذن الداخلية أو الوسطى ٠٠ الخ) وقد يتعرضون لاصابات في حياتهم ٠٠ مثل هؤلاء يحتاجون الى علاج خاص يمكنهم من أن يكونوا أعضاء نافعين ، وأن تكون لديهم وسيلة أو أكثر تساعدهم على ذلك . وقد بذلت محاولات عديدة ناجحة لتعليم الصم والبكم قراءة الشفاة مثلا لفهم ما يقال

---

(١) Hartman, and stork, Dictionary of Language and Linguistics

(٢) فهمى (د. مصطفى) أمراض الكلام ص ٣٣ .

لهم أو استخدام الجسم أو اليدين بأشكال خاصة ، كما تم التوصل الى طرق خاصة لتعليمهم القراءة أو الكتابة .

وفي هذا المجال نكتفى بالاشارة الى ما اقترحه الدكتور مصطفى فهمى من توصيات بكيفية العناية بضعاف السمع ، والقواعد التى ينبغى مراعاتها عند تعليم الطفل قراءة الشفاة ، وقد وضع لذلك منهجا تعليميا ، كما أنه أشار الى وسائل أخرى عرف بها وبين كيفية استخدامها كالقراءة باليد واستخدام الأجهزة(١) .

وقد أثبتت البحوث الحديثة أن الدماغ هو مركز اللغة ، وأن المنطقة اليسرى منه هى المسئولة عنه ، ومن أهم البحوث التى تجرى في هذا المجال ، ويقوم بها أطباء الأعصاب والدماغ مع علماء اللغة البحوث التى تحاول التعرف على طبيعة اللغة وأنظمتها المختلفة من ناحية ، وتحاول التعرف على أدق مناطق الدماغ التى يمكن أن تكون مسئولة عن مهارات لغوية محددة .

ومن نتائج هذه البحوث أن (الحبسة aphasia) هى نتيجة تلف معين في منطقة محددة من مركز الكلام في المخ ، ويصنف العلماء الحبسة الى ثلاثة أنـــواع :

١ ـ حبسات الاستقبال وتتعلق باستقبال الكلام ، ومن أشكالها الصمم اللفظى ، وهو تعذر فهم الكلام المسموع ، والعمى اللفظى وهو تعذر فهم الكلام المكتوب .

٢ ـ حبسات التعبير ، وتتعلق بالقدرة على نقل الأفكار وتوصيلها الى الغير ، ومن أشكالها الخرس عن التعبير نطقا دون شلل في اللسان أو الأعضاء المصوتة مع بقاء القدرة على الفهم ، ومنها حبسة الكتابة وهى العجز عن التعبير كتابة بدون شلل في عضلات اليد والذراع .

---

(١) فهمى (د. مصطفى) أمراض الكلام ص ١١٧ ـ ١٤٥ .

٣ - الحبسات الناتجة عن فقدان الذاكرة حيث ينسى المريض أسماء الأشياء والأمور البسيطة التى يتعامل بها الناس في الحياة اليومية دون أن يفقد القدرة على الفهم والتعبير(١) .

وقد أوجز الدكتور نايف خرما نتائج البحوث التى أجريت على مرضى الحبسة فيما يأتى :

١ - أن اصابة بعض ألياف الدماغ أو اتلافها لا تسبب في خسارة أجزاء مختارة من اللغة (كأن تختفى مثلا بعض المفردات أو بعض القواعد) .

٢ - أن الاصابة لا يمكن أن تلغى القدرة اللغوية الغاء تاما بينما يبقى المصاب في نفس الوقت طبيعيا من جميع الوجوه الأخرى .

٣ - أن ما يميز جميع اصابات الحبسة أنها لا تقضى على اللغة قضاء تاما بل تسبب خللا في وظيفتها الطبيعية ، وفي استعمالها مما ينتج عنه اضطراب في التنسيق الداخلى واختلال في الأداء اللغوى(٢) .

لذلك يتجه الأطباء في علاج المصابين بالحبسة الى اكتشاف المهارات اللغوية التى مازال المصاب يحتفظ بها وتنميتها بشكل مناسب .

وهناك دراسات أخرى تناولت عيوب النطق الناتجة عن عيوب خلقية صغيرة ، أو ناتجة عن عدم توفر البيئة المناسبة لاكتساب اللغة أو عن عوامل نفسية ، ومن أهم هذه الدراسات ما يتصل بأنواع (اللثغة) كالفأفأة والتأتأة ونطق الراء لاما أو ياء أو غينا .. الخ .

وهناك دراسات أخرى تتصل بعيوب الكلام الناتجة عن عوامل نفسية لا جسمية ، ومن هذه الدراسات ما عنى بالكشف عن العلاقة بين اللغة والمصابين بالجنون أو بالفصام ، فقد تبين مثلا أن المجنون يتميز عن المصاب بالتخلف

---

(١) بن عيسى (د. حنفى) محاضرات في علم النفس اللغوى ص ٣٠٢ .
(٢) خرما (د. نايف) أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة ص ٢٥ ، ٢٦

العقلى بأنه لا يزال لديه بقايا مما حصله لغويا فيحتفظ بجملة من المفردات والذكريات والمهارات اللغوية ، ولا شك أن دراسة هذه البقايا وتحليلها مهم جدا من أجل تشخيص المرض . أما المصاب بالفصام فقد لوحظ أنه يحاول أن ينشىء لغة جديدة تقوم على الحذف أحيانا وعلى الابتداع أحيانا ، أما قواعد النحو فيضرب بها عرض الحائط ، ويستعمل الأسلوب المختصر المجحف بالمعنى ، ويرصف الكلمات رصفا دون رابط ، ولا يراعى رتبة الكلمة من حيث التقديم أو التأخير ، وتراه أحيانا يورد النعوت من غير مبرر ٠٠ الى غير ذلك من صور العبث باللغة(١) .

ويمكن للعلوم اللغوية أن تساعد في علاج أمراض الكلام بتقديم مخططات نظرية أو طرق تحليلية أو مادة وصفية عن اللغة بشكل عام ، كما يمكنها أن تقدم معارف عن العلاقة بين النطق والكتابة والتنوع اللغوى ، وتصنيف أصوات الكلام ، والعلاقات النحوية والدلالية ٠٠ وغير ذلك مما يوضح كيف تعمل اللغة . ولا شك أن هـذه المعـارف ضرورية في التشخيص والعلاج ، وفي ذلك يقول (كريستال) : « هناك أنواع كثيرة من الأمراض تتصل بالطريقة التى نتكلم بها أو التى نستقبل بها الكلام أو نفهمه ، وعلى ذلك لابد أن يكون لدينا تصور واضح عن حقيقة العجز اللغوى بالضبط قبل أن نبدأ أى نوع من العلاج ، كما نعرف الى أى مدى قد يؤثر هذا على السلوك الطبيعى في الكلام ، وهل هذا العجز أو هذا الاضطراب يتصل بالأصوات أو بالفونولوجى أو النحو أو له طبيعة دلالية أو هو مزيج من هذه الأشياء جميعا ، لأنه اذا كان يتصل بالناحية النحوية فلابد أن نعرف حينئذ أى جوانب النحو هى التى تأثرت والى أى مدى ؟ ولكى نجيب عن هذه الأسئلة يجب علينا أن نقوم بأمرين :

أولهما : أن نصنف عادات الكلام .

ثانيهما : أن نقيم علاقة بين ذلك ومستوى السلوك العادى في الكلام ، وهو أمر من السهل الحديث عنه لكن من الصعب القيام به ، لأنه لا توجد في الحقيقة

---

(١) بن عيسى (د. حنفى) محاضرات في علم النفس اللغوى ص ٢٩٥.

أى مقاييس لغوية للسلوك العادى في متناول أيدينا ، ومن ثم فان المتخصصين يعتمدون على تجاربهم في هذا الشأن ، وهى تختلف بطبيعة الحال بمعنى أن المعالجين يتجهون في علاجهم الى أكثر الانحرافات ظهورا في كلام الفرد ، وهم في خطر داهم من تجاهل انحرافات أخرى أساسية ، ولكنها أقل ظهورا(١) .

تعليم اللغـات الأجنبية

لقد عظمت العناية بتعليم اللغات الأجنبية منذ مطالع هذا القرن بفعل التطور الكبير في أدوات الاتصال بين الدول والشعوب ، وبفعل ظروف سياسية واقتصـادية أتاحت لكل دول العـالم كبيرها وصغيرها أن يكون لها دور في مستقبله وتأثير في حركته ، بل يشير (كريستال) الى عامل جديد له أهمية هو أن تعليم اللغات الأجنبية أصبح هذه الأيام صناعة أساسية في معظم الأقطار ، لأن عددا كبيرا جدا من الناس يتزايد باستمرار يسافر الى خارج بلده للعمل أو للمتعة ، وهؤلاء في حاجة ماسة الى تعلم لغات هذه البلاد ، ولهذا أنشئت معاهد ، ووضعت برامج وتطورت آلات ومعامل تسعى كلها لتيسير تعليم هذه اللغات وتحقيق الهدف من تعليمها في أقصر وقت(٢) .

علاقة علم اللغة بتعليم اللغات

ثمة ملاحظات ضرورية ينبغى ابداؤها قبل الخوض في تحديد هذه العلاقة :

أولا : علم اللغة له أهداف مختلفة عن أهداف تعليم اللغة ، علم اللغـة يدرس ـ بطرق مختلفة ـ ملكة الفرد اللغوية ، ويعمل على تطوير نظريات تفسر السلوك اللغوى ، وعلى اعداد أفضل الوسائل لوصف اللغات ، ويجعل الوصف اللغوى الأدق والأشمل عملا ميسورا . ولا شيء من هذه الأعمال يتوجه الى البحث في أكفء المخططات أو أفضل الوسائل لتعليم اللغات .

ثانيا : تعليم اللغة عمل تربوى له اتصال بعلوم كثيرة تساعده في أداء

---

(١) كريستال : التعريف بعلم اللغة ترجمة (د. حلمى خليل) ص ١٨٣ .

(٢) Crystal, Linguistics, p. p. 19, 20

مهمته ، وليس علم اللغة هو المصدر الوحيد الذى يزوده بالمادة أو البراهين أو بالطرق ، وما يبدو جيدا في علم اللغة قد يكون رديئا في علم النفس .. الخ ، ولهذا كان الرأى الحاسم عند اتخاذ قرارات تتصل بتعليم اللغة هو رأى المعلم الذى عليه أن يضع كل البراهين في الاعتبار ، وثمة طرق أو وسائل تعليمية هامة (مثل ما هو معروف بتكنيك الفصل الدراسى) ليس للاعتبارات اللغوية وزن كبير فيها .

ثالثا : لا ينبغى أن يؤخذ القول بوجود تأثير لعلم اللغة في تعليم اللغات على أنه يعنى أن هذا هو ما ينبغى أن يكون ، اذ من المحتمل أن نتبين أن استخدام بعض النظريات أو المخططات اللغوية في تعليم اللغات قد أساء الى علم اللغة ، ان الفرق الحاد الذى وضعتـه بعض المدارس اللغوية بين الشـكل والمعنى وبخاصة فيما بعد بلومفيلد ـ قد أدى الى اهمال جانب المعنى في التعليم ، وقد ظهرت منذ سنوات ردود فعل حادة في علم اللغة ذاته لهذا الاتجاه ، فقد أعلن أنصار القواعد التوليدية ضرورة هذا الجانب في تعليم اللغات ، ومن ثم ينبغى ـ كما يقول (ويلكنز) : أن يعاد النظر في موضـوع العلاقة بين علم اللغـة وتعليم اللغة(١) .

رابعا : من الواضح أن عالم اللغة التطبيقى يستخدم نظرية في اللغة أو يعتمد على وصف معين لها ، فاذا ما استخدم نظرية مثلا فسوف يتوقف تقدمه في عمله على نوع النظرية المستخدمة ، فاذا ما كانت النظرية معتمدة على وحدات دلالية مثلا فان النتائج سوف تكون مختلفة عما يكون عليه الحال ، اذا كانت النظرية تهمل أو تتجاهل مثل هذه الوحدات .

ويشير (ماكى) الى وجود عدد كبير من الطرق على أساسها تختلف نظرية عن نظرية أخرى ، والى وجود عدد كبير من النظريات اللغوية المختلفة ، بل ان عددا منها يمكن أن يعد نظريات متعارضة ، بعض هذه النظريات أعلنته مدارس لغوية مثل مدرسة سوسير ، أو مدرسة براغ أو مدرسة بلومفيلد أو

---

(١) Wilkins, Linguistics in Langage Teaching, p. p. 216, 217

مدرسة فيرث ٠٠ الخ . وعندما ندرس هذا العدد الكبير من النظريات التى صاغتها المدارس المختلفة أو الأفراد نلاحظ أن قليلا منها استخدم بالفعل في المجال التطبيقى ، كما أن النظريات التى جرى استخدامها بالفعل ليست بالضرورة أكثرها قابلية للتطبيق ، ومن جانب آخر نقرر أن أية نظرية لغوية لم يجر تطبيقها حتى الآن في مجال تعليم اللغة لا يعنى أنها لا يمكن أن تستخدم .

والأعمال الوصفية هى الأخرى تختلف في غرضها ومداها وفي طريقة عرضها ، بعض هذه الأعمال يهدف الى أن يكون مركزا وبعضها يهدف الى أن يكون شاملا ، بعضها يدرس اللغة بتحليلها وبعضها يدرسها بتركيبها ، بعضها موضوع وكأن اللغة الموصوفة غير معروفة للغوى ، وبعضها موضوع على اعتبار أنها معروفة بالفعل للقارىء ، بعضها يقدم في مستويين (النحو والفونولوجى) وبعضها يقدم في مستويات أكثر بلغت أربعة عشر مستوى ، وان كان العمل الوصفى المعتمد على مستويات ثلاثة أصبح أكثر انتشارا ، بعض الأعمال يعتمد على اللغة المنطوقة ، بعضها يغطى كل المناطق التى تستخدم فيها اللغة ، وبعضها مقصور على مدينة واحدة أو منطقة واحدة ، بعضها مؤلف على أساس كلام شخص واحد عبر فترة زمنية قصيرة جدا ، وبعضها مؤلف على أساس كتابات عدد كبير من المؤلفين عبر عدة قرون .

وهكذا نتبين ـ كما يقرر (ماكى) : أن مشكلة معلم اللغة ليست في أن يستخدم علم اللغة أو لا يستخدمه بل هى ماذا يستخدم من نظرياته أو من أعماله الوصفية(١) .

نعود بعد هذه الملاحظات الأساسية الى موضوع علاقة علم اللغة بتعليم اللغة .

يقول (كريستال) في تحديد هذه العلاقة : صلة علم اللغة بهذا الميدان أوضح من أن ندل عليها ، اذ يجب أن يكون من البدهيات أن الانسان لا يستطيع أن يعلم أية لغة دون أن يعرف شيئا ما عن اللغة . ثم يمضى في بيان ما ينبغى

---

(١) See' Macey, Applied Linguistics, p. 248

معرفته قائلا : ان التدريب المناسب في هذا المقام يعنى أن يكون الانسان على معرفة بالحقائق الأساسية حول لغة ما من خلال اتصال بعضها ببعض وفي اطار نظرية لغوية معينة ، وهذا معناه أن يكون على صلة بالأبحاث المعاصرة التى تتصل بواحدة من هذه الحقائق ، ويعنى كذلك أن يكون قادرا على اختيار هذه الحقائق طبقا لبرنامج محدد ، كما يعنى ذلك أيضا أن يكون قادرا على جذب انتباه الدارس للفروق التى يعرفها فعلا ، واللغة التى يحاول أن يتعلمها »(١) .

وليس الأمر مقصورا على الجانب المعرفي ، بل ان علم اللغة يقدم لنا مادة وصفية يمكن استخدامها في التعليم ، يقول الدكتور محمد على الخولى : يقدم لنا علم الأصوات النطقى وصفا جيدا لمخارج أصوات اللغة المنشودة أى اللغة التى نريد تعليمها كلغة أجنبية ، كما يقدم لنا هذا العلم وصفا لمخارج أصوات اللغة الأم ، وبذلك يمكن معرفة مواضع التشابه والاختلاف بين النظام الصوتى للغة المنشودة ونظيره في اللغة الأم ٠٠ ، (٢) وكذلك الحال بالنسبة لعلم الصرف والنحو .

بيد أن (ماكى) يرى رأيا آخر في أمر هذه العلاقة حين يقرر أن عمل اللغوى يقتصر على وضع مناهج للتحليل اللغوى ، أما اذا ادعى أن هذا المنهج أو ذاك هو أفضل طريق الى تعلم اللغة فانه يتجاوز بهذا مجال عمله ، لأن عمله ليس التعليم بل اللغة التى هى موضوع علم اللغة ٠٠٠ وعلى الرغم من أن الأعمال الوصفية التى يقدمها اللغويون في لغة من اللغات ليست متطابقة فانه من المسلم به أن اللغوى هو الشخص القادر على تأليف قواعد هذه اللغة أو وضع معجم لها ، وهذا يؤهله ـ عند بعض الناس ـ لأن يضع سياسة تعليم اللغة ويحضر نصوصها ، وبدخول علم اللغة التطبيقى في ميدان تعليم اللغات افترض أنه اذا ما استطاع شخص أن يصف لغة ما وصفا دقيقا فانه وحده الذى يكون قادرا على تعليم هذه اللغة .

---

(١) كريستال : التعريف بعلم اللغة ص ١٧٤ ، ١٧٥ .
(٢) أساليب تدريس اللغة العربية ص ١٨ ، ١٩ .

ويرى (ماكى) أن هذه المزاعم قائمة على غير أساس سليم ، فثمة معلمون بارزون ليس لديهم معرفة بعلم اللغة ، وقد يكون من الواضح أن مناهج عالم اللغة كمعلم ليست بالضرورة أكثر كفاءة ، والموقف الحالى لعلم اللغة التطبيقى في ميدان تعليم اللغة - وهو موقف ليس طيبا - راجع الى أن بعض اللغويين معنيون بايجاد مجالات جديدة للتطبيق أكثر من عنايتهم بحل مشكلات تتصل بتعليم اللغة ، وبعض النتائج السيئة راجعة الى رغبة اللغويين في تطبيق منهج شكلى وصفى محدد في تعليم اللغة دون التحقق من أنه صالح للتطبيق حتى في ميدان التحليل اللغوى(١) .

لقد تبين لنا من الصفحات السابقة أن الباحثين مختلفون في طبيعة العلاقة بين علم اللغة وتعليمها ، ويبدو لنا من المفيد أن نتجاوز هذه النقطة الآن ونبحث عن ميادين أو مجالات تكشف عما يمكن أن يقدمه علم اللغة من خدمات .

(أ) التحليل التقابلى

لا شك في أن الذين يقومون بتعليم اللغات لديهم معرفة ما ببعض أوجه الشبه أو الخلاف بين لغة المتعلمين الأم واللغة الأجنبية التى يعلمونهم اياها ، ولديهم ادراك بالتأثير الواسع الذى تباشره اللغة الأولى على الثانية ، ولديهم أيضا وسائل للانتفاع من هذا التأثير سلبا وايجابا ، بيد أن هذه الأمور كلها تختلف من معلم الى معلم ، والجديد في الموضوع أن يدرس دراسة علمية ، وأن تبذل الجهود لاستخدام هذه الوقائع استخداما منظما ، وفي العادة يشار الى هذا العمل بـ (التحليل التقابلى) (Contrastive Analysis) .

هذا العمل العلمى المنظم تمثل في كتاب Linguistic across culture الذى كتبه (روبرت لادو) عام ١٩٥٧ ، وقد عرض المؤلف فيه أمثلة كثيرة جدا من الأخطاء اللغوية الناتجة عن تأثير لغة المتعلم الأولى في اللغة الثانية ، وتبدو أهمية التحليل التقابلى في أن الأخطاء أو الصعوبات التى تعترضنا عند

---

(١) Mackey, Applieed Linguistics, p. 250

تعلمنا أو استخدامنا لغة أجنبية ناتجة عن لغتنا الأولى ، وحيثما يختلف بناء اللغة الأجنبية عن بناء اللغة الأم تنشأ صعوبة في التعلم وأخطاء في الاستعمال ، ان تعلم لغة أجنبية هو بالضرورة أن نتغلب على هذه الصعوبات ، وحيثما تتماثل الأبنية في اللغتين لا نتوقع أن تنشأ صعوبة ، ومن ثم لن يكون التعليم ضروريا . ولكى نستفيد من هذه الوقائع علينا أن نوجه التعليم الى عناصر الخلاف في بناء اللغتين ، وعلى الجملة كلما عظمت الفروق بين اللغتين عظمت الصعوبات ، وينبنى على هذا أن المصاعب التى يواجهها متعلمو اللغة الانجليزية مثلا سوف تختلف وفقا للغاتهم الأولى التى يستخدمونها ، ومن ثم ينبغى أن يختلف التعليم ذاته باختلاف اللغات التى يستخدمها هؤلاء المتعلمون ، واذا ما تم التحليل التقابلى بين اللغة الأولى والثانية فسوف نكتشف الفروق بين اللغتين ، ويصبح من المحتمل أن نتنبأ بالصعوبات التى تعترض المتعلمين ، وهذا بدوره يحدد ما ينبغى على المتعلم أن يتعلمهوما على المعلم أن يعلمه اياه ، وهكذا يبدو أن نتائج التحليل التقابلى هى التى تؤسس عناصر تعليم اللغة ومفرداتها واختباراتها وطرق البحث فيها ، ولهذا ينبغى أن تعد كتب مختلفة لكل جماعة تتعلم اللغة ، وبايجاز : وظيفة التحليل التقابلى هى التنبؤ بالأخطاء المحتملة لجماعة معينة تتعلم لغة معينة ، ولهذا يزود المقرر التعليمى بالمادة اللغوية التعليمية المطلوبة(١) .

وعملية النقل أو تأثر المتعلم ببناء لغته الأصلية عند تعلمه لغة أجنبية لها أساس عند علماء النفس في تفسيرهم للطريقة التى يتأثر بها تعليم حاضر بتعليم سابق ، فعندما يواجه الكائن الحى بمهمة تعليمية جديدة يستخدم المعارف أو الخبرات التى امتلكها قبلا في تيسير عملية التعلم ، فعندما نتعلم لغة أجنبية نحاول أن ننقل من لغتنا الأولى ما ييسر عملية التعليم ، وربما يكون للنقل ما يسوغه حين تكون بنية اللغتين متشابهة ـ وفي هذه الحالة نحصل على (نقل ايجابى)أو (سهولة) ، وربما لا يكون له ما يسوغه حين تكون بنية اللغتين مختلفة ـ وفي هذه الحالة نحصل على (نقل سلبى) أو (عقبة) أو

---

(١) Wilkins, Linguistics in Language Teaching, p. p. 197 , 198

(تداخل)(١) .

غير أن التحليل التقابلى بالمفهوم الذى حدده (لادو) آنفا قد تعرض للنقد والتعديل ، ونلخص هنا بعض الملاحظات التى أبداها اللغويون حوله :

أولا : يقرر بعض اللغويين أن الأخطاء التى يتوقعها اللغوى ربما لا ترجع كلها الى تدخل لغة الأم ، فالروسى الذى يتعلم الانجليزية يخطىء في استخدام أداة التعريف أو التنكير مع أن لغته لا تتضمن أداة مماثلة لهما ، والخطأ المتوقع اذا هو أن يحذف الأداة ، ومع ذلك فان مشاكله لن تحل بعدم استخدامها ، لأن عليه أن يتمكن من استخدام هذه الأداة وفق قواعد الانجليزية ، وسوف يقع في أخطاء ترجع في الحقيقة الى أنه لم يتمكن من هذه القواعد .

ويرى (ماكى) أن الزعم بأن كل أخطاء متعلم اللغة راجعة الى بنية لغته قول زائف ، ويقدم بعض الأسباب التى تفسر بعض هذه الأخطاء ، ومن ذلك مثلا أن المتعلم قد يوسع من دائرة النموذج اللغوى فيشمل حالات لا ينطبق عليها فيقول مثلا : I Said him so قياسا على I told him so (٢) .

ثانيا : يعترض (ويلكنز) على مفهوم التنبؤ في التحليل التقابلى ، ويرى أنه من التبسيط المخل أن يقال : ان المتخالفات تسبب الخطأ بينما المتشابهات لا تسببه ، ومن سوء الحظ أن هذا يعنى أن التنبؤات الدقيقة عسيرة جدا ، اذ ليس لدينا وسيلة مؤكدة تبين كيف يكون رد فعل المتعلم لهذه العوامل المختلفة ، والتنبؤ هنا معناه توقع من خلال مقابلة بين بنية لغتين دون الرجوع الى شواهد في السلوك الفعلى للمتعلمين ، ولا شك أن التنبؤ بهذا المعنى يشكل عقبة كبيرة أمام البحث الدقيق ، ومن الأمثلة التى توضح ذلك أن الفرنسى

الذى يتعلم الانجليزية يجد صعوبة في نطق الصوتين الانجليزيين ð و θ

اذ لا وجود لهما في نظام الفرنسية الصوتى ، ومع ذلك لا يمكن التنبؤ بما سيقوم

---

(١) Wilkins, Linguistics, in Language Teaching, p. 199

(٢) Mackey, Applied Linguistics, p. 250

به المتعلم الا اذا لاحظنا سلوكه اللغوى بالفعل ، فقد تتحول ð |الى| d |او| t | وقد تتحول θ |الى| s |او| z | (١) .

ولهذا ينبغى علينا أن نقوم بفحص الأخطاء اللغوية التى تقع فيها جماعات مختلفة من المتعلمين بشكل مطرد ، لنقرر بعده أترجع هذه الأخطاء الى تدخل اللغة الأم أم ترجع الى بنية اللغة الأجنبية المتعلمة ؟

ثالثا : ويلاحظ (ماكى) أن معظم الأعمال الوصفية المتيسرة حتى الآن مضللة أكثر منها شكلية وناقصة ، لأنها تعتمد ـ في أفضل حالاتها على المقابلة بين اللغتين وحدة بوحدة وتركيبا بتركيب ... وأنها ما تزال تعالج فقط شكل اللغات غير مصحوبة بالاختلافات المتنوعة في الاستعمال المقامى ، مع أنه من المعروف أن على المتعلم أن يقول شيئا ما في موقف معين في لغته الأم ولكنه يقول شيئا آخر مختلفا تماما في اللغة التى يتعلمها ... ولأننا ليس لدينا أعمال وصفية تقابلية بهذا الشكل فمن المحتمل أن نحصل على أفضل النتائج لو جمعنا وصنفنا الأخطاء التى يقع فيها المتكلمون بالفعل ، وهذا أولى من محاولة التنبؤ بالأخطاء التى نتوقع أن يقع فيها (٢) .

وهذا هو أيضا ما ينتهى اليه (ويلكنز) الذى يقترح أن يقوم التحليل على شواهد وأمثلة فعلية يسهل جمعها في أثناء عملية التعلم ، ان التحليل التقابلى ينبغى أن يتم ليزود اللغوى بتفسير لأخطاء معروفة بالفعل لا على أنه عمل شامل(٣) .

ومما يوضح أهمية التحليل التقابلى في ضوء المواقف المتشابهة في اللغتين لا على أساس التقـابل الحرفي ـ كما لاحظ (ماكى) ـ كلمة بكلمة وتركيبـا بتركيب ، أنه من المألوف أن يكتب انجليزى خطابا الى صديقه يقول موجها التحية الى زوجة صديقه With my kisses to فماذا يكون حالنا لو أردنا

---

(١) Wilkins, Linguistics in Language Teaching, p. 201

(٢) Mackey, Applied Linguistics, p. 251

(٣) Linguistics in Longuage Teaching, p. 223

أن نقدم للعرب الذين يتعلمون الانجليزية ما يرادف هذه العبارة ، لو كنا حرفيين لقلنا : قبلاتى الى وهذه عبارة يرفضها الذوق العربى رفضا قاطعا ، فليس من المألوف أن يوجه عربى التحية الى زوجة صديقه فضلا عن القبلات ، ولو حدث ـ وهو يحدث أحيانا ـ تحفظ في كلامه وراعى الدقة في اختيار ألفاظه والكناية في عبارته ، ربما قال مثلا تحياتى الى حرمكم أو الى أهل بيتكم ٠٠ أو شيئا كهذا .

رابعا : ولعله من المفيد هنا أن نقارن ما يقدمه علم اللغة الحديث بما يقدمه النحو التقليدى في ميدان تعليم اللغات ، وفي ذلك يقول (ويلكنز) : عندما ينظر المعلم في مضمون التعليم المحصل من خلال الأوصاف اللغوية يجد أنها تحمل سمات متشابهة بارزة بالمضمون التعليمى الذى أخذ سلفا من القواعد التقليدية، ثم يقرر أن علم اللغة قد كان له تأثير على مضمون تعليم اللغة أقل من تأثير اللغويين على مناهج التعليم(١) .

ولا يختلف (ماكى) عن الموقف السـابق كثيـرا ، اذ يرى أن معظم القواعد الجديدة المفضلة لغويا ، والتى استخدمت في تعليم اللغة ، من الصعب جدا الاستفادة منها ، وهى أقل كمالا من الأعمال الأقدم منها ، ولهذا يوجب على معلم اللغة ـ الذى يواجه هذه الأيام بمناهج متعددة في التحليل اللغوى وباتجاهات مختلفة في علم اللغة الوصفى ـ أن يعنى بالنتائج ، والوصفات المجربة غالبا ما تكون أفضل من الوصفات غير المجربة ، والى أن تتيسر تحليلات لغوية كاملة ومحددة فان تعليم اللغة سوف يعتمد ـ عند وصف لغة معينة ـ على تلك القواعد النافعة الغزيرة التى تنتمى الى الماضى . وكمال القواعد ـ عند معلم اللغة ـ أكثر أهمية من اتساقها العلمى ، والوضوح أكثر أهمية من الايجاز ، والأمثلة أكثر فائدة من التعاريف ، ولو انتظر معلم اللغة حتى تظهر قواعد أكثر علمية لوضع نفسه في موضع دباغ الجلود الذى يتوقف عن العمل حتى يجد الكيميائيون وصفة تقرر له ما ينبغى له أن يفعله . ان

---

(١) Wilkins, Linguistics in Language Teaching, p. 223

الوصفة ـ اذا ما اكتشفت ـ ربما تحسن بالفعل عملية الدباغة ، ولكن الى أن تؤلف وتختبر وتحسن لتكون أكثر فعالية فالذى ينبغى عمله ـ وهو المعقول ـ أن يستمر في عمله بالطريقة التى تحقق له أفضل النتائج(١) .

وبعد فقد تبين لنا من الملاحظات السابقة أن الأعمال الوصفية التى قدمها علماء اللغة الوصفيون لم تقدم لنا الكثير أو ما يتوقع منها وبخاصة فيما يتصل بمضمون عملية التعليم بالمقارنة بما قدمته الأعمال الوصفية التقليدية ، كما أن التحليل التقابلى بالمفهوم الذى حدده (لادو) وعلى ضوء التنقيحات التى اقترحها (ولكنز) له أهمية كبيرة في ميدان تعليم اللغة على أن يعالج مادة لغوية موجودة بالفعل ، ومن الأفضل أن يقوم به من لديهم خبرات في حقل التعليم . وينبغى أن يوضع في الاعتبار أن تدخل اللغة الأصلية ليس العقبة الوحيدة في التعليم فثمة عوامل أخرى ينبغى الاهتمام بها قد يرجع بعضها الى بنية اللغة المتعلمة ذاتها ، ولا يغيبن عن البال أن دراسة الأخطاء اللغوية ينبغى أن تتوجه الى الأخطاء التى تقع فيها جماعات من الناس بشكل مطرد ، والا أصبحت الدراسة عقيمة الجدوى اذا ما تعرضت للأخطاء التى يقع فيها أفراد من الناس أو تقع بشكل غير مطرد .

(ب) طرق تدريس اللغات الأجنبية

لقد رأينا أن (ماكى) يقرر أن عمل اللغوى ينبغى أن يقتصر على وضع مناهج للتحليل اللغوى ، وأنه لا ينبغى أن يتدخل في اقتراح طريقة معينة من طرائق التدريس . بيد أن الباحثين في ميدان العلوم التربوية قد يستعينون بالحقائق التى تنتهى اليها علوم اللغة في اقتراح طرق للتدريس أو في تنقيح طرق معروفة أو في ترجيح طريقة على طريقة . وهذا ما نتبينه مما يأتى :

يقول الدكتور محمد على الخولى : هناك طرق متنوعة لتدريس اللغات الأجنبية ، ولقد جرى حول كل منها جدال طويل ، كما انتصر لكل طريقة بعض

---

(١) Mackey, Applied Linhuistics, p. 252

المختصين فأبرزوا مزايا طريقة وعيوب الطرق الأخرى ، ومن أهم هذه الطرق أربع وهى : طريقة القواعد والترجمة ، والطريقة المباشرة ، والطريقة السمعية الشفوية ، والطريقة الانتقائية(١) .

وسوف نقتصر هنا على عقد موازنة بين الطريقة الأولى : طريقة القواعد والترجمة ، والطريقة الثانية : الطريقة المباشرة لنبين الأسس اللغوية التى استخلصها أصحاب الطريقة الثانية .

« من أهم ملامح طريقة القواعد والترجمة أو الطريقة التقليدية أنها تهتم بمهارات القراءة والكتابة والترجمة ، ولا تعطى الاهتمام اللازم لمهارة الكلام ، وأنها تستخدم لغة المتعلم كوسيلة رئيسية لتعليم اللغة المنشودة ، وبعبارة أخرى تستخدم هذه الطريقة الترجمة كأسلوب رئيسى في التدريس ، وأنها تهتم بالأحكام النحوية أى التعميمات كوسيلة لتعليم اللغة الأجنبية وضبط صحتها ، وكثيرا ما يلجأ المعلم الذى يستخدم هذه الطريقة الى التحليل النحوى لجمل اللغة المنشودة ، ويطلب من طلابه القيام بهذا التحليل .

أما الطريقة المباشرة فتعطى الأولوية لمهارة الكلام على أساس أن اللغة هى الكلام بشكل مباشر ، وتتجنب استخدام الترجمة في تعليم اللغة الأجنبية بل الاقتران المباشر بين الكلمة ومدلولها وبين الجملة والموقف الذى تستخدم فيه ، تعدها شديدة الضرر ، ومن ثم فلا مكان للغة الأم في التعليم ، وتستخدم ولهذا سميت الطريقة المباشرة ، ولا تستخدم الأحكام النحوية ، لأنها لا تفيد في اكتساب المهارة اللغوية المطلوبة(٢) .

وتأثير المدرسة الوصفية البنيوية واضح في بعض الملامح التى تميز الطريقة المباشرة عن طريقة القواعد والترجمة ، وبخاصة ما يتصل باعطاء الأولوية لمهارة الكلام والربط بين الجمل والمواقف ، ومن المعروف أن اللغة المنطوقة هى

---

(١) الخولى (د. محمد على) أساليب تدريس اللغة العربية ص ٢١ ، ٢٢ .

(٢) الخولى (د. محمد على) أساليب تدريس اللغة العربية ص ٢١ ، ٢٢ .

الأساس في الدراسة الوصفية ، وأن الكتابة بالقياس اليها ثانوية ، وقد انبنى على اقتناع القائمين بتعليم اللغات بهذا المبدأ أن توجهوا الى اختيار نصوص دراسية من لغة الحديث ، كما عنوا بالأمور الآتية :

١ ـ تدريب المتعلمين على اظهار الفروق بين الأصوات المفردة المختلفة .

٢ ـ العناية بالظواهر الصوتية التى لا يمكن للغة المكتوبة أن ترمز اليها كالنبر والتنغيم ، وهى عناصر لها دور كبير في تغيير معانى الكلمات والجمل .

٣ ـ الاهتمام باختيار التراكيب الأكثر شيوعا في لغة الحديث منها في لغة الكتابة ، وهى في الغالب التراكيب الأقل تعقيدا ، والاهتمام كذلك بالمفردات التى لها علاقة بالحياة اليومية .

وفي ذلك يقول (ولكنز) ان المحاولات التى بذلت لوصف التنغيم ووضع قواعد له ستكون معلومات جديدة للمعلم الذى درب تدريبا تقليديا ، كما أن دراسة اللغة في علاقاتها الاجتماعية تطور جديد الى حد ما يبشر بتوسيع معارفنا الوصفية(١) .

وفي النهاية نضع أمام القارىء أهم النتائج التى استخلصها القائمون بتعليم اللغات من علوم اللغة : علم اللغة الاجتماعى وعلم اللغة الأنثروبولوجى. يوصى القائمون بأن يتعلم التلاميذ اللغة الأجنبية في نمطها النموذجى أو ما يطلق عليه اللغة المعيارية ، وهى تلك اللغة التى يستخدمها المثقفون الذين ينتمون الى الاقليم المعتمد ، ليحظوا باحترام أبناء اللغة حين يتحدثون اليهم ، ولا شك أن علم اللغة الاجتماعى أو علم اللهجات يمكنه أن يقدم الكثير في هذا المجال .

كماينبه هؤلاء أيضا الى أهمية التحليل التقابلى للثقافات فينبغى التأكيد على الخصائص المتشابهة بين حضارة الطلاب والحضارة التى تنتمى اليها

---

(١) Linguistics in Language Teaching, p. 252

اللغة الأجنبية التى يدرسونها ، والفروق الحضارية يمكن أن تفسر في ضوء الظروف الجغرافية والتاريخية التى أوجدتها .. وبهذا أصبح من الضرورى أن يكون مدرس اللغة الأجنبية ملما بحضارة الطلاب وحضارة الجماعة التى يدرس لغتها ليستطيع التنبؤ بالأوجـــه الحضارية الأجنبية التى تسبب لدى الطلاب ردود فعل عنيفة ليتفاداها أو يخفف منها .. ولا شك أن علم اللغـة الأنثروبولوجى يمكن أن يقدم الكثير في هذا المجال(١) .

(حـ) مؤهلات معلم اللغة

يقول (ماكى) ان عمل معلم اللغة أن يعرف اللغة الأجنبية التى يعلمها ، وأن يعرف كيف يعلمها ، وأن يعرف شيئا عنها ، وفيما يتصل بالجانب الآخير يتوقع أن يكون لعلم اللغة دور مفيد(٢) .

وقد وضعت جمعية اللغة الحديثة في أمريكا ، وهى أكبر جمعية مهنية متخصصة في تعليم اللغات الأجنبية قائمة بالمهارات اللغوية التى يجب أن تتوفر لدى معلم اللغـة ليتمكن من أداء مهمتـه ، وهى تتنـاول القدرات الآتيـة : الاستيعاب الشفوى والتكلم والقراءة والكتابة والتحليل اللغوى والحضارة والاعداد المهنى .

ويعنينا هنا القدرات الخاصة بالتحليل اللغوى :

الحد الأدنى : معرفة التكوين الصوتى والنحوى للغة الأجنبية مع معرفة الفروق الأساسية بينها وبين لغة الطلاب .

جيد : معرفة أساسية للتطور التاريخى للغة الأجنبية وخصائصها الحالية ، وادراك الفروق الموجودة بين اللغة المحكية واللغة المكتوبة .

ممتاز : القدرة على تطبيق معرفتـه في علم اللغـة الوصفى والمقـــارن

---

(١) أنظر القاسمى (د. محمد على) اتجاهات حديثة في تعليم اللغة العربية للناطقين باللغات الأخرى ص ٨٦ ـ ٨٨ .

(٢) Mackey, Applied Linguistics, p. 251

والتاريخى وفي مواقف تعليم اللغة الأجنبية(١) .

وفي مجال التحليل اللغوى يقرر (ماكى) أن القدرة على تحليل لغة معينة ليست عملا على جانب كبير من الأهمية بالنسبة الى معلم اللغة ، ومع ذلك فان بعض التدريب العملى قد يجعله قادرا على أن يحدد - بدقة أعظم -عناصر التماثل والتخالف في اللغات التى يعالجها ، انه يساعده كذلك على فهم وتقييم وربما استخدام بعض الأعمال الوصفية التى يعلمها ، واذا لم يكن التدريب متميزا أو نظريا فربما يحول بينه وأن يكون منتميا الى مدرسة فكرية واحدة ، ويشجعه على أن يتجاوز العوائق الاصطلاحية الكبيرة التى تعوق أى تفاهم مشترك في علم اللغـة(٢) .

ولعله قد اتضح الآن أن القائمين بتعليم اللغات وعلماء اللغة متفقون على أهمية علم اللغة بفروعه المختلفة في اعداد معلم اللغة وفي رفع مستوى أدائه ، وان كان (ماكى) يركز على الجانب العملى في الاعداد ، لأن الجانب النظرى ربما لا يعنيه أو لا يفيده كثيرا ، لأنه من شأن اللغوى ومن عمله ، وقد سبق الاستشهاد بما قاله (كريستال) عن التدريب المناسب لمعلم اللغة في بداية هذا الحديث .

تعليم اللغـة القوميـة

علم اللغة - كما يقول (كريستال) لم يخط بعد خطوات واسعة في هذا المجال ، ويبدو أن هذا يرجع الى أن قيام علم اللغة بدور فعال في تعليم اللغـة القومية موضع جدل بين علماء اللغة والقائمين بالتعليم لم يستقر بعد الى قرار ٠٠ ومـع ذلك يقترح طريقتين متكاملتين لتقديم علم اللغـة في المدارس احداهما : أن يقدم على أنه عنصر اضافي في منهج الدراسة ، والهدف من ذلك توجيه الاهتمام بتركيب اللغة وأهميتها ، ثانيهما : أن يقدم على أنه أساس

---

(١) القاسمى (د. على) اتجاهات حديثة ٠٠ ص ٩٣ .

(٢) Mackey, Applied Linguistics, p. 253

يقوم عليـه برنامج متصل بدراسة لغة معينة وهو برنامج تثقيفى في طبيعة اللغة وقد يكون له دور جانبى في تحسين الأداء اللغوى(١) .

وعلم اللغة مازال حتى اليوم يتعثر في طريقه الى الجامعات العربية بله أن يكون مقررا في المدارس الثانوية أو في دورات التدريب لاعداد المعلمين ، فليس مقررا بعد في بعض الكليات ، وهو في بعضها الآخر يساء فهمه ويختلط ميدانه بما يطلق عليه فقه اللغة .

وثمة مجالات متنوعة يمكن لعلم اللغة أن يسهم فيها بدور فعال ، ونكتفى هنا بالاشارة الى بعضها ، مع العلم بأن العمل فيها ـ يقول (كريستال) ـ في بدايته ويسير ببطء شديد .

ـ تحسين الأداء اللغوى للأفراد العاديين فيما يتصل بالأنماط اللغوية الخاصة بمجال محدد مثل الأشكال اللغوية الخاصة بالقانون ، فكثير من هذه الأشكال غير معروف لدى هؤلاء ، أو لديهم أفكار غامضة عنه ، ونشير الى بعض المفردات أو العبـارات التى توضح ذلك : دعوى قضائية ـ تأجيـل ـ استئناف ـ نقض ـ رد القاضى ـ بطلان الاجراءات ـ الحبس ـ السجن .. الخ.

ـ اعداد المتخرجين حديثا اعدادا لغويا يساعدهم في أداء عملهم كأعمال السكرتارية مثلا .

ـ اقتراح طرق أو وسائل لتحسين القراءة أو الكتابة ، أو الكتابة السريعة أو تلخيص التقارير أو الاختزال .. الخ .

ـ اعداد العاملين في مجالات لها اتصال باللغة وبخاصة في مجال الاعلام والخطابة والسياسة وغيرها .

ـ اعداد العاملين في مجال البحث العلمى وتدريبهم على الكتابة بالأسلوب

---

(١) كريستال : التعريف بعلم اللغة ترجمة د. حلمى خليل ص ١٧٨ ، ١٧٩.

العلمى .

- دراسة الأساليب المختلفة وابتداع طرق لتحديدها والانتفاع بها(١) .

وفي اللغة العربية مجالات واسعة يمكن لعلم اللغة أن يسهم فيها بدور كبير وبخاصة فيما يتصل بالتقريب بين اللهجات المحلية المنتشرة في العالم العربى واللغة الفصحى المشتركة .

وقد اجتمعت الأمة العربية على توحيد كلمتها في المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية وأن تربط بين شعوبها بروابط متينة لتحقيق الآمال المشتركة .

وليست تتم الوحدة السياسية وتستقيم النظم الاجتماعية في شعب من الشعوب الا على أساس الوحدة اللغوية التى تصبح للشعب بمثابة رباط سحرى يجذب أفراده بعضهم الى بعض ويوثق الصلة بينهم فيفكرون في عقل واحد ، ويشتركون في مشاعر وأحاسيس موحدة ، ويتعاونون على ما فيه خيرهم جميعا وما يكفل لهم الأمن والاستقرار . ولا تكون تلك الوحدة اللغوية الا في لغة مشتركة للشعب تنتظم الناس كافة ويتطلع كل منهم الى اتقانها ، والسيطرة عليها نطقا وأداء ، كما هو الشأن في بعض الشعوب الحديثة الناهضة التى لكل منها لغة مشتركة تسود فيها جنبا الى جنب مع ما قد يكون لها من لهجات ، ولكنها تسمو على تلك اللهجات فلا تشوبها صبغة منها بل هى التى اذا تكلم بها المرء لا يكاد السامع يستشف من كلامه شيئا عن بيئته المحلية (٢)

وهذه الدعوة الى اللغة المشتركة لها ما يدعمها من عوامل الوحدة كالثقافة المشتركة والتاريخ المشترك ... الخ ، ولهذا ينبغى أن تبذل الجهود من أجل توحيد اللغة المشتركة ذاتها ، والعمل على التقليل من تأثير اللهجات المحلية عليها ، وتمهيد السبيل الى تقريبها من الناس وتمكينها من ألسنتهم وأقلامهم .

---

(١) Crystal, Linguistics, p. d. 26 - 31

(٢) أنيس (د. ابراهيم) اللغة بين القومية والعالمية ص ٧ .

وهذه غاية نبيلة - ولا شك - ولكن ما السبيل اليها ؟

انها تعتمد على جهود عظيمة يقوم بها رجال التعليم ورجال الاعلام والتوجيه ، بل قل انها تعتمد على كل أجهزة الدولة التى تعمل في مجال الاتصالات .

والآن ما الدور الذى يمكن لعلم اللغة أن يسهم به في هذا المجال ؟

ان علم اللغة ينظر الى اللهجات نظرة لا تختلف عن نظرته الى اللغة المشتركة ، فكل منها نظام من الرموز يؤدى وظيفته في مجال محدد ، واللهجات أشكال لغوية موجودة بالفعل ، ولا سبيل الى انكارها ، ولا ينبغى التقليل من أهميتها ، على أن علم اللغة التطبيقى يؤدى دورا كبيرا في توجيه المعلمين الذين يقومون بتدريس اللغة المشتركة توجيها صحيحا ، لأن الدراسات اللغوية التى عنيت باللهجات المحلية تكشف خصائصها اللغوية التى تجعلها واضحة عند مقارنتها بخواص اللغة المشتركة ، وعندئذ يولى معلم اللغة نقاط الخلاف الأساسية عناية خاصة ، ويحاول - ما استطاع - تخليص تلامذته من الصفات المحلية المميزة ، ويحاول أن يعودهم على استخدام الأشكال اللغوية المشتركة .

ولا شك في أن اطلاع معلم اللغة القومية وفهمه لعلم اللغة يجعل معرفته باللغة أدق وادراكه لأنظمتها الصوتية والصرفية والنحوية أعمق مما يظهر أثره في عمله حين يقوم بالتدريس أو حين يضع منهجا دراسيا .

الترجمة والترجمة الآلية

ان العصر الذى نعيش فيه اليوم هو بحق عصر المعلومات التى تتنوع بشكل كبير وتتطور بشكل سريع . وحاجة الأمم - وبخاصة النامية منها - الى هذه المعارف شديدة ، فهى عماد التقدم الذى تسعى اليه وأساس الرخاء الذى تنشده ، وهذا يقتضى أن يقوم المترجمون بنقل هذه المعارف الى لغاتهم القومية ، بيد أن قيام المترجمين بهذا لم يعد كافيا ، فعدد الكتب والدوريات التى تظهر في اللغات الأوربية مثلا لا يكاد يحصى ، كما أن المترجمين الأكفاء قليلون ،

واعداد المترجم الجيد مكلف ويحتاج الى وقت طويل ، ولهذا اتجهت جهود العلماء الى استخدام الآلة لتنهض بهذا العبء .

ولكى نتبين الدور الذى يمكن لعلم اللغة أن يقوم به في مجال الترجمة الآلية علينا أولا أن نحدد ما يمكن أن تقوم به الآلة للنهوض بهذا العمل ، وما المشكلات التى تعترض قيامها به ؟

الترجمة في معناها العام استبدال لغة بلغة للتعبير عن نفس المعانى ، وهذا يتطلب المام المترجم بمفردات اللغة التى يترجم منها وقواعدها ، ولا شك أن هذا أمر على جانب كبير من الصعوبة ، ومع ذلك فبعضنا يتعلم لغات أجنبية ويجيدها اجادة تامة ، والسبب في ذلك أنه تعلم قواعدها وتدرب عليها شيئا فشيئا حتى وصل الى درجة من الاتقان تقارب اتقانه لغته القومية ، وهذا معناه أن الشخص قد استوعب تماما قواعد هذه اللغة حتى تأصلت وترسخت في المخ بحيث يتكلم بطلاقة دون أن يفكر فيها . وهنا برز سؤال ألا يمكن أن تقوم الآلة بهذا العمل اذا ما تم ابتكار وسيلة تجعل من الممكن تغذيتها بالمفردات ـ مهما اختلفت معانيها وبالقواعد الصرفية والنحوية مهما بلغت في دقتها؟(١) .

قال العلماء : أجل نستطيع أن نجعل الآلة تفعل ذلك على الرغم مما قد يعترضنا من مشكلات وكانت القضية الرئيسية في هذا المجال هى أن المترجم يعرف لغته القومية ، أما الآلة فليس لها لغة قومية ، والمترجم حين يقوم بعمله ينتقى من حصيلته اللغوية أقرب الألفاظ والعبارات الى المعنى ، أما الآلة فانها لا تستطيع أن تفعل ذلك ، بل ان المعاجم المتخصصة للغاية في مجال بذاته من مجالات المعرفة تحمل خمس مفرداتها أكثر من معنى واحد ، ونحن حين ننتقى المعنى الملائم للكلمة نحاول أن نستخرجه من المعنى العام للكلمات المجاورة في السياق ، ولكن الآلة لا تفهم شيئا من ذلك ، ومن ثم لا تستطيع أن تنجز عملها على ضوء المعنى العام للسياق على نحو ما يفعل الانسان(١) .

---

(١) ا. كندراتوف : الأصوات والاشارات ص ١٥٨ ، ١٥٩ .

(١)ا. كندراتوف : الأصوات والاشارات ص ١٦٢ ثم أنظر من ص ١٦٣ ـ ١٧٣ .

وكان علماء الرياضة والهندسة أول من أجرى أبحاثا في مجال الترجمة الآلية فخلال الحرب العالمية الثانية تم بنجاح الاستفادة من الآلات الحاسبة الالكترونية في حل الشفرات السرية لجيوش الأعداء ، وفكر العلماء على ضوء التراسل الشفرى في امكانية تطبيق هذا التكنيك ذاته للترجمة الآلية ، ولكن البحوث التى أجريت فيما بعد أثبتت فشل هذا التكنيك وتبين لنا أننا حين نصوغ الشفرة وحين نحلها لا نمس اللغة من حيث هى لغة ، وانما نغير فقط الشكل الظاهرى للكلمات بتسجيلها في شكل شفرة من نوع خاص ، وطبيعى تماما أن هذه المشكلة انما تخضع خضوعا كاملا للمناهج الصورية ، أما حين نترجم فاننا نغير اللغة أى نغير نسق التعبير الذى يتسم بالتعقد الشديد والدقة والرهافة ، وهو نسق تعبيرى صاغه وأحكمه شعب بأكمله ، ويرتبط ارتباطا وثيقا بفكر هذا الشعب وتاريخه وعاداته وأسلوب حياته ٠٠ الخ .

ولذلك استخدم علماء الرياضة والهندسة تكنيكا آخر يمكن الآلة من اختيار الكلمة المناسبة للمعنى اذا ما جاء في سياق محدد ، ولكن هذه الطريقة كانت مفيدة في مجال محدود وسرعان ما تتوقف الآلة حين تواجه هذه الطريقة أكثر تعقيدا ، ولعل هذا هو السبب الذى جعل من الاستعانة بعلماء اللغة أمرا ضروريا .

وفي ذلك يقول (كندراتوف) : ان عالم اللغة هو وحده القادر على أن يحدد مواضع الاتفاق والاختلاف بين نسقين لغويين ، ويكشف بدقة عن القسمات المشتركة بين لغات العالم (١) .

ولم يقف البحث عند الترجمة من لغة الى لغة أخرى بل تجاوزه الى ابتكار لغة وسيطة أو مشتركة تقوم الآلة الحاسبة بالترجمة اليها عن بعض اللغات الأخرى ثم تتم الترجمة عن هذه اللغة الوسيطة الى أى لغة أخرى نريدها مثال ذلك أن نضغط على زرار (الوارد) الخاص باللغة العربية ونضغط على زرار

---

(١) ا. كندراتوف : الأصوات والاشارات ص ١٦٢ ثم أنظر من ص ١٦٣ - ١٧٣ .

(الصادر) الخاص باللغة الروسية فتترجم الآلة النص من العربية الى الروسية، وهذا معناه أن اللغة المشتركة ستمثل القاعدة أو النقطة التى تبدأ منها الترجمة ، ولم ينقطع الحوار منذ ظهرت هذه الفكرة بشأن هذه اللغة الوسيطة وهل تكون لغة حية كالانجليزية مثلا ثم نستنبط القواعد الخاصة بالترجمة لكل لغات العالم الى هذه اللغة ؟ أم تكون لغة صناعية كالاسبرانتو نظرا لبساطة قواعدها واطرادها ؟

وقد ظهرت مشكلات معقدة جعلت أغلب الباحثين يعتقد أنها ينبغى أن تختلف عن كل اللغات الطبيعية والصناعية المعروفة لنا ، وشغل الباحثون بالسمات والشروط التى ينبغى أن تتوفر في هذه اللغة ، ثم افترضت طرق للوصول اليها وبدأ العمل في تنفيذها ، ونحيل القارىء في هذا الشأن الى كتاب (كندراتوف) المشار اليه في الهامش .

ويبدو أن الباحثين في مجال الترجمة الآلية يميلون الى أن الآلة لن تعمل بنجاح في كل ميادين الترجمة ، وأنه سيكون لدينا لغتان : احداهما تتسم بالدقة والاحكام والوضوح يستخدمها الانسان والآلة ويقتصر استخدامها في المجالات العلمية ، ولغة ثانية متعذرة على الآلة وهى اللغة الأدبية التى تستخدم للتعبير عن العواطف والوجدانات .

ولكن لماذا لم تنجح الآلة في ترجمة النصوص الأدبية نجاحها في ترجمة النصوص العلمية ؟

لقد ووجه العلماء بمشكلات معقدة ذكرنا شيئا منها في الصفحات السابقة ونوجز هنا أهمها :

أولا : ما يتصل بالمفردات

ـ تعدد معنى اللفظ الواحد ، وتنوع الظلال الدقيقة التى ترتبط بالألفاظ ، ولا سبيل الى تحديد المعنى المقصود أو تعيين ظلاله الا من خلال السياق الذى تظهر فيه الكلمة ، وهذا أمر يتطلب العقل الانسانى وتكاد تتعذر برمجته في

حاسب آلى .

ـ تعدد الألفاظ التى تعبر عن المعنى الواحد ، فقد يكون للمعنى الواحد غير لفظ واحد (أسد ، ليث ، سبع ٠٠ الخ) ومع هذا قد يكون في كل لفظ منها شىء من المعنى ليس في صاحبه ، ولا سبيل حتى الآن للآلة على أن تختار من بينها أقربها للسياق .

ـ ارتباط مفردات اللغـة بحضارة الأمة التى تستخدم هذه اللغة ، فكل لغة تعبر عن البيئة التى يعيش فيها أصحابها ، وتعبر عن ثقافتهم المتميزة وشخصيتهم الخاصة .

ـ صعوبة تحديد المعانى الدقيقة للكلمات التى تدل على المجردات أو العواطف أو المشـاعر أو المعتقـدات (الحب ، والصـداقة ، والحرية ، والاشتراكية ٠٠ الخ) .

ثانيا : ما يتصل بقواعد اللغة .

والمشكلة فيما يتصل بقواعد اللغة في بناء كلماتها وجملها أعقد فلكل لغة أنظمتها الخاصة ، وهذه الأنظمة على جانب كبير من التعقيد والتشابك ، ولم يهتد العلماء حتى الآن الى نظرية يمكنها أن تفسر هذه الأنظمة تفسيرا كاملا حتى يمكن تغذية الآلة بها ، فاذا ما انتهينا الى البنية الخاصة بالتعبير الأدبى وما يمكن أن يحدث فيها من تقديم أو تأخير ومن ذكر أو حذف ومن فصل أو وصل ٠٠ الخ وما ينبنى على ذلك من دلالات فسوف تكون المشكلة أجسم .

وفي ذلك يقول : (كندراتوف) : ان ترجمة الأعمال الفنية عن طريق الآلة عمل مستحيل ، ذلك لأن الانسان حين يترجم أدبا خياليا لا يقتصر على ترجمة النص من حيث معناه فحسب ، وانما يبدع عملا فنيا جديدا عن طريق اعادة كتابة النص بحيث ينقل النماذج الخيالية والشعرية دون الاقتصار على المعنى الحرفي(١) .

---

(١) ا. كندراتوف : الأصوات والاشارات ص ١٧٣ .

الاتصـــال

ومجال الحديث عن الاتصال في عالمنا المعاصر واسع ممتد ، خذ مثلا ميدان الاتصالات السلكية واللاسلكية ، وما يمكن أن يحدث فيه من تعاون مشترك بين العاملين فيه وعلماء اللغة ، وفي جانب من هذه الجوانب يقول (كريستال) : ان ارسال الأصوات عبر الأسلاك يكلف الكثير من المال ، فاذا ما استطاع الانسان أن يزيل الزوائد والفواصل بعيدا عن كمية الأصوات المراد توصيلها فمن الواضح أننا سنوفر قدرا كبيرا من المال ، وستكون المشكلة اللغوية حينئذ في تحديد أى ملامح الكلام هى الأساسية من ناحية الوضوح والقبول ، وأيها ليست كذلك حتى يمكن الاستغناء عن الملامح غير الأساسية طالما أن فحوى الرسالة هو الأهم ، وحتى يمكن أن نحدد بدقة هذه الملامح لا بد من اجراء تجارب على نطاق واسع ، وهذا بالفعل ما يجرى الآن(١) .

ومن مجالات الاتصال الأخرى التى تؤدى فيها اللغة دورا كبيرا .

ثمة وسائل يستخدمها البشر للاتصال كالاشارة مثلا ، بيد أن اللغة أكثر وسائل الاتصال أهمية ، وللغة وظائف متعددة بيد أن وظيفة الاتصال أعظمها تأثيرا ، ونعنى بالاتصال هنا التفاهم المتبادل لا مجرد استخدام نفس اللغة ، ومن المتوقع ــ وهذا ما يحدث كثيرا ــ أن ينشأ عن الاتصال مشكلات يكون لها تأثير في نواح عديدة من حياتنا اليومية ، ومن الممكن أن تسبب لنا متاعب خطيرة .

ومن الأمثلة التى قدمها (كريستال) للاشارة الى صعوبات الاتصال : العلاقة بين الطبيب والمريض ، حيث يجد المرضى وبخاصة من الطبقات الدنيا صعوبة في العثور على الكلمات الصحيحة لوصف أعراض المرض ، وحيث يجد الطبيب أيضا صعوبة في فهم العبارات المختلفة التى يستخدمها مرضى مختلفون ، بل انه ليجد صعوبة أكبر في صياغة تعليماته أو تقريره الطبى في

---

(١) كريستال : التعريف بعلم اللغة ص ١٨٠ .

لغة يفهمها المريض ولا يكون لها تأثيرات أو مضاعفات غير متوقعة ، فكثير من المصطلحات الطبية له دلالات هامشية قد تسبب أذى للمرضى .

وعلى سبيل المثال : ليس بين كلمة growth بمعنى ورم وكلمة Cancer سرطان ارتباط ضرورى (وسوف نترك جانبا تأثير الكلمة الثانية المؤلم) ومع ذلك فمعظم الناس لديهم شعور قوى بأنهما متلازمان ، ومن هنا كان وصف أية حالة بأنها (ورم) مؤديا بسهولة الى قلق عظيم ليس له ما يبرره(١) .

ـ وفي العالم المعاصر حيث يتعاظم دور الاعلام ومن ثم يتعاظم دور اللغة في التأثير على الناس بل في السيطرة عليهم . فالاعلان التجارى الذى يهدف الى ترويج السلعة يعتمد على عناصر كثيرة من أهمها اللغة حيث تختار ألفاظ وعبارات ذات معان محببة الى النفوس للتأثير على السامعين أو المشاهدين (فطعم شيكولاته كذا يهديك طعم الجنة ، ورائحة كذا تحمل شذى الربيع ٠٠ الخ .

ـ ومن الصحيح أيضا أن عددا كبيرا من المصطلحات السياسية والفلسفية التى تصف الأفكار أو تحدد معايير السلوك في المجتمعات الغربية يكون لها معان مختلفة حين تستخدم في الأقطار الشرقية ، ان كلمة (الحرية) مثلا تحمل مضمونا نسبيا مثل (تقدمية ـ رجعية ـ شيوعية ـ ديمقراطية ٠٠ الخ) ـ هذا المضمون سوف يتوقف تأثيره السيء أو الطيب أو المحايد على المنطقة التى يستخدم فيها في العالم ، ولماذا نبعد والأمثلة لدينا حاضرة ، فالمجاهد الفلسطينى الذى يسعى لتحرير وطنه (ارهابى) في نظر المجتمع الأمريكى بله المجتمع الاسرائيلى ، وفلان من الحكام يزهو على غيره بالديقراطية والسجون مليئة بمعارضى سياسته ، ودولة كذا حققت الرخاء والسعادة لكل أفراد الشعب والغلاء يفتك بالناس فتكا والشقاء في كل بيت ٠٠ الخ .

وهكذا يبدو أن رجال السياسة والحكم يروجون لسياستهم ويبشرون

---

(١) Crystal, Linguistics, p. 15

لانظمتهم بهذه الوسيلة الفعالة : اللغة بكل ما تحمله المفردات والعبارات من معان وظلال تلائم أغراضهم وتتيح لهم التحكم في مشاعر الناس والسيطرة على عقولهم .

والأمثلة كثيرة وكلها تشير الى الدور الخطير الذى تمثله اللغة في حياتنا فقد تكون أداة للخير يستخدمها الناس للتفاهم فيما بينهم يحقق مصالحهم ويهيىء لهم أسباب العيش الكريم ، وقد تكون أداة للشر يستخدمها بعض الناس لتحقيق أغراضهم الشريرة في اثارة الفتنة والكراهية .

وهذا الدور الذى تمثله اللغة في حياتنا المعاصرة يشير الى ما يمكن أن يقوم به علماء اللغة في تبصير الناس بهذا الدور في جانبيه الايجابى والسلبى ، وباقتراح الطرق والوسائل التى من شانها أن تساعد في أداء اللغة لوظيفتها النبيلة في التفاهم والتعاون لخير الانسان .

الباب الثالث
علوم اللغة

المبحث الأول

علم اللغة الوصفى

ان أهم ما يميز علم اللغة الحديث الذى يستخدم المنهج العلمى في دراسة اللغة عن المناهج التقليدية هو أنه ينظر الى اللغة نظرة وصفية تعتمد على الملاحظة المباشرة للظواهر اللغوية الموجودة بالفعل ، ولا يهدف من ذلك الى وضع قواعد يفرضها على المتكلمين باللغة ، بل كل ما يهدف اليه هو وصف نظام اللغة (الصوتى ، والصرفي ، والنحوى) ووضع معاجمها .

وقد كان اهتمام علماء اللغة الوصفيين باللغة المنطوقة عظيما ، فلم يولوا اللغة المكتوبة الا اهتماما ضئيلا ، لقد كانوا يرون أن اللغة نظام صوتى في المقام الأول . كما أنهم لم يقتفوا أثر القواعد النحوية التقليدية القديمة ، لأن هذه الدراسة الأخيرة قد أسست جزئيا على لغات قديمة بطل استعمالها ، كما أن أصحاب هذه الدراسة يأخذون الصورة المكتوبة للغة على أنها أساس البحث ويردون اليها كل ظواهر اللغة المتكلمة ، ويندر أن تجد أيا منهم في تناوله للجزئيات يؤسس نتائجه على الملاحظة العلمية أو الاستقراء .

وقد تطور البحث التحليلى لعلماء اللغة الوصفيين نتيجة ارتباطه بدراسة ما يسمى بلغات الشعوب المتخلفة التى لم تعرف الكتابة بعد ، حيث لا توجد أى صيغة مكتوبة للغة ، وليس ثمة محاولات مسبقة لوصف نحوى ، ولا وسيلة للحصول على اللغة في أى صورة غير صورتها المنطوقة(١) .

وقد كان الوضع مختلفا في اللغة العربية فقد وضع علماؤها قواعدها وجمعوا مفرداتها على أساس اللغة المنطوقة ، وكان مبدؤهم أخذ اللغة سماعا

---

(١) ماريو باى أسس علم اللغة ترجمة د. أحمد مختار عمر ص ١١٩ .

من الرواة ذوى الصدق والأمانة ، وكثيرا ما تروى كتب الطبقات أن نحاة العربية ولغوييها كانوا يخرجون الى البادية ليسمعوا العربية من أفواه الأعراب في نجد وتهامة والحجاز ، والنص القرآنى المقدس وهو المثل الأعلى للعربية الفصحى كان الاعتماد في نقله على حفظ القلوب والصدور لا على حفظ المصاحف والكتب ، وكتاب سيبويه وهو أول كتاب في قواعد العربية لا تخلو صفحة من صفحاته الا ويذكر أنه سمع من العرب الفصحاء أو ممن يوثق بعربيته أو غير ذلك من ألفاظ السماع . بيد أنه بمرور الزمن وباتساع الفرق بين العربية الفصحى واللهجات المحلية أصبحت الفصحى مكتوبة لا تنطق الا في مواقف محدودة ، وأصبحت تتعلم في دور العلم المختلفة تعلما بعد أن كانت سليقة تكتسب اكتسابا .

ان قواعد العربية التى نتعلمها اليوم موجهة في الغالب لكى تعصم اللسان من الخطأ ، ويكفى في التدليل لذلك أن تتصفح كتابا من كتب النحو أو من الكتب التى خصصها أصحابها لبيان اللحن أو الخطأ في اللغة ليتبين لك ما تمتلىء به من أحكام توجب على المتكلم أن يقول كذا أو كذا ، أو تنهاه عن أن يقول كذا أو كذا ، وقد لخص الشيخ محمد على النجار هذا الموقف في كتابه (الأخطاء اللغوية) الشائعة بقوله : « تجرى العربية على قوانين ومقاييس يعد الانحراف عنها خطأ ولحنا فيها ، وكذلك مفرداتها في صيغها ومعانيها يجب الاحتفاظ بما ورد فيها عن العرب ، ولا ينبغى أن نتجاوزه الا بالمجاز أو الاشتقاق في حدود ما رسم جهابذة اللغة(١) .

وهكذا يختلف الهدف من دراسة اللغة بين اللغويين التقليديين والوصفيين، فاللغويون التقليديون يقدمون قواعد تعصم اللسان أو القلم عن الخطأ واللحن ، وتقيده بمستوى لغوى محدد يجب الحفاظ عليه ويمتنع الخروج عنه ، وترسم له حدودا لما ينبغى أن يقول ، وهى حدود لم تستخلص من الاستعمال الفعلى المعاصر للغة ، وانما هى حدود صورتها كتب النحو ورسمها جهابذة اللغة .

---

(١) الأخطاء اللغوية الشائعة ج ١ ص ١ .

واللغويون الوصفيون يسجلون ما يقوله المتكلم تسجيلا أمينا يصور ما قاله بالفعل لا ما ينبغى عليه أن يقوله ، ولا يعنى هذا أنهم يقتصرون في بحثهم على الكلام المنطوق فحسب (والذى يغلب أن يكون لهجة محلية أو اجتماعية) بل ان من مجال عملهم أيضا دراسة اللغة الفصحى أو المعيارية (منطوقة أو مكتوبة) على النحو الذى تستخدم عليه بالفعل في وقت الدراسة لا على النحو الذى تصوره كتب النحو القديمة والذى يرسمه جهابذة اللغة .

ان أكثر الأحكام التى نطلقها على اللغة ليست الا أحكاما اجتماعية ـ وهى قرارات انسانية تدور في دائرة ما يرغبه كل منا ـ فاللغة الفصحى عند قوم قد تكون غير فصيحة عند آخرين ، والعكس صحيح أيضا ، وقد تؤدى اللغة وظيفتها وتنقل الى السامع ما يريده المتكلم ـ في شكل غير صحيح ، وقد يتفاوت الناس في الأداء اللغوى ، فبعضنا يكتفى بما يمكن أن يقال عنه (اللغة المفهمة) وبعضنا يتجاوز ذلك فيستخدم ما يمكن أن يقال عنه (اللغة البليغة) .

ولأن كثيرا من البحوث اللغوية لم تصل الى رأى قاطع في (اللغة الفصحى) فقد نشأ انطباع مؤداه أن وسائل الاتصال الناجحة هى المعيار الوحيد الذى يحكم به عالم اللغة على نمط لغوى معين ، وهو انطباع غير دقيق ، فالتعبير اللغوى ـ كما ألمحنا الى ذلك ـ يتفاوت في أداء المقصود باختلاف الأشخاص والمواقف .

ان اللغوى الوصفى ينحى هذه الأحكام جانبا ، ويلتزم بتسجيل ما يسمع ـ قدر استطاعته ـ بدقة وموضوعية ولا يعنى نفسه باصدار الأحكام .

ان اللغوى الوصفى يعتقد اعتقادا جازما في أن الكلام ذاته من حيث هو أصوات لا يتضمن ما يجعله صوابا أو خطأ ، بل مدار الأمر الى الجماعة التى تستخدم هذه اللغة(١) .

---

(١) See, Dinneen, An Introduction to general Linguistics, p. 6

ربما تحظى اللغة الفصحى أو المعيارية بمكانة متميزة عند جماعة لغوية معينة بالقياس الى مكانة اللهجة المحلية ، وهى نظرة ربما كان لها ما يسوغها عند أصحاب هذه اللغة قد يكون ذلك لأسباب دينية أو قومية أو اجتماعية..الخ، ولكن اللغوى لا ينظر الى اللغة هذه النظرة الخاصة بل ينظر اليها من حيث الخصائص اللغوية الخالصة فليست الفصحى أو المعيارية أكثر دقة أو أجمل تعبيرا أو أكثر منطقية واطرادا من اللهجة المحلية ، وليست اللهجة المحلية في هذا المجال فسادا أو انحرافا ، بل قد يتضح عند البحث أنها ليست أقل دقة أو جمالا أو منطقية أو اطرادا(١) .

ان هذه الأحكام ما هى في الحقيقة الا أحكام اجتماعية - وليست أحكاما لغـوية .

محاور الدراسة الوصفية :

تتم الدراسة الوصفية في ثلاثة محاور : الزمان والمكان والمستوى .

الزمان : ينبغى تحديد الفترة الزمنيـــة التى تدرس في أثنائها الظواهر اللغوية ، لأن اللغة تتغير بمرور الزمن،أن التغير ليس عملا مقصودا يحدث وفقا لمنهج مخطط سلفا ، انه يتوقف على عوامل كثيرة معقدة ليس لدينا الا القليل عن كيفيات تأثيرها ، انه في الحقيقة يسرى في اللغة شيئا فشيئا حتى لا يدرك ، وعلى الرغم من أن التغيـر عمليـــة مستمرة فاننا نتغاضى قاصدين عن استمراريته ، ونعد اللغة وكأنها ثابتة أو مستقرة في أثناء فترة البحث ، ولذلك يحرص اللغويون أشد الحرص على ألا يستغرق البحث فترة طويلة من الزمن اذا ما كانت اللغة المدروسة معاصرة للبحث - بحيث لا تحدث تغيرات ذات أهمية في أثنـائه ، فان طالت الفترة فعلى البـاحث أن ينص على المدة التى استغرقها في جمع المادة ودراستها بحيث يمكن لغيره من الباحثين أن يجرى التعديلات اللازمة طبقا لذلك . أما اذا تناولت الدراسة فترة زمنية سابقة لتاريخ

---

(١) Fromken and Rodman, An Introduction to Language, p. 274

البحث فعلى الباحث أن يضيق من الفترة المختارة للبحث للاعتبار السابق الذى تحدثنا عنه .

المكان : ينبغى تحديد المكان الذى تقيم فيه الجماعة اللغوية التى ندرس لغتها ، لأن اللغة تتغير باختلاف المكان ، فالعربية اليوم مثلا ليست سواء فيما يطلق عليه العالم العربى بل تختلف باختلاف أقطاره فثمة لهجة مصرية وأخرى عراقية ٠٠ الخ واللهجة المصرية لها خصائص في أصواتها وصرفها ونحوها ودلالاتها تتميز بها عن اللهجات الأخرى ، وكذلك الحال بالنسبة الى هـذه اللهجات .

وقد أخذ على قدامى النحاة واللغويين أنهم حين جمعوا مفردات العربية ووضعوا قواعدها عدوها وحدة واحدة وجعلوا كل ما ينطق به العربى حجة على الرغم من الاختلافات التى عرفوها بين عربية الشمال وعربية الجنوب ، قال أبو عمرو : ما لسان حمير وأقاصى اليمن اليوم بلساننا ولا عربيتهم بعربيتنا(١) .

والعربية الشمالية نفسها تنقسم الى مجموعتين لهجيتين كبيرتين هما لهجات نجد والحجاز ، وبينهما اختلافات كثيرة تحدثوا عن القليل منها وأهملوا الكثير ، قال ابن نوفل : سمعت أبى يقول لأبى عمرو بن العلاء : أخبرنى عما وضعت مما سميت عربية ! أيدخل فيه كلام العرب كله ؟ فقال : لا . فقلت : كيف تصنع فيما خالفتك فيه العرب وهم حجة ؟ فقال : أحمل على الأكثر ، وأسمى ما خالفنى لغات (٢) . بيد أنهم لم ينصوا على كل ما خالف الفصحى الموحدة التى سماها أبو عمرو (العربية) ، وجعلوا الناطق على قياس لغة من لغات العرب مصيب غير مخطىء . يقول ابن جنى : باب اختلاف اللغات وكلها حجة . اعلم أن سعة القياس تبيح لهم ذلك ، ولا تحظره عليهم ، ألا ترى أن لغة التميميين في ترك اعمال (ما) يقبلها القياس ، ولغة الحجازيين في

---

(١) ابن سلام : طبقات فحول الشعراء حـ ١ ص ١١ .
(٢) السيوطى : المزهر حـ ١ ص ١٨٤ ، ١٨٥ .

اعمالها كذلك ، لأن لكل واحد من القومين ضربا من القياس يؤخذ به ويخلد الى مثله ، وليس لك أن ترد احدى اللغتين بصاحبتها ، لأنها ليست أحق بذلك من رسيلتها (١) .

ليس غريبا اذا أن يتضخم المعجم العربى فنجد للمفرد غير جمع واحد ، وللفعل غير مصدر واحد ، ونجد عين المضارع لا يستقر أمرها على فتح أو كسر أو ضم ، ونجد للشيء الواحد عشرات من الألفاظ بل مئات تشير اليه.. الخ وفي النحو شيء من هذا ، لك أن تقول : ما هذا رجل وما هذا رجلا ، فترفع على أن (ما) تميمية وتنصب على أنها حجازية ، ولك أن تقول : ان الرجلين وان الرجلان ، فتنصب المثنى بالياء أو تلزمه الألف في كل حال .. الخ .

وهذه كلها من آثار نظرتهم الموحدة الى العربية الفصحى وتسويتهم بينها وبين لهجاتها ، ولو أنهم نصوا على كل ما يخالف الفصحى ونسبوه الى أصحابه لاختلف الحال تماما ، ولأصبح لدينا معجم أكثر واقعية ، ولكان لدينا قواعد أكثر اطرادا .

المستوى : لا تتنوع اللغةباختلاف الزمان والمكان فحسب ، بل ثمة تنوعات أخرى تحددها عوامل كثيرة مثل الوسيلة التى يستخدمها المتكلم في الاتصال (اللغة المكتوبة أو المنطوقة) أو المجال الذى تستخدم فيه (لغة الشعر ، لغة النثر ، اللغة العلمية .. الخ) أو الموضوع الذى يتحدث فيه أو الشخص الذى يتحدث اليه ، وهى تنوعات يغلب أن يشار اليها بالمستوى ، وبعض الباحثين يوجب على الدارس أن يحدد المستوى وفقا للاعتبارات السابقة .

ومن المعروف أن نحاة العربية استخلصوا قواعدهم من القرآن الكريم وقراءاته ومن أشعار العرب وأقوالهم ولكنهم أغفلوا عاملا هاما هو أن نظام الجملة في الشعر نظام خاص يختلف عن نظامها في غيره من شواهد العربية ، ومن ثم كثر الخلاف بين النحاة في بعض هذه الأشعار .

---

(١) ابن جنى : الخصائص حـ ٢ ص ١٠ .

فالبصريون مثلا يمنعون مطلقا أن يلى العامل معمول الخبر في باب كان الا اذا كان ظرفا أو جارا أو مجرورا ، والكوفيون يجوزون مطلقا محتجين بقول الفرزدق :

قنافذ دراجون حول بيوتهم بمـا كان اياهم عطية عودا

ورد عليهم البصريون بتأويلات كثيرة للبيت حتى يستقيم مع قاعدتهم ، وكان أولى بهم أن ينتبهوا الى ترتيب الكلمات على النحو السابق خاص بالشعر(١) .

لقد كان ينبغى ألا يخلطوا بين شواهد الشعر والنثر ، وألا يضعوا قواعد عامة تشملها معا ، فهذا مستوى من اللغة وذاك مستوى آخر ولكل خصائصه التى تميزه عن صاحبه .

دور العرف في بيان الصواب والخطأ :

تبين مما سبق أن هناك فرقا كبيرا بين مهمة الباحث اللغوى التى تتلخص في وصف ما يلاحظه من ظواهر بدقة وموضوعية ، ومهمة المعلم الذى يضع القواعد التى ترشد المتعلمين الى الصواب وتجنبهم الخطأ ، فالأول يستخدم المنهج الوصفى ، وهو لذلك عالم ، أما الثانى فينظر الى اللغة نظرة معيارية ، وهو لذلك معلم ، وكلاهما يقوم بدور له أهميته البالغة .

ولكن ما الموقف الذى يتخذه علماء اللغة المحدثون حيال المقياس الذى نستخدمه للقول بالصواب أو بالخطأ ؟ يقرر علماء اللغة المحدثون أن اللغة نظام عرفي بمعنى أن العرف هو الذى يحدد معايير الاستعمال في اللغة ، فالمتكلم بلغة ما يستعمل اللغة في أصواتها وتراكيبها ومفرداتها وفقا للعرف اللغوى للجماعة التى ينتمى اليها ، فالصواب اذا هو أن يكون استخدامه للغة موافقا لهذا العرف ، والخطأ هو أن يكون استخدامه لها مخالفا له ، ان العرف هو الذى يضع الأنظمة وهو الذى يقرها وهو الذى يحافظ عليها .

لنفرض أن العرف اللغوى للجماعة التى ينتمى اليها (ا) يتطلب نطق الفعل (قال) هكذا / jaal / على حين يتطلب العرف اللغوى للجماعة التى

---

(١) انظر : الشيخ خالد : التصريح حـ ١ ص ١٨٩ ، ١٩٠ .

ينتمى اليها (ب) أن ينطقه هكذا / aal ؟ / ، سوف نجد أن (ب) ومن ينتمى الى جماعة قد يستنكرون نطق (ا) وسوف يكون مجالا لتندرهم، وهم أيضا لن يسلموا من اعتراض (ا) على نطقهم ومن سخريتهم به ، والحقيقة أن (ا) حين ينطق الفعل السابق كما تنطقه جماعته اللغوية يكون مصيبا لأنه راعى عرفهم ، ولو فعل غير ذلك لأخطأ ، وليس لـ (ب) أن يخطئه محتجا عليه بطريقة نطقه هو ، وليس لـ (ا) أيضا أن يخطئه في نطقه محتجا عليه بنطقه هو . وحين يأتى من يقول لهما ان النطق الصحيح لهذا الفعل هو / qaal / مؤكدا أن العرب الفصحاء كانوا ينطقونه كذلك ، وأن (ا) و (ب) قد أخطآ حين نطقاه على خلاف ذلك ، مثل هذا الشخص ـ حين ينظر الى اللغة هذه النظرة يكون معياريا أى يحكم على الاستعمال بالصواب ، لأنه يراعى القاعدة ويحكم عليه بالخطأ لأنه لا يراعيها ، وهنا نسأل : أتمثل هذه القاعدة جزءا من النظام اللغوى الذى تستخدمه الجماعة التى ينتمى اليها (ا) أو (ب) ؟ والجواب في مثالنا السابق هو : لا . ولذلك لا نعد هذا الشخص محقا في حكمه .

والنظرة المعيارية الى اللغة مقبولة بل ضرورية في كثير من الأحوال ، فهى لازمة في المراحل المختلفة لتعليم اللغة القومية ، وهى أيضا لازمة للحفاظ على هذه اللغة المشتركة من مخاطر استخدام اللهجات المحلية ، وقد حافظت الأعمال التى خلفها لنا النحاة العرب في مجال وضع قواعد العربية حافظت على العربية الفصحى فترة طويلة من الزمن دون أن تتطور تطورات كبيرة كما حدث في اللاتينية حين تشعبت الى لهجات متعددة هى الآن لغات قومية) وقد فعلوا ذلك بهدف المحافظة على القرآن الكريم والخوف من أن يتطرق اليه التغيير والتبديل ، ولكن هذه النظرة مرفوضة حين نقوم بدراسة اللغة ، اذ ينبغى على الدارس أن يصف ما يسمعه وصفا دقيقا موضوعيا ، وليس من عمله أن يضع قواعد يستخدمها للحكم بالصواب أو الخطأ(١) .

ان عالم اللغة له منهج يختلف عن منهج معلم اللغة ، وكلاهما يقوم بجهد

---

(١) See, Lyons, Introduction to theoretical Linguistics, p.p. 43, 44

مطلوب ، ولكن ينبغى أن تكون الحدود بينهما قاطعة ، ولا ينبغى أن يتجاوز أى منهما حدود المنطقة التى يعمل فيها .

وهناك اصطلاح يكثر استعماله مرادفا لعلم اللغة الوصفى وهو علم اللغة التركيبى أو البنيوى Structural Linguistics الذى هدفه الرئيسى وصف تركيب اللغة .

وسوف نتحدث بالتفصيل عن هذا العلم في المبحث القادم .

المبحث الثانى

علم اللغة التاريخى

التغير اللغوى

من أهم الأفكار التى تميز علم اللغة الحديث أن اللغات تتغير باستمرار ، وأن هذا التغير ليس بالضرورة فسادا في اللغة أو انحرافا عن التعبير الصحيح ـ كما يعتقد اللغويون التقليديون ـ ان التغير اللغوى في أغلب أحواله ضرورة ملحة ، وهو أيضا حقيقة واقعة لا يمكن انكارها أو التغاضى عنها ، لقد حدثت تطورات كبيرة وشاملة في عالمنا المعاصر في وسائل الحياة وفي نظرة الانسان اليها ، ولم تكن اللغة بمعزل عن هذه التطورات فهى أداة التعبير عن حاجات المجتمع ، أداة طائعة تلبى الدواعى المتنوعة وتلاحق الحاجات المتجددة .

قد نحتاج الى كلمات جديدة للتعبير عن هذه الوسائل فماذا نفعل ؟

قد نقترض من اللغات الأخرى فنضيف بذلك كلمات جديدة الى لغتنا ، وقد نضطر الى احياء كلمات كانت مهجورة ، وقد نضيف الى معانى الكلمات التى نستخدمها معانى جديدة لتتسع لأغراضنا ، كل هذا يحدث ـ وقد حدث شىء مثله في تاريخ كل اللغـات ، وهو عمل مشروع وحاجـة ملحة وتغير ضرورى .

واذا ما ألقينا نظرة الى اللغات الحية المعاصرة نجد أنها تغيرت تغيرات ملموسة ، وان كان معدل التغير يختلف من لغة الى لغة ومن وقت الى وقت ، فالانجليزى المعاصر يجد صعوبة كبيرة في فهم نصوص انجليزية ترجع الى عام ١٣٠٠م الا اذا تلقى تدريبا لغويا خاصا ، أما الوثائق الانجليزية المكتوبة عام ٩٠٠م فسوف تبدو وكأنها مكتوبة بلغة أجنبية ، وقد يبدو له أن هذه الوثائق

لا تمت الى الانجليزية بسبب(١) .

والعربى المعاصر ربما يجد صعوبة أقل في فهم نصوص ترجع الى العصر الجاهلى مثلا ولكنها صعوبة يمكن التغلب عليها اذا ما ألم الماما يسيرا ببعض المفردات الشائعة في هذه النصوص .

والذى نستخلصه مما قلناه آنفا أن اللغة تتغير باستمرار ، وأن هذا التغير لا ينبغى أن يفسر دائما على أنه فساد أو انحراف . ان دراسة التغيرات التى تصيب اللغة تقع في اطار ما يسمى علم اللغة التاريخى Historical Linguistics وهى دراسة مخالفة من بعض الوجوه لما يسمى علم اللغة لوصفى Discriptive Linguistics الذى عرفنا به وحددنا نطاقه في الصفحات السابقة .

علم اللغة الوصفى وعلم اللغة التاريخى :

يقسم علماء اللغة علم اللغة الحديث الى قسمين : علم اللغة الوصفى وعلم اللغة التاريخى ، وقد قلنا آنفا ان علم اللغة الوصفى يهدف الى وصف اللغة موضوع الدراسة وصفا علميا دقيقا في مكان وزمان محددين بل أوجب البعض تحديد مستوى اللغة المدروسة . أما علم اللغة التاريخى فيهدف الى دراسة اللغة في مكان محدد في مراحل زمنية مختلفة لبيان التغيرات التى لحقتها في أثناء تلك المراحل .

وهناك مصطلح يستعمل مرادفا لعلم اللغة التاريخى هو Diachronic Linguistics (مكون من Dia بمعنى (عبر) و Chronic بمعنى (زمن) ، ومصطلح آخر يرادف علم اللغة الوصفى وهو Synchronic Linguistics مكون من Syn بمعنى (في) و Chronic بمعنى (زمن) ، ويعنى دراسة اللغة كما تبدو في نقطة معينة من الزمن(١) .

---

(١) أنظر Barber, The Story of Language, p. p. 49, 50

(١) باى (ماريو) أسس علم اللغة ترجمة د. أحمد مختار عمر ص ٣٦ .

لقد تبين لنا من الحديث عن علم اللغة الوصفى أن ظهوره كان له تأثير كبير في توجيه الأنظار الى اللغات الحية ، وصرفهم عن الدراسات التاريخية التى بلغت أوجها في القرن التاسع عشر .

ويحدد (ماريو باى) موقف علماء اللغة الوصفيين من الدراسات التاريخية بقوله : انهم لزموا الصمت فيما يتعلق بالقيمة العلمية لدراسة اللغويات التاريخية التى تعتمد على دراسة الوثائق والمخطوطات وقنعوا بمحاولة التقليل من شأنها واستبدالها بطرق أخرى للبحث ، وصرفوا همهم الى دراسة اللغات الحديثة التى يستعملها الناس ، ولهجاتها المحلية والفردية(١) .

والشائع بين مؤرخى علم اللغة المعاصرين أنهم يضعون علم اللغة التاريخى بين العلوم اللغوية ، ويجعلونه قسيما لعلم اللغة الوصفى(٢) ، بيد أن بعضهم يخرجه منها ، ومن هؤلاء (كريستال) الذى يرى أن علم اللغة ينبغى ألا ينظر اليه على أنه دراسة تاريخية للغة Diachronic .. ويفسر ذلك بقوله : أن علم اللغة يهتم بالدراسة غير التاريخية للغة Synchronic أى دراسة مرحلة معينة من اللغة في وقت نعنيه بغض النظر عن تاريخها السابق أو اللاحق ، انه يبحث مثلا في اللغة الانجليزية كما تستعمل اليوم ، أو كما كانت تستعمل في عصر شكسبير ، ولا يبحث في الطريقة التى تطورت بها اللغة الانجليزية في عصر شكسبير الى اللغة الانجليزية الحديثة ، ولا في الطريقة التى ستتطور بها الانجليزية المعاصرة الى انجليزية القرن الحادى والعشرين ، لأن معظم القضايا الهامة التى تشغل عالم اللغة ليست قضايا تاريخية على الاطلاق ، وانما الذى يشغله قضايا مثل : ما وظائف اللغة في المجتمع ؟ وكيف تقوم بها ؟ وكيف ندرس أى لغة دراسة تحليلية ؟ وهل كل اللغات لها تركيب واحد ؟ وما العلاقة بين اللغة والفكر ؟ ولكى نبحث مثل هذه القضايا ونحددها لابد لنا من أن ننظر نظرة غير تاريخية ، أى ننظر اليها كموضوع للبحث لابد

---

(١) باى (ماريو) لغات البشر ترجمة د. صلاح المغربى ص ٧٧ .

(٢) Dinneen, An Introduction to general Linguistics, p. 3

من دراسته بطريقة تجريبيـة وبالمصطلحات الخاصـة به مثلما ندرس تماما الظواهر الطبيعية أو الكيماوية(١) .

ومن الواضح أن (كريستال) يستند في محاولته اخراج الدراسة التاريخية من نطاق علم اللغة الى أمرين :

أولا : أن قضية التغير اللغوى التاريخى لم تعد تشغل اللغويين اليوم (وقد كانت هى قضية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين) ، وأن قضايا لغوية أخرى أصبحت تشغلهم كقضية وظيفة اللغة وعلاقتها بالفكر . (ان القضية التى تشغل اللغويين اليوم ـ ان صحت رؤيتنا قضية المجالات العملية التى يمكن أن تستخدم فيها نتائج العلوم اللغوية أو بعبارة موجزة : علم اللغة التطبيقى) .

ثانيا : أن دراسة التغير اللغوى لا تخضع لمقتضيات البحث العلمى (التى تحدثنا عنها في المبحث الأول) ولهذا يستبعد الوصول في دراسته الى نتائج يمكن التحقق منها تجريبيا ، ومع تسليمنا بذلك فان الباحثين في علم اللغة التاريخى قد ابتكروا طرقا لعلاج القصور عند دراسـة لغـة ليس لها وثائق منطوقة ، وسوف نتحدث عن ذلك بعد قليل .

والدراسة الوصفية أو التاريخيـة يمكن أن تتناول اللغـة أو جانبا منها بالدراسة ، فالظواهر الصوتية مثلا يمكن دراستها دراسة وصفية فتوصف وصفا دقيقا في مرحلة معينة بهدف بيان خصائصها في هذه المرحلة ، وقد تدرس دراسة تاريخية ، فيختار الباحث مراحل زمنية محددة ، ثم يقوم بدراسـة الموضوع على حدة دراسة وصفية في كل مرحلة ، ثم يقارن بعد ذلك بين هذه المراحل المختلفة ليحدد التغيرات التى حدثت ، وهكذا الأمر اذا كانت الظواهر المدروسة صرفية أو نحوية أو معجمية .

ومن الخطأ أن يتجاوز الباحث المرحلة الزمنية التى اختارها أو المكان

---

(١) كريستال : التعريف بعلم اللغة ص ٣٤ ، ٣٦ .

الذى حدده أو المستوى الذى عينه ، لأنه ان فعل شيئا من ذلك اختلطت عليه الأمور واضطربت النتائج . ولهذا يؤكد علماء اللغة على تنحية الاعتبارات التاريخية تماما حين تكون الدراسة وصفية ، وقد قدم لنا (سوسير) مثالا جيدا لهذا حين شبه اللغة بلعبة الشطرنج ففى أثناء اللعب تتغير حالة الرقعة باستمرار ، غير أننا في أى وقت نستطيع أن نصف حالة الرقعة وصفا كاملا بتحديد المواقع التى تحتلها قطع الشطرنج المختلفة ، ولا يعنينا والحال كذلك كيف وصل اللاعبان الى الحالة الراهنة التى وصفناها آنفا ، ولا يعنينا بأية وسيلة أو بأية حركة أو بأى عدد من القطع فعلا ذلك ، لقد وصفنا الحالة الراهنة للرقعة دون التفات الى حركة سابقة(١) .

كل اللغات تتغير باستمرار مثل رقعة الشطرنج ، وكل اللغات يمكن وصفها في وقت محدد دون الرجوع الى أحوال سابقة كان لها تأثيرها في الحالة المعينة الموصوفة في الوقت المحدد . غير أن هذا لا يعنى أبدا انقطاع الصلة بين علم اللغة التاريخى وعلم اللغة الوصفى ، لقد اتضح لنا اعتماد الدراسة التاريخية على الدراسة الوصفية ، لأننا لكى نتابع التغير التاريخى للغة نحتاج الى وصف دقيق لمرحلة متقدمة ومرحلة متأخرة من تاريخ هذه اللغة .

ومن المشكلات التى تعترض الباحث في علم اللغة التاريخى أنه لا تتوفر له مادة لغوية منطوقة لمرحلة لغوية سابقة على المرحلة المعاصرة ، فلم تخترع وسائل التسجيل الا حديثا ، ومن ثم فليس أمامه الا أن يلتجىء الى الكتابة تلك الوسيلة العاجزة التى لا تمثل المنطوق تمثيلا صحيحا .

لقد كان تركيز الباحثين في علم اللغة التاريخى على الجانب المكتوب من اللغة، أما اللغة المتكلمة فقد صورت على أنها شىء متغير خداع وأن الجزء الثابت منها الذى يستحق الدراسة هو ذلك الموجود في اللغة المكتوبة ولهذا فليس محل

---

(١) Lyons, Introduction to theoretichal Linhuistics, p. 46

دهشة اذا أن تكون الخطوات الأصلية في علم اللغة قد تناولت بالبحث فقط الجانبين التاريخى والمكتوب للغة ، وان المنهجين الدراسيين في علم اللغة التاريخى ونعنى بهما المنهج المقارن ومنهج اعادة تركيب اللغة قد أسسا كلية على ما وجد من وثائق مكتوبة ، ومن حيث طبيعة البحث فان علم اللغة التاريخى لابد أن يعتمد على المادة المكتوبة بقدر ما يعتمد علم اللغة الوصفى على المادة الكلامية لمتكلمين أحياء (١) .

ولهذا ينبغى على الباحث عند دراسته لهذه المادة المكتوبة على الأحجار والصخور أو على الطين وألواح الشمع أو المسجلة في أوراق البردى ... الخ أن يحتاط في الاحتجاج بها ، وأن يغلب الشك على اليقين في أغلب الأحيان ، كما ينبغى أن يدعم استنتاجاته بشواهد أخرى مثل ملاحظات العلماء القدامى أو الكلمات التى تقترضها اللغة المدروسة من اللغات الأخرى ، أو يدعم موقفه بالمعارف العظيمة التى تحققت بدراسة ميكانيكية النطق والسمع .

ولا شك أن المشاكل التى تتصل بهذا الجانب تختلف من لغة الى أخرى ، ففى تقديرى أن دراسة الجانب المنطوق للعربية الفصحى في مراحل تاريخية غير معاصرة ممكن ، لقد احتفظت الفصحى بصورة منطوقة حتى يومنا هذا هى القرآن الكريم الذى كان يتناقله حفظته قارئا عن قارىء ، وقد وضعوا لذلك قواعد محكمة احتفظت بصورة يعتقد أنها لم تتعرض لتغيرات كبيرة كالتى حدثت في لغة الخطاب ، أضف الى ذلك أن الخصائص العربية في بناء كلماتها وخضوعها لأوزان معينة ولطرق الاشتقاق المحددة يتيح امكان التعرف على بعض الحقائق الصوتية ، كما أن الشعر العربى الموزون المقفى يساعد الى حد كبير في التعرف على هذه الحقائق .

---

(١) باى (ماريو) أسس علم اللغة ص ١٦٤ .

المبحث الثالث

علم اللغة المقارن

يدرس علم اللغة المقارن الظواهر المشتركة بين اللغات التى بينها علاقة قرابة (أى التى تنتمى الى أصل لغوى واحد) . وعلى سبيل المثال قد يدرس الباحث المقارن ظاهرة معينة في العربية والعبرية والآشورية باعتبارها لغات تنتمى الى أصل مشترك هو ما يطلق عليه الســـامية الأولى . ومن أهداف الدراسة المقارنة التوصل الى اعادة بناء هذا الأصل المشترك .

وقد يراد بالدراسة المقارنة تناول مرحلتين زمانيتين أو أكثر من مراحل التطور التاريخى للغة واحدة ، والغرض من هذه الدراسة التوصل الى التغيرات اللغوية التى وقعت في أثناء تلك المراحل .

والدراسة المقارنة بهذين الاعتبارين أقرب الى علم اللغة التاريخى .

ولـكن (ماريو باى) يرى أنه بالامكان اسـتخدام المقـارنة بين لغتين حديثتين من غير اشارة الى تطوراتهما أو أصولهما التاريخية ، وذلك بقصد الوصول الى مواطن الشبه والاختلاف في صورتهما الحاضرة(١) . ويتحقق هذا لأغراض تعليمية اذ تمكننا هذه المقارنات من تعلم اللغات المختلفة وتعليمها بطريقة ميسرة ، غير أن الشائع بين الباحثين أن يطلق على هذا اللون من البحث (التحليلى التقابلى Contrastive analysis) وقد تحدثنا عنه بالتفصيل في الباب الثانى من هذا الكتاب .

وقد صنف علماء اللغة لغات العالم وفقا لما بينها من علاقات ، وحددوا هذه العلاقات فيما يأتى :

---

(١) أسس علم اللغة ترجمة د. مختار عمر ص ٣٦ ، ٥٩ .

علاقات قرابة genetical relations وعلاقات ثقافية cultural relations وعلاقات بنيوية أو شكلية (وسائل بناء الكلمات وتوليدها Typological relations

لقد لاحظ اللغويون تماثلا مطردا في بعض العناصر اللغوية بين الألمانية والانجليزية ، وقد أرجعوا هذا الى أن اللغتين تنتميان الى أصل مشترك أطلقوا عليه اللغة الجرمانية ، فبين اللغتين بهذا الاعتبار (قرابة)والقرابة هنا تعبر عن مجموعة من العلاقات اللغوية تقع في مستويات أو على درجات أشبه ما تكون بالعلاقات الأسرية ، كعلاقة الأم بابنتها أو الأخت بأختها أو ما الى ذلك من علاقات قريبة أو بعيدة .

أما العلاقات الثقافية فتنشأ عن اتصالات واقعية بين مجموعات بشرية ، وعلى سبيل المثال نجد بين العربية والفارسية علاقات ثقافية مشتركة تبدو فيما اقترضته كل لغة من الأخرى من ألفاظ تتصل بثقافتهما الخاصة أى ثقافة العرب والفرس ، وليس بين العربية والفارسية قرابة لغوية ، فالعربية لغة سامية والفارسية لغة هندية أوربية .

أما العلاقات البنيوية أو الشكلية فقد تكون بين لغات ليس بينهما علاقة قرابة أو علاقة ثقافية ، وعلى سبيل المثال لاحظ اللغويون وجوه شبه قوية بين الانجليزية والصينية لايثارهما طريقة مشتركة في بناء الكلمات ، ولاحظوا أيضا وجوه شبه قوية بين العربية والسنسكريتية لايثارهما منهجا مشتركا في تصريف الكلمات(١) .

وقد تطورت البحوث المقارنة تطورا كبيرا بعد أن اكتشف (وليم جونز) اللغة السنسكريتية ، لقد وجد (جونز) بين هذه اللغة واللغات الأوربية وجوه شبه قوية جعلته يدعى أن السنسكريتية هى الأم التى تفرعت عنها هذه اللغات ، وأطلق على الأسرة التى تجمع هذه اللغات أسرة اللغات الهندية الأوربية .

وقد تطورت أيضا البحوث المقارنة التى درست اللغات العربية والعبرية

---

(١) See, D. Bolinger, Aspects of Language, p. p. 27, 28

والفينيقية والأكادية والحبشية ، ووجد العلماء بين هذه اللغات وجوه شبه قوية جعلتهم يدعون أنها تنتمى جميعا الى لغة مشتركة هى اللغة السامية الأولى، وأطلقوا على الأسرة التى تجمع هذه اللغات أسرة اللغات السامية .

وقد قسم علماء اللغات كل أسرة من الأسرات السابقة الى فروع فقسموا أسرة الهندية الأوربية الى فروع منها : الفرع الجرمانى والسلافي والايرانى والهندى ، وبينوا اللغات التى تنتمى الى كل فرع ، فالفرع الجرمانى مثلا يضم الألمانية وانجليزية والدانيمركية والسويدية . . الخ .

وكذلك أيضا فعل علماء اللغات مع أسرة اللغات السامية فقسموها الى السامية الجنوبية والسامية الغربية والسامية الشرقية ، وقسموا كل مجموعة من هذه المجموعات الى فروع ، فالسامية الجنوبية تضم فرعين هما : العربية والحبشـــية . . الخ(١) .

ان دراسة وجوه الشبه بين كل مجموعة من هذه اللغات قد انتهى الى أنها تتشعب عن لغة واحدة امتدت فروعها شيئا فشيئا مع الزمن ، وقد أصبح في مقدور علم اللغة المقارن أن يعيد بناء هذه اللغة الأم reconstruction ان أعوزته النصوص القديمة التى تنسب الى هذه اللغة بدراسة الخواص اللغوية التى تتوفر في اللغات التى تفرعت عنها ، وبامكانه أيضا أن يحدد تغيرات معينة خضعت لها لغة ما في مرحلة معينة من مراحل تطورها التاريخى ، ومن الواضح أنه ليس من الضرورى أن يكون للأشكال أو للتغيرات المقترحة وجود فعلى فهى في الغالب افتراضية ، ولهذا يوضع قبلها علامة نجمة * للتنبيه الى هذا المضمون((٢) .

وقد أدرك المقارنون الأوائل أن وجوه التماثل في النظام الصوتى بين اللغات التى تنتمى الى أسرة واحدة تخضع لقوانين صوتية صارمة ، ومن أشهر هذه القوانين قانون جريم ، وسنعرض لبعض هذه القوانين عند الحديث عن علم

---

(١) أنظر : الفصائل اللغوية مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة حـ٢٠،٢١،٢٢

(٢) أنظر : (باى) ماريو أسس علم اللغة ص ١٤٠ - ١٧٧ .

اللغة في القرن التاسع عشر .

وقد استعار علماء اللغة المقارنون الطراز المعروف في الطبيعة wave theory ليشرحوا كيف تتطور أشكال الكلام من لهجة الى لهجة أو من لغة الى لغة ، وكيف تنتشر عبر مناطق واسعة للغات المنتمية الى أسرة واحدة مثل الموجات التى تنشأ في الماء بعد القاء حجر في وسطه(١) .

علاقة علم اللغة المقارن بعلم اللغة الوصفى والتاريخى :

علم اللغة المقارن يعتمد على المنهج الوصفى ، لأنه يتطلب القيام بدراسة وصفية مستقلة لكل لغة يتم مقارنتها بلغة أو بلغات أخرى ، والدراسة المقارنة هى شكل من أشكال الدراسة التاريخية لأن تشعب اللغة الأم أو الأصل الى لغات انما هو تطور تاريخى .

---

(١) See, Hartmann and strok, Dictionary of Language and Linguistics

المبحث الرابع

علم الجغرافية اللغوية (علم اللهجات)

الجغرافية اللغوية Linguistic Grogrphy أو علم اللهجات Dialectology فرع من فروع علم اللغة يعنى بتحليل ووصف التنوعات المحلية أو الاجتماعية أو الزمنية للغة معينة مبينا كيف تختلف هذه التنوعات في النطق أو في القواعد (صرفية أو نحوية) أو في المعجم ، وكيف تتوزع هذه التنوعات الجغرافية(١) .

ان البحوث الشاملة للغات الحديثة والقديمة في أوربا قد أوضحت أن اللهجات المحلية المتنوعة والتى ينبغى ألا تعد نقصا أو تشويها للغات الأدبية الفصحى (كما كان يعتقد من قبل) هذه اللهجات تطورت ـ بشكل ما ـ تطورا مستقلا ، انها ليست أقل نظاما ، ان لها بنيتها ونماذجها الخاصة ، ولها نطقها ومعجمها الخاص ، انها ليست أقل ملاءمة كوسيلة للاتصال في المواقف التى تستخدم فيها .

لقد أصبح من الواضح أن الفروق بين اللغـات واللهجات ذات الصلة الوثيقة بها هى في معظمها فروق سياسية وثقافية أكثر منها لغوية ، ان ما يعرف باللغات الانجليزية الفصحى أو الفرنسية الفصحى ٠٠ ما هى الا لهجات أصبح لها من الناحية التاريخية أهمية سياسية وثقافية ، وأوضح الأمثلة على ذلك أن لهجة روما والمناطق المحيطة بها قد انتشرت ونمت في الامبراطورية الرومانية، وأصبحت اللغة التى يطلق عليها اللاتينية ، ليس ثمة شيء البتة في بناء اللاتينية نفسها يفسر هذا التطور(٢) .

---

(١) Hartmaun and stork, Dictonary of Language and Linguistics

(٢) See, Lyons, Inttoduction to theoretical Linguistics, p.p. 34, 35

وقد ألمحنا من قبل الى أن علماء اللغة في مطلع القرن العشرين قد قاوموا الاتجاه الذى كان سائدا في القرن التاسع عشر الى الدراسة التاريخية الخالصة، ووجهوا الاهتمام الى دراسة اللغات الحية المعاصرة .

وأكثر جوانب الدراسة اللغوية قيمة وحيوية اليوم دراسة اللهجات أى تنوع الأشكال اللغوية والمقارنة بينها في لغة معينة ، وهى دراسة معاصرة أى تدرس اللغة في حالتها الراهنة ، والتركيز فيها موجه الى الكلام المنطوق ، بل قد تستبعد الكتابة بالكلية ، بل ان اتجاهات جديدة ظهرت تميل الى العناية بدراسة اللهجات الاجتماعية بعد أن كان الاتجاه العام هو دراسة اللهجات المحلية وتأليف الأطالس(١) .

الجغرافية اللغوية وعلم اللغة الجغرافي :

قبل أن يمتد بنا البحث في القضايا والمشكلات التى تتصل بالجغرافيـــة اللغوية نود أن نحدد علاقة هذا العلم بعلم آخر حديث الوجود هو علم اللغة الجغرافي .

وهذا العلم ـ كما يقرر (ماريو باى) يصف بطريقة علمية وموضوعيـة توزيع اللغات في مناطق العالم المختلفة ليوضح أهميتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والاستراتيجية والثقافية ، ويدرس كذلك طرق تفاعل اللغـــات بعضها مع بعض وكيفية تأثير العـــامل اللغوى على تطور الثقـافة والفكر الوطنيين . ومظاهر تطبيقه الحديثة تبدو ـ الى حد كبير ـ وصفية جغرافية اجتماعية ، ان أى لغة تملك عددا من المتكلمين قل أو كثر تتوزع في منـاطق مختلفة من العالم ضاقت أو اتسعت ، انها تستعمل في مجال الانتاج وتسويق البضائع وخلق القيم الثقافية ، وهى تحمل ـ الى جانب ذلك ـ نفوذا سياسيا

---

(١) See, Crystal, Linguistics, p. 158

وعسكريا في مناطق معينة ، هذه العوامل تبرر القيمة العملية للغة(١) .

والمعلومات المفصلة التى يقدمها علم اللغة الجغرافي على جانب كبير من الأهمية للغويين المتخصصين وغيرهم انه لمن الأهمية بمكان للمتعلم الجامعى ـ على الأقل ـ أن يعرف أن البرتغالية تتكلم في البرازيل ... وأن الألمانية والروسية ـ أكثر من الانجليزية والفرنسية ـ يمكن أن تستعملا الآن كلغات بديلة في المجر وتشيكوسلوفاكيا ... هذه المعلومات ذات طابع عملى بيد أن لهذا العلم أيضا طابعا علميا ، انه يتناول ـ في تفصيل ـ لغات المناطق المتنوعة على وجه الأرض ، وكيف يمكن الاستفادة منها أو احلال غيرها محلها ، وماذا تمثل من وجهة النظر العملية للرجل العسكرى والموظف الحكومى والباحث العلمى والفنى والمبشر وقوات الأمن الدولية ولسرعة تحركات هذه الطبقات ونحوها فانه لا يكفى أن يعرف الفرد منهم معلومات سريعة عن لغات منطقة معينة ، انهم يجب أن يلقنوا بعض معلومات عن لغات مناطق أخرى ربما تعرضوا للانتقال المفاجىء اليها ، وأهم من هذا ضرورة اعداد دراسات مفصلة وعمل احصاءات عن اللغات والأمية ، والمركز التعليمى لمناطق العالم المختلفة ، وكذلك اعداد علماء لغة جغرافيين مدربين يمكنهم أن يسايروا التطورات السريعة المتوقعة في هذا الحقل ، وهذه المعلومات أكثر فنية مما قد يبدو للنظرية السطحية(٢) .

وعلم اللغة الجغرافي ـ وان كان يستخدم كثيرا من مصطلحات علم اللغة الوصفى والتاريخى ـ يختلف عنهما في الهدف ، لأنه يغطى ـ بشىء من التفصيل ـ الوضع الحالى للغات عاقدا المقارنة بينها على ضوء العوامل الموضوعية الحديثة مثل عدد المتكلمين والتوزيع الجغرافي واحتمالات الاستفادة منها وأهميتها التجارية والعلمية والسياسية ... في اطار عالمنا الذى نعيش فيه . ولهذا يرى (ماريو باى) أن هذا العلم ليس تابعا الا من بعض الجوانب غير المباشرة لعلمى اللغة الوصفى والتاريخى ، وأنه يشكل حقلا خاصا

---

(١) باى (ماريو) أسس علم اللغة ص ٣٧ .
(٢) باى (ماريو) أسس علم اللغة ص ١٨٦ .

بنفسـه(١) .

ثم يقرر في موضع آخر أنه من الممكن أن يوصف هذا العلم بأنه التطبيق العملى الحديث لعلم اللغة مبينا أنه بينما يجد علمى اللغة التاريخى والوصفى لا يظفران بغير اهتمام اللغوى المتخصص يظفر علم اللغة الجغرافي باهتمام أى انسان تتاح له أى فرصة للذهاب الى خارج بلده ، أو لاقامة اتصالات أجنبية أو تشغله الحالة الدولية بوجه عام(٢) .

ليس اذا علم اللغة الجغرافي فرعا من علم اللغة الذى يدرس اللغة في ذاتها ولذاتها ، ومن ثم ينبغى أن نخرجه من مجالاته ، ونضعه في اطار علم اللغـة التطبيقى اطاره الصحيح .

علاقة الجغرافية اللغوية بعلوم اللغة الاخرى :

البأحث في اللهجات عادة ما يستخدم الأصول المقررة في علم اللغة بفروعه (الوصفى والتاريخى والمقارن) فهو يبدأ عادة بدراسة وصفية على محور المكان تقوم على جمع عينات من لغة الخطاب في المنطقة المراد دراستها ، ثم بعد ذلك يستخدم الطريقة المقارنة لدراسة الخلافات بين عينات متوازنة من حديث أفراد مختلفين ، وأخيرا يصل الى نتائج تاريخية تتعلق بتغيرات متوازنة ومتعارضة في نظام الحديث المستخدم في مناطق مختلفة وطبقات اجتماعيـة متباينة . ونظرا الى أن نتائج البحث في هذا الفرع من الدراسة اللغوية تقدم عادة في صورة سلسلة زمنية فان هذه الدراسة كثيرا ما تعتبر فرعا من علم اللغة التاريخى ولكى ينبغى ألا ننسى أنها تستخدم طرق الدراسة الوصفية والمقارنة أيضا(٣) .

---

(١) أنظر : باى (ماريو) أسس علم اللغة ص ٦٤ ، ١٨٦ .

(٢) باى (ماريو) أسس علم اللغة ص ٣٨ .

(٣) بدوى (د. السعيد) محاضرات في علم اللغة ص ٣٤ (مخطوط)وليس من الضرورى أن تتم المقارنة بين لغتين ، بل يمكن أن تكون بين مرحلتين زمنيتين أو مكانين في لغة واحدة .

وأغلب الباحثين يميلون الى اعتبار الجغرافية اللغوية أو علم اللهجات فرعا من فروع علم اللغة ، بيد أن بعض الباحثين يرى أنها من (علوم الاتصال)، لأنها تستخدم مادة مستقاة من ميدان دراسات أخرى الى جانب ميادين الدراسات اللغوية الحقيقية ، وأهم هذه الميادين التاريخ والاقتصاد وعلم الاجتماع ، وفي الواقع فان الخغرافية اللغوية لا تستقى من هذه الميادين فحسب بل انها تسهم فيها بقدر من المساعدة أيضا ، فالأطالس هى في الواقع كنز من المعلومات عن تاريخ الهجرات والتنقلات السكانية وعن العادات والتقاليد الاجتماعية للطوائف المختلفة وغير ذلك من الأمور التى تهم علم الاجتماع(١) .

وموضوع الجغرافية اللغوية أو علم اللهجات هو دراسة التنوع اللغوى في اللغة الواحدة ، وتوصف اللهجة بأنها جغرافية أو محلية اذا استخدمها جماعة من الناس يقيمون في منطقة جغرافية محددة ، وتوصف اللهجة بأنها اجتماعية اذا استخدمتها طبقة محددة في اطار الجماعة اللغوية المعينة .

وعلماء اللهجات حين يتحدثون عن لهجات اجتماعية يشيرون الى عوامل غير جغرافية ، وبسبب هذه العوامل قد نجد في لغة المتكلم ظواهر لغوية مشتركة مع ناس آخرين من طبقته الاجتماعية في منطقة جغرافية مختلفة أكثر مما يكون بينه وبين طبقة أخرى في نفس المنطقة(٢) .

ف (ا) من الناس ينتمى الى اللهجة المحلية (ع) باعتبار المنطقة السكنية التى يقطنها ، وينتمى الى اللهجة الاجتماعية (ل) باعتبار المهنة التى ينتمى اليها وهى المحاماة مثلا ، سوف نجد ظواهر لغوية مشتركة بينه وبين غيره من المحامين الذين يقيمون بمناطق أخرى ويتحدثون لهجات محلية أخرى - أكثر مما بينه وبين طبقة العمال الذين يقطنون منطقته السكنية وينتمون الى لهجته المحلية .

وهناك أيضا ما يسمى بلهجة الفرد Idiolect وهى شكل لغوى يميز

---

(١) بدوى (د. السعيد محاضرات في علم اللغة ص ٣٤ .

(٢) Hudson, Socio Linguistics. p. 43

فردا عن فرد آخر في جماعة لغوية واحدة .

ومن أهم العوامل المؤثرة في لهجة الفرد العوامل البيولوجية ، اذ لا تعمل أعضاء النطق بطريقة واحدة في كل الظروف ، والعوامل الاجتماعية ، اذ ان لكل فرد من أفراد المجتمع علاقاته الاجتماعية التى يتخذ النشاط اللغوى فيها دورا رئيسيا ، وبهذا يصبح الفرد عضوا في حلقات لغوية متعددة يأخذ منها وتأخذ منه ، يتأثر بها ويؤثر فيها ، وكلما اتسع مجال علاقاته اتسع معجمه وتنوعت خصائصه التركيبية ، وربما كان الفرد ميالا الى العزلة فتضيق دائرة اتصاله ومن ثم تقل حصيلته ولا تتنوع أشكاله اللغوية .

ومن العقبات التى اعترضت الباحثين في اللهجات صعوبة وضع تفريق حاسم بين اللغة واللهجة ، وقد وضعوا لذلك معايير منها :

المعيار السياسى : والقائلون به يفترضون أن كل الأفراد المنتمين الى دولة معينة يستخدمون لغة محددة واحدة هى التى ينص عليها دستور الدولة . وقد أبدى اللغويون اعتراضات قوية على هذا المعيار لأننا قد نجد في اطار الدولة الواحدة لغتين أو أكثر ، ففى فرنسا مثلا يتحدث بالفرنسية والبريتانية ولغة الباسك ، وليس من الانصاف أن يقال ان الذين يتحدثون بالبريتانية في فرنسا يتحدثون بالفرنسية .

معيار التفاهم المشترك : والقائلون به يلاحظون أن التفاهم يتحقق بين الذين يتحدثون لغة واحدة ، ولا يتحقق بين الذين يتحدثون لغات مختلفة ، وقد تبين للغويين أن هذا المعيار غير دقيق ، ومثلوا لذلك بأقاليم يستطيع سكانها التفاهم مع جيرانهم المباشرين الذين يقيمون في الطرف الآخر من الحدود السياسية لوطنهم دون صعوبة تذكر ، وهذا هو الحال في مناطق الحدود بين ايطاليا وفرنسا ، فسكان هذه المناطق على جانبى الحدود يستطيعون التفاهم فيما بينهم دون صعوبة على حين يجدون صعوبة كبيرة في التفاهم مع مواطنيهم في المناطق البعيدة .

ولعل أفضل الحلول التى اقترحها اللغويون المعاصرون هو الاعتماد على

شعور الفرد بالانتماء الى لغة أو لهجة معينة ، فأنا أتكلم العربية لأننى أعد نفسى فردا من جماعة المتكلمين بها ، وأتكلم اللهجة القاهرية ، لأننى أعد نفسى فردا من المتكلمين بها ، ولا تعارض في انتسابى الى اللغة العربية باعتبار والى لهجة القاهرة باعتبار آخر . وأفراد الجماعة التى تعد نفسها متحدثة بلغة معينة أو لهجة خاصة يكون لهم ثقافة واحدة تتمثل في تقاليد ومعتقدات .. مشتركة ، كما أنهم يكادون يتحدثون بطريقة متشابهة ، انهم متفقون ضمنا على قدر من الخواص اللغوية ، وبعبارة موجزة : لديهم صورة مثالية لما ينبغى أن تكون عليه ثقافتهم ولغتهم ، وهم جميعا يحاولون الوصول الى هذه الصورة المثالية وان تفاوتوا في ذلك(١) .

وقد برزت مشكلة أخرى أمام علماء اللغة منذ القرن التاسع عشر مشكلة وضع حدود فاصلة بين اللهجات وذلك حين نشط البحث في عمل الأطالس اللغوية ، كان هؤلاء العلماء يدرسون التوزيع الجغرافي للظواهر اللغوية مثل الكلمات المترادفة (أسد وسبع وليث .. الخ) أو صور النطق المختلفة للكلمة (قال وجال وآل) وكانوا يضعون نتائجهم على خرائط تبين الأشكال الموجودة في القرى خاصة ، لأن هذه الأشكال كانت تنحو الى أن تتمركز في القرى ، وكان العلماء يتجنبون لهجات المدن لتعقد ظواهرها وتغيرها المستمر ، وكانوا يرسمون خطا يفصل المنطقة التى يظهر فيها شكل لغوى معين عن المنطقة التى يظهر فيها شكل آخر ، ويعرف هذا الخط بخط التوزيع isogloss .

واكتشف العلماء أن خطوط التوزيع كثيرا ما تتقاطع وهذا معناه أن المنطقة التى تنتشر فيها ظاهرة معينة تختلف عن المنطقة التى تنتشر فيها ظاهرة أخرى ، ولكنهم تبينوا أيضا أن بعض الظواهر اللغوية تتماثل خطوط توزيعها ، ومن هنا نتبين أن لكل ظاهرة لغوية خط توزيع خاص بها ربما يتقاطع أويتطابق مع أى ظاهرة لغوية أخرى .

يقول (فندريس) : أصبح اليوم من المقرر أن الخصائص اللغوية لا

---

(١) أنظر كتابى (مدخل الى اللغة) ص ٢٢٠ ـ ٢٢٨ .

ينسجم بعضها مع بعض من حيث التوزيع ، وبعبارة أخرى ان الخطوط التى تفصل بين خاصية وأخرى ليست هى نفس الخطوط التى تفصل بين خاصيتين أخريين، ويكفينا للتحقق مما نقول أن نرجع الى احدى الخرائط اللغوة لاستيضاحها ، فأطلس فرنسا اللغوى يعطينا عن كل حالة حدودا مختلفة(١) .

ولعل هذا هو ما جعل بعض اللغويين يذهب الى أن اللهجات لا وجود لها يقول (ماريو باى) : ان كان من الممكن أن تصنف اللهجات الى وحدات كبيرة على أساس من سماتها العامة فان البحث الدقيق قد أثبت أن مثل هذا التصنيف ـ على الرغم من فائدته ـ من صنع الخيال الى درجة كبيرة(٢) .

ولكننا نجد لغويين آخرين يعترفون بوجود اللهجات على أساس السمات المشتركة يقول (ميبه) : من حقنا أن نتكلم عن وجود لهجات كلما رأينا عددا كبيرا من الخطوط التى تفصل بين الخصائص ينطبق بعضها على بعض ولو بشكل تقريبى ، فهناك لهجة محددة في كل منطقة يلاحظ فيها وجود خصائص مشتركة ، وحتى عندما لا يمكن رسم خطوط دقيقـــة للفصل بين منطقتين متجاورتين فانه يبقى أن كلا منهما تتميز في مجموعها ببعض السمات الخاصة التى لا توجد في الأخرى(٣) .

اللهجات اذا موجودة مادامت السمات العامة موجودة ، والخط الفاصل بين لهجة وأخرى ممكن اذا كانت عدد خطوط التوزيع المتطابقة للظواهر اللغوية أكبر من عدد الخطوط المتقاطعة .

الأطلس اللغوى

يعرف الأطلس اللغوى بأنه مجموعـة من الخرائط واللوحـات توضح

---

(١) فندريس : اللغة ترجمة عبد الحميد الدواخلى ص ٣١٠ .
(٢) أسس علم اللغة ص ٦٩.
(٣) فندريس : اللغة ص ٣١٢ .

التوزيع الجغرافي للخصائص الصوتية أو النحوية أو المعجمية للغة أو لهجة أو لكليهما ، ويجمع مادته باحثون مدربون تدريبا ميدانيا من رواة مختارين بعناية من بين المتحدثين باللغة أو اللهجة المدروسة من خلال الأحاديث العادية أو الاجابة عن أسئلة أو الاستعانة بأشرطة التسجيل ، ثم تسجل هذه البيانات على خرائط وتنشر في كتاب(١) .

والأطلس اللغوى ـ كما واضح من التعريف ـ قد يكون أطلس لغات يعنى بتوزيع اللغـات والفصائل توزيعـا جغرافيا على منطقـة أو أكثر من الكرة الأرضية ، وقد يكون أطلس لهجات يعنى بتوزيع الظواهر اللهجية للغة معينة في منطقة معينة .

وأطالس اللغات لا تتطلب في كثير من الأحيان عملا ميدانيا يستلزم منهجا خاصا اذا استثنينا دراسة بعض حالات التماس اللغوى Language in contact

وأطالس اللغات لا تتطلب في كثير من الأحيان عملا ميدانيا يستلزم منهجا

ولهذا فان هذه الأطالس عادة أقل تعقيدا وأسهل انجازا حتى في هذه الحالة الأخيرة . أما أطالس اللهجات فهى التى تحتاج حقا الى عمل ميدانى معتمد على منهج خاص يتجه وجهتين الأولى : جمـع المادة والثانية انجاز الخرائط وتوزيع الخصائص اللهجية على الرسـوم التوضيحيـة بأنواعها المختلفة(١) .

ومن الواضح أن الباحث اللغوى حين يجمع مادته من الرواة ويسجلها في الخرائط يقوم بعمل لغوى وصفى قائم على تسجيل الواقع اللغوى تسجيلا أمينا ، كما أن موضوع الأطلس ليس مقصورا على الناحية اللغوية بل يستعان به على الدراسات الاجتماعية والتاريخية على أساس أمتن وأشمل .

وقد بدأ العمل في الأطالس اللغوية في النصف الثانى من القرن الماضى

---

(١) Hartmann and stork, Dictionary of Lauguage and Linguistics

(١) أنظر : (د. سعد) عن مناهج العمل في الأطالس اللغوية ص ١٠٧، ١٠٨.

في بعض الخرائط التى أنجزها (فنكر) الألمانى ، فيما يعرف بين الباحثين بالأطلس الألمانى ، وخلاصة منهجه أنه ألف أربعين جملة تمثل أهم ما يجرى على ألسنة الناس في حياتهم اليومية من كلام مثل (تسقط أوراق الشجر في الشتاء وتتناثر في الهواء) و (ضع شيئا من الفحم في الفرن حتى يغلى اللبن) . وطبعها في شكل استمارة بها بيانات خاصة تتصل بالجهة التى سمعت فيها الظاهرة المدروسة وبالراوى الذى نقلت عنه وبالمسجل الذى سمعها ودونها (مع تحديد أسم الراوى وسنه ومهنته ومحل ميلاده وكذلك المسجل) .

وقد أرسلت نسخ من الاستمارة المذكورة المشتملة على الجمل الأربعين الى جهات ألمانية ظلت تزداد شيئا فشيئا حتى بلغت في النهاية خمسية ألف جهـة .. أما المسجلون الذين سمعوا اللهجات من أفواه الرواة ودونوها فكانوا في معظم الأحيان من معلمى المدارس الأولية نظرا لمعرفتهم بأحوال القرى التى ينزلون فيها ، واتصالهم بأهلها عن كثب ثم لثقافتهم التى أهلتهم لتسجيل النطق وتصويره تصويرا قائما على أساس واحساس لغوى لا بأس بهما ولا غبار عليهما في معظم الحالات .

وبعد أن تجمع هذه الاجابات يبدأ بعمل خريطة لكل لفظ على حدة ، وذلك بأن تفرغ أولا صورة اللفظ وصيغه ومترادفاته على خرائط تفصيلية تشتمل على بلاد الاقليم جميعها ، ثم تحدد عليها المناطق اللغوية المختلفة ، وبعد ذلك ترسم الخريطة على ضوء الخرائط المفصلة بل على أساسها ، ويبين على هذه الخريطة العامة الحدود النهائية للمناطق اللغوية على وجه الاجمال(١) .

وقد دونت الجمل المذكورة حسب قواعد الاملاء العادية وكانت طبيعتها أميل الى كشف بعض الفروق الفونولوجية بين حوالى أربعين ألف لهجة ، أما الفروق الصرفية والمعجمية فلم تحظ بعناية كبيرة .. ولم يكن المسجلون الذين دونوا الجمل المذكورة من ذوى الخبرة والاختصاص في الدراسة اللغوية .. ومع هذه المآخذ فقد كان لهذا الأطلس قيمة عظيمة من حيث انه كان بداية العمل في هذا المجال الجديد .

---

(١) عساكر (د. خليل) الأطلس اللغوى ص ٣٨١ ، ٣٨٢ .

أما الأطلس الفرنسى فقد كان أسعد حظا فقد نشر كاملا ، وقد أعده (جييرون) وقام بالجمع (أدمون) وكان عالما صوتيا مدربا .

أما طريقة هذا الأطلس وهى الطريقة السـائدة الآن في عمل الأطالس فخلاصتها أن تعمل خريطة للاقليم المراد عمل أطلس له وتنتخب منه قرى وبلاد يلاحظ في كل منها أن تمثل الى حد ما البيئة اللغوية التى توجد البلدة أو القرية فيها ، وكان عدد النقاط التى تم الجمع منها ٦٣٩ نقطة في مقابل ما يقرب من من خمسين ألف في الأطلس الألمانى .

وقد تم الجمع وفقا لكتاب خاص يعرف بكتاب الأسئلة يتضمن ما يقرب من ألفى سؤال يتوخى فيها أن تكون شاملة لأهم الأشياء التى تشاهد في الريف والمدينة ، ولأكثر الألفاظ شيوعا في الحياة اليومية ، كما يتوخى فيها أن تكون الاجابة عنها بكلمة واحدة في أغلب الأحيان كأسماء الأهل والأقارب وأعضاء البدن وأسماء الصناعات والاعداد والظواهر الجوية ٠٠ الخ .

أما الراوى اللغوى الذى توجه اليه الأسئلة فيجب أن يراعى فيه أن يكون من صميم أبناء البلدة التى يعيش فيها ، وألا يكون قد نزح عنها ثم عاد اليها ، وأن يكون صريحا صادقا مخلصا في اجاباته ، وأن تكون مخارج حروفه سليمة، وأن يكون تام القدرة على فهم السـؤال والتعبير عن نفسـه وعلى ادراك المراد ٠٠(١) .

والمادة المجموعة للأطلس مدونة بالرموز الصوتية الدولية ، وقد كانت معطياتها الصوتية والمعجمية أوفر من نظيرتها في الأطلس الألمانى ، كما أن الباحث الذى قام بالجمع كان على درجة عالية من الكفاءة ، وقد أخذ عليه قلة عدد النقاط المختارة للجمع ، ومع ذلك صار الأطلس الفرنسى مثلا يحتذى من حيث أسسه العامة في كثير من المشروعات اللاحقة بسبب ما اسـتطاع تحقيقه من مستوى مرض من حيث الدقة في الجمع والتسجيل(٢) .

---

(١) أنظر : عساكر (د. خليل) الأطلس اللغوى ص ٣٨٣ .

(٢) أنظر مصلوح (د. سـعد) عن منـاهج العمل في الأطالس اللغويـة ص ١١١ ، ١١٢ .

وقد كان الأطلس الفرنسى هو المثل الذى احتذاه المشرفون على الأطلس الايطالى من حيث الجمع المباشر الذى قام به ثلاثة من اللغويين المدربين معتمدين على كراسة الاستفتاء الموضوعة بعناية ودقة والمبوبة تبويبا شاملا يتناول أهم ما يتصل بالحياة اليومية من ألفاظ ، ولكن اللغويين الايطاليين أضافوا بعدا جديدا في عملية الجمع اذ حاولوا ارساء مبادىء يفسرون بها تعقد الظاهرة اللغوية . فأرادوا أن يصوروا الى جانب اللهجات المحلية Local Dialect جانبا من اللهجات الاجتماعية Social Dialect ،ولذلك نلحظ أن هذا الأطلس أولى اهتماما أكبر لمظاهر الاختلاف في الثقافة التى تصاحب الاختلاف في اللهجة ، وكانت وسيلته الى ذلك أن ينتقى من كل نقطة راوين يمثل كل منهما مستوى ثقافيا خاصا .

وقد نشر الأطلس الايطالى فيما بين عام ١٩٢٨ و ١٩٤٠ في ستة عشر مجلدا(١) .

أما منهج العمل الميدانى في الأطلس الأمريكى - كما يقول الدكتور سعد مصلوح - فحصيلة التجارب المستفادة من الأطالس السابقة ، فهو ثمرة لهذه العوامل والجهود جميعا . وقد قام بعملية الجمع تسعة من الباحثين تلقوا تدريبا ميدانيا على يد (يعقوب يود) محرر الأطلس الايطالى ، وكانت المادة المجموعة مسجلة بالرموز الصوتية الدولية مع اضافة عدد من العلامات اقتضاها التسجيل .

وقد بلغ الرواة ٤١٦ راويا ، وقد حرص الأطلس عند اختيارهم أن يمثلوا فئات المجتمع تمثيلا صحيحا ، فكان ينتخب في معظم الأحوال ثلاثة من الرواة يختلفون فيما بينهم سنا وثقافة .

والنظرة الاجتماعية واضحة في الأطلس الأمريكى ، فقد آمن محرروه بتعقد الظاهرة اللغوية ايمانا عظيما .

---

(١) مصلوح (د. سعد) عن مناهج البحث في الأطالس اللغوية ص ١١٢ ، ١١٣ ، ١١٤ ، ١١٥ .

وكان الباحثون يسجلون مشاهداتهم الخاصة وملاحظاتهم على المتكلم والبيئة والتقاليد والعادات السائدة فيها ٠٠ وكل ما يستأنس به في التحليل العلمى للنص اللغوى المسجل ، كما كانوا يشيرون الى ما كان يبديه الراوى من ملاحظات على الصيغة اللغوية من حيث ندرتها أو استعمالها في مواقف خاصة أو غير ذلك من الأمور التى تخدم تقييم الصيغة ، هذا الى جانب وصف العوامل المحيطة كالطقس الطبوغرافي والحياة الحيوانية والنباتية تلك التى تؤثر على اللهجات في منطقة ما .

وقد تعرض الأطلس الأمريكى ـ على الرغم مما بذل فيه من جهد ـ لنقد شديد وبخاصة ما يتصل بالجانب الاجتماعى الذى أولاه عناية كبيرة ، وبالمدة الطويلة التى استغرقها اعداده حتى ظهرت أجزاؤه الأولى اذ بلغت نحو سبعة وعشرين عاما تقدمت فيها أساليب الدراسة الاجتماعية واختلفت في أثنائها نظرة المجتمع الأمريكى الى الحياة ، وببعض التفسيرات الانطباعية لبعض الصيـغ اللغوية والفروق بين اللهجات(١) .

وبتقدم العلوم الاجتماعية وباستخدام الاحصاء تطورت كثيرا الأساليب المستخدمة في اعداد كراسة الاستفتاء اللغوى ، كما وضعت صورة للراوى اللغوى أقرب الى تمثيل الواقـع اللغوى من الصورة التى وضعها أصحاب الأطالس الرواد . وقد تحدثنا في المبحث الأول من الباب الأول من هذا الكتاب في هذا الموضوع .

---

(١) مصلوح (د. سـعد) عن منـاهج البحث في الأطالس اللغويـة ص ١١٢ ، ١١٣ ، ١١٤ ، ١١٥ .

(١) [illegible]

المبحث الخامس

علم اللغة العام

يضم علم اللغة العام General Linguistics كل فروع البحث اللغوى التى تزودنا بالمفاهيم الأساسية والنظريات والطرز والمناهج . وهو ـ عادة ـ يشكل مبادىء الوصف والتحليل في مجال البحث في الفونولوجيا والقواعد (النحو والصرف) والمعجم والرموز الهجائية ، كما يعنى أيضا بالبحوث التاريخية والمقارنة والبحوث اللهجية والتطبيقية(١) .

وعلى هذا فعلم اللغة العام هو العلم الذى يقدم لنا النظرية التى تفسر اللغة الانسانية ، ويقدم الينا المناهج التى ندرسها . وكثيرا ما يكتفى الباحثون بالعبارة (علم اللغة Linguistics)ويريدون بها (علم اللغة العام) .

والأساس النظرى لهذا العلم هو أن اللغة ظاهرة انسانية تستخدمها كل المجتمعات لأداء وظائف محددة ، وبناء هذه اللغات يتألف ـ بشكل عام ـ من أصوات تنتظم في كلمات ، والكلمات تتألف منها جمل ، والبشر أجمعون يستخدمون لغاتهم في التعبير عن أفكارهم أو رغباتهم أو توصيلها الى الغير وفي قضاء الحاجات والمصالح .

وعلم اللغة العام يهدف الى وضع نظرية في اللغة ، ونظرا لهذه الطبيعة النظرية أطلق عليه بعض الباحثين (علم اللغة النظرى Theoretical Linguistics

وقد فهم علم اللغة العام ـ غالبا ـ على أنه يعنى علم اللغة الوصفى ، على أنه اعتبار أنه ـ بالمعنى الواسع ـ أى دراسة تلاحظ وتحلل الخواص

---

(١) See, Hrrtman and stork, Dictonary of Language and Linguitics

الصوتية أو الصرفية أو النحوية أو المعجمية للغة ، وان كان العلماء الآن يحرصون على التفريق بينهما .

وعلم اللغة العام يعتمد في وضع نظرياته ومناهجه على ما تصل اليه علوم اللغة المختلفة ، والعلوم اللغوية هى الأخرى تعتمد على نظرياته ومناهجه. فعلم اللغة الوصفى - كما سبق القول - يهدف الى وصف اللغة المدروسة وصفا علميا دقيقا ، وهو في سبيل ذلك يعتمد على نظرية في اللغة ، وعلم اللغة العام يستفيد من الحقائق التى ينتهى اليها علم اللغة الوصفى ، وهكذا الأمر بالنسبة الى علم اللغة التاريخى والمقارن .

وفي هذا المجال يقرر (دينين) أن التفاعل بين علم اللغة الوصفى والتاريخى والمقارن سوف ينجم عنه نظرية لغوية عامة قد يستخدمها علم اللغة التطبيقى في مجالاته المتنوعة . ان اللغوى الوصفى - دون معرفة بنظرية لغوية- لن يكون في موقع مناسب لكى يختار وحدات الوصف بذكاء واقتدار .... كما أن النظرية اللغوية التى يهدف اليها عالم اللغة النظرى سوف تكون نتيجة خبرة واسعة في علم اللغة الوصفى والتاريخى والتطبيقى(١) .

(١) See, Dinneenn, An Introduction to general Linguistice, p. 3

المبحث السادس

الفيلولوجيا وعلم اللغة

سبق أن قلنا ان علم اللغة Liuguistics هو الدراسة العلمية للغة ، وانه بهذا التعريف قد كان من آثار العالم السويسرى (دى سوسير) الذى قرر أن موضوعه هو اللغة في ذاتها ومن أجل ذاتها . غير أن مفهوم هذا المصطلح Linguistics يختلط بمفهوم مصطلح آخر أقدم منه استعمالا في مجال دراسة اللغة هو (الفيولوجيا) Philology الذى قد يرادفه عند بعض الباحثين . ومن هنا فالحاجة ماسة الى بيان الفرق بين المصطلحين ، وهذا يقتضى بدوره أن نعود الى الماضى البعيد لنستكشف هذا الفرق .

كانت حضارة الاغريق والرومان هما دعامتا النهضة الأوربية ، وكان الأوربيون يرون أن نهضتهما لم تكن الا ميلادا أو بعثا جديدا لتراث اليونان الذى تمثل في فلسفتهم وفي دراستهم اللغوية ، وتراث الرومان في القانون والادارة وفي الدراسات اللغوية التى كتبت باللاتينية لغة الامبراطورية الرومانية .

ولا جرم وهاتان اللغتان بهذه الأهمية أن تنصرف الهمم الى احياء دراستهما ونقد ما جاء بهما من نصوص قديمة نقدا لغويا في طابعه ، وأصبحت هذه الدراسات الشارحة والناقدة للنصوص القديمة باللغتين المذكورتين تعرف باسم (الفيولوجيا) Philology ، وبهذا المعنى أصبح لفظ (الفيلولوجيا) يعنى دراسة النصوص القديمة من حيث القاعدة ومعانى المفردات وما يتصل بذلك من شروح ونقد واشارات تاريخية وجغرافية .. الخ وكان عنصر (القدم) من أهم العناصر التى يتكون منها معنى الفيلولوجيا (١) .

---

(١) أنظر : حسان (د. تمام) الأصول ص ٢٥٢ .

وفي نهاية القرن الثامن عشر اكتشف أن السنسكريتية لغة الهند القديمة المقدسة لها علاقة لغوية باللاتينية وبلغات أخرى في أوربا ، وقد اكتشف هذه العلاقة عدد من الباحثين ، بيد أن السير (وليم جونز) كان أكثرهم تأثيرا ، اذ أعلن هذه الحقيقة عام (١٧٨٦م) حيث قال : ان اليونانية واللاتينية بينهما صلة وثيقة في جذور الأفعال وفي الصيغ النحوية بحيث لا يمكن أن نغزو هذه القرابة الى مجرد الصدفة ، ولا يسع أى (لغوى Philologer) بعد تفحصه هذه اللغات الا أن يعترف بأنها تتفرع من أصل مشترك لم يعد له وجود ٠٠ وقرب نهاية القرن التاسع عشر كانت قد توفرت للباحثين معلومات كافية عن لغات كثيرة ذات بنية مختلفة ليدركوا في الحال أن وجوه الشبه الملحوظة بين اللغات الكلاسيكية في أوربا والسنسكريتية واضحة جدا بحيث لا تحتاج الى توضيح(١).

ومنذ هذا التاريخ بدأ يظهر ما يسمى Comparative phioloyg (الفيولوجيا المقارنة) . وكانت دراسة السنسكريتية وعلاقتها باللغات الهندية الأوربية تعتمد على النصوص المكتوبة ، ومن هنا عنى الفيلولوجيون بتحقيق هذه النصوص وشرحها والمقارنة بينها .

وهكذا يمكن أن يقال أن (الفيلولوجيا) كانت تعنى أمرين :

١ ـ الدراسة المقارنة للغات .

٢ ـ تحقيق النصوص وشرحها .

ونظرا لأن دراسة النصوص القديمة ـ وقد كانت معظمها ذات مكانة أدبية ممتازة ـ كان يتطلب معارف كثيرة تتصل بتاريخ الشعب وثقافته وبالعلوم والفنون التى يبتدعها وما الى ذلك مما يساعد في توثيق النصوص وشرحها ، فان الفيلولوجى كان يدرس هذه الموضوعات أيضا ، ولذلك فهمت الفيلولوجيا على أنها تعنى ـ بالاضافة الى ما سبق ـ دراسة الأدب والحضارة .

يقول (روبنز) : وربما جاز أن نعد اسطلاح Phiology بهذا الاستعمال

---

(١) See, Lyons, Introduction to theoretical Liuguistics, p. 24

مناسبا لما يربط بين علم اللغة باعتباره علما وبين الدراسات الجمالية والانسانية للأدب وللميدان الذى يعتمد فيه مؤرخ مظاهر الحضارة المختلفة على نتائج عالم اللغة في فهم النصوص والنقوش وفي وضع أسس معتمدة من المخطوطات والوثائق والمواد لتكون دعامة لدراسته ، والصلة بين علم اللغة والفيلولوجيا بهذا المعنى قريبة جدا وكثيرا ما يتلاقى ميدانهما(١) .

وفي التفريق بين مجال علم اللغة والفيلولوجيا يقول (ماريو باى) ان موضوع الفيلولوجيا Philology لا يختص بدراسة اللغات فقط ، ولكنه يجمع الى ذلك دراسات تشمل الثقافة والتاريخ والتقاليد والنتاج الأدبى للغات موضوع الدراسة ، أما علم اللغة Linguistics فيركز على اللغة نفسها ، ولكن مع اشارات عابرة أحيانا الى قيم ثقافية وتاريخية ، ويولى علم اللغة معظم اهتمامه الى اللغة المتكلمة ، وان كان يوجه كذلك الى اللغة المكتوبة شيئا من الاهتمام(٢) .

الفيلولوجيا وعلم اللغة المقارن :

ينظر علماء اللغة المعاصرون الى علم اللغة المقارن على أنه تطور للفيلولوجيا المقارنة ، ولهذا قال (هارتمان وستورك) ان الفيلولوجيا هى المصطلح القديم لعلم اللغة المقارن(٣) .

ولا شك في أن علم اللغة المقارن (وهو فرع من علم اللغة كما ذكرنا من قبل) قد تقدم كثيرا عما كان عليه الحال في القرن التاسع عشر ، ومع ذلك فهو يعتمد في الأساس على المبادىء التى أعلنها الفيلولوجيون آنذاك . وفي هذا المجال يقول (ليونز) : ان علم اللغة المقارن Comparative Linguistic كفرع من علم اللغة العام علم تفسيرى ، انه يهدف الى شرح المقولة التى

---

(١) Robins, General Linguisties, An Introductorn syrvey, p. p. 6, 7

(٢) باى (ماريو) أسس علم اللغة ص ٣٥ .

(٣) Hartmann and Stork, Dictionary of Lauguage and Linguissics

مؤداها أن اللغات تتغير ، وأن اللغات المختلفة قد يكون بينها صلات قرابة على درجات متفاوتة ، ان التغيرات التى تخضع لها اللغات ودرجات القرابة المتعددة بينها تفسر على ضـوء فروض (مماثلة لأى فروض علميـة) قابلة للفحص والاختبار نتيجة لظهور دليل جديد أو تبنى منهج جديد في النظرة الى الموضوع أو اعادة تنظيمه ، ونحن الآن نقدم تفسيرا مختلفا للمصطلح تطور evolution عن التفسير الذى قدمه علماء القرن التاسع عشر ، ونفهم المصطلحات الآتية : القانون الصوتى Sound law واعادة البناء reconstruction والقياس analogy ، فهما مختلفا ، ولدينا ادراك أكثر وضوحا من أسلافنا بأن التغير اللغوى ليس ـ ببساطة ـ نتيجة لمرور الزمن بل انه كذلك نتيجة لظروف اجتماعية وجغرافية ، ونحن نسلم كذلك بأن اللغات يمكن ـ تحت ظروف محددة ـ أن تتقارب وتتباعد بمرور الوقت ، ومع هذا فلا تعديل من هذه التعديلات التى قدمها علم اللغة المقارن كاف لأن يلغى تماما المناهج أو النتائج التى قدمها علم اللغة المقارن في المرحلة القديمة(١) .

تأثير الفيلولوجيا في نشأة علم اللغة الحديث :

لقد ظهر لنا من الفقرات السابقة أن النتائج التى انتهى اليها الفيلولوجيون في القرن التاسع عشر كانت الأساس الذى انبنى عليه صرح علم اللغة الحديث، ويلاحظ الدكتور تمام حسان أن الفيلولوجيا كانت الأصل الذى تفرع عنه علم اللغة Linguistics في أوربا وأن الأنثروبولوجيا كانت الأصل بالنسبة للدراسات اللغوية الأمريكية . وهو يرى أن المقالة التى أعلنها (وليام جونز) بشـأن العلاقات التركيبية بين السنسكريتية واللغات الأوربية القديمة هى التى آذنت بظهور علم اللغة الحديث . غير أنه يقرر أن الفيلولوجيا التى أصبحت فيما بعد (علم اللغة) اتجهت اتجاها آخر لم يقنع الدارسون فيه بالنصوص القديمة والوثائق فقط ، ولم يصبحو مرتبطين بالقدم فحسب ، وانما حولوا « تحليل النصوص » الى « مقارنة الظواهر » ثم تخطوا الظواهر التاريخية بأن ضموا اليها وصف الأنظمة القائمة باللغات الحية ، وهكذا كانت نشأة علم اللغة من

---

(١) Lyons, Introduction to Theoretical Linguistics, p. p. 34,35

منطلق (الفيلولوجيا) . ولكن علم اللغة وان لم يتحلل تماما من فكرة « القدم » أو فكرة « المقارنة » فقد أضاف اليهما فكرتى « المعاصرة » و « الوصف » ووضع القدم والمعاصرة جنبا الى جنب ، وخصص لكل منهما منهجا ، فالقدم Diachronic يدرس بمنهج تطور تاريخى والمعاصرة Synchronic تدرس بمنهج وصفى Discriptive أشبه ما يكون بمناهج العلوم الطبيعية(١) .

الفيلولوجيا وعلم اللغة في الوقت الحاضر :

من الباحثين الغربيين من يسوى بينهما وهم الأكثرية ، بيد أن منهم من يوجب الفصل ، وفي هذا المجال يستشهد الدكتور محمد أبو الفرج بما أعلنه (ألن) في محاضراته التى ألقاها عام ١٩٥٧ من وجوب التفريق بينما يقول : ان التفريق بين الاصطلاحين واجب للتفريق بين دراسة اللغة كوسيلة ودراستها كغاية في ذاتها(٢) . ومؤدى هذا أن الفيلولوجيا تصل من دراسة اللغة الى غايات كالتعرف على حضارة الشعب الذى يستخدمها أو آدابه أو تاريخه .. الخ أما علم اللغة فيدرس اللغة في ذاتها ولأجل ذاتها يقول الدكتور أبو الفرج : ان اشارة الأستاذ (ألن) السابقة الى الحاجة الى الاصطلاح (علم اللغة) انما جاءت لتوضيح التركيز على التركيب اللغوى دون غيره كأساس للفرق بين الاثنين ، وذلك واضح في وصف Philology بأنه مقارن ، أما علم اللغة فهو تركيبى أو شكلى يعنى بالشكل فقط ولا يعنى بما حول اللغـــة أو ما يتصل بالشكل اللغوى ، ولعل هذا يلخص في التركيز على لفظ Science في عبـارة علم اللغـة(٣) .

---

(١) حسان (د. تمام) الأصول ص ٢٣٥ .

(٢) أبو الفرج (د. محمد أحمد) مقدمة ادراسة فقه اللغة ص ١٧ .

(١) أبو الفرج (د. محمد أحمد) مقدمة لدراسة فقه اللغة ص ١٨ .

ثانيا: علاقة الفيلولوجيا وعلم اللغة بالبحث اللغوى عند العرب

لكى أوضح علاقة (الفيلولوجيا Philology أو ما عرف بفقه اللغة) و (علم اللغة Linguistics) بالبحث اللغوى عند العرب وجدت من الضرورى أن نتعرف على ما يقابل هـذين المصطلحين في العربيـــة ، وأن نحدد المقصود منهما ، وقد اقتضى هذا أن أرجع الى بداية البحث اللغوى عند العرب ثم أعود مرة أخرى الى الوقت الحاضر ، وقد تطلب الأمر كذلك الحديث عن بعض المصطلحات العربية التى تتصل بهذين المصطلحين كالحديث عن (العربية وعلم العربية) الا أن اهتمامنا سيكون اهتماما عرضيا .

اللغة وعلم اللغة (قديما) :

يطلق مصطلح (اللغة) ويراد به العلم الذى يختص بمفردات اللغة بجمعها وتصنيفها وبيان معانيها أو موضوعاتها ، وبخاصة الغريب منها . وكانت كتب الطبقات تميز بين المشتغلين بالنحو أو العربية من جانب والمشتغلين باللغة من جانب آخر ، فهم يعدون ابن اسحق ويونس وسيبويه وأضرابهم من النحويين ، على حين يعدون الأصمعى وابن الاعرابى والشيبانى وأضرابهم من اللغويين .

يقول ابن الأنبـارى : برز من أصحاب الخليل أربعـة : عمرو بن عثمان بن قنبر المعروف بسيبويه ، والنضر بن شميل ، وعلى بن نصر الجهضمى ومؤرج السدوسى ، وكان أبرعهم في النحو سيبويه ، وغلب على النضر اللغة ، وعلى مؤرج الشعر واللغة ، وعلى الجهضمى الحديث(١) .

ويقول في أبى عمرو : هو العلم المشهور في علم القراءة واللغة والعربية(٢).

وهكذا يبدو لنا أن (اللغة) غير النحو أو العربية ، وقد كان ذلك معروفا بين القدماء ، ثم جاء الخالفون فزادوا الأمر وضوحا حين فرقوا بين عمل

---

(١) ابن الأنبارى ، نزهة الألباء في طبقات الأدباء ص ٦٢ ، ٢٤ .
(٢) ابن الأنبارى ، نزهة الألباء في طبقات الأدباء ص ٦٢ ، ٢٤ .

اللغوى والنحوى يقول عبد اللطيف البغدادى : اعلم أن اللغوى شأنه أن ينقل ما نطقت به العرب ولا يتعداه ، وأما النحوى فشأنه أن يتصرف فيما ينقله اللغوى ويقيس عليه ، ومثالهما : المحدث والفقيه فشأن المحدث نقل الحديث برمته ، ثم ان الفقيه يتلقاه ويتصرف فيه ويبسط فيه علله ويقيس عليه الأمثال والأشباه(١) .

أما مصطلح (علم اللغة) فقد أطلق قديما على العلم الذى يدرس مفردات اللغة على النحو السابق في مصطلح (اللغة) وهو لذلك مرادف له .

وقد كتب ابن خلدون في مقدمته فصلا في علوم اللسان العربى (علم النحو ، وعلم اللغة ، وعلم البيان ، وعلم الأدب) وقال في تعريف (علم اللغة) : هو بيان الموضوعات اللغوية (أى معانى المفردات) ثم يذكر أن الفساد في موضوعات الألفاظ قد وقع بعد فساد الألسنة في الاعراب ، فاستعمل كثير من كلام العرب في غير موضـوعه فاحتيج الى حفظ الموضـوعات اللغوية بالكتابة والتدوين خشية الدروس ، وما ينشأ عنه من الجهل بالقرآن والحديث ، ثم يذكر أن الخليل كان سابق الحلبة في ذلك فألف كتاب (العين) ثم جاء من بعده كالزبيدى والجوهرى والزمخشرى فوضعوا المعاجم(٢) ٠

ويقول أبو حيـان في الفرق بينـه وبين النحو : والفرق بين علم النحو وبين علم اللغة أن علم النحو موضوعه أمور كلية ، وموضوع علم اللغة أشياء جزئية ، وقد اشتركا معا في الوضع(٣) ٠

ويقصد بالأمور الكلية التراكيب وبالأمور الجزئية المفردات ، وفي ذلك أيضا يقول الزركشى : لم يتكلم أهل اللغة في المركبات ولا في تأليفها ، وانما تكلموا

---

(١) السيوطى ، المزهر ١/٥٩ .
(٢) أنظر : ابن خلدون : المقدمة ص ٥١٦ ـ ٥١٩ ٠
(٣) السيوطى : المزهر ١/٤٣ ٠

في وضع المفردات ، وما ذاك الا لأن الأمر موكول فيها الى المتكلم بها(١) .

وقد يضاف أحيانا كلمة (متن) الى اللغة فيقال (متن اللغة) ويراد بهما ما يراد من مصطلح (اللغة) من البحث في لمفردات .

ومما سبق نتبين أن (اللغة وعلم اللغة ومتن اللغة) مصطلحات مترادفة تعنى البحث في المفردات من حيث جمعها وتصنيفها وبيان معانيها ، وأنها تختلف في ذلك عن النحو أو العربية الذى موضوعه التراكيب .

العربية وعلم اللغة :

ومن المناسب هنا أن نتحدث عن مصطلح (العربية) الذى تردد ذكره آنفا لنبين المقصود به .

يشيع استخدام مصطلح (العربية) مرادا به (النحو) فقد قيل عن أبى الأسود انه كان أول من أسس العربية وفتح بابها وأنهج سبيلها ، ووضع قياسها ، ثم قيل في سبب ذلك : وانما قال ذلك حين اضطرب كلام العرب فغلبت السليقية ولم تكن نحوية فكان سراة الناس يلحنون ووجوه الناس(٢) .

ويقول المبرد عن قراءة من قرأ (معائش) بالهمز .. انما أخذت عن نافع بن نعيم ولم يكن يدرى ما العربية ، وله أحرف يقرأها لحنا نحوا من هذا(٣) .

ويبدو أن الكلمة كانت معروفة متداولة بين النحاة الأوائل ، قال ابن نوفل : سمعت أبى يقول لأبى عمرو بن العلاء : أخبرنى عما وضعت مما سميت عربية ! أيدخل فيه كلام العرب كله ؟ فقال لا فقلت كيف تصنع فيما خالفتك فيه العرب وهم حجة ، فقال أحمل على الأكثر وأسمى ما خالفنى لغات(٥) .

---

(١) السيوطى : المزهر ١/٤٣ .
(٢) ابن سلام : طبقات فحول الشعراء ١/١٢ .
(٣) المبرد : المقتضب ١/٣٠٧ .
(٤) السيوطى : المزهر ١/١٨٤ ، ١٨٥ .

ويفسر أبو حيان ما يعنيه هذا المصطلح بقوله في معرض الدفاع عن نافع في همزه (معائش) : ولو فرضنا أنه لا يدرى ما العربية : وهى هذه الصناعة التى يتوصل بها الى التكلم بلسان العرب فهو لا يلزمه ذلك اذ هو فصيح متكلم ناقل للقراءة عن العرب الفصحاء ، وكثيرون من هؤلاء النحاة يسيئون الظن بالقراء ولا يجوز لهم ذلك(١) ٠

ويرادف المصطلح السابق مصطلح (علم العربية) يقول ابن فارس : وكذلك الحاجة الى علم العربية فان الاعراب هو الفارق بين المعانى ، ألا ترى أن القائل اذا قال « ما أحسن زيد » لم يفرق بين التعجب والاستفهام والذم الا بالاعراب(٢) ٠

علم اللغـة حديثـا :

يرى الدكتور كمال بشر أن بعض الباحثين المحدثين ما يزالون يستخدمون مصطلح اللغة وعلم اللغة ومتن اللغة بالمعنى القديم غير ناظرين الى ما يستتبعه هذا الاستعمال من غموض وما ينطوى عليه من تساهل ويضرب المثل على ذلك بكتاب (أطوار الثقافة للأستاذ على الجندى وزملائه(٣) ٠

ومع ما سبق نذكر أن أغلب الباحثين اليوم يستخدم مصطلح (علم اللغة) ليعنى ما يعنيه المصطلح Linguistics ، ان علم اللغة اليوم أصبح يعنى مجالا أوسع مما كان يعنيه قديما من البحث في المفردات ، وأصبح له منهج مخالف لمنهج لقدماء في الدراسة ، انه يعنى الدراسة العلمية للغة أى الدراسة التى تستخدم المنهج العلمى في دراسة الموضوع ، وموضوع هذا العلم هو :اللغة بجوانبها المتعددة الصوتية والصرفية والنحوية والمعجمية والدلالية .

ولهذا لا يجيز الدكتور بشر اطلاق هذا المصطلح الآن على هذه الدراسة

---

(١) أبو حيان : البحر المحيط ٤/٢٧١ ٠
(٢) ابن فارس : الصاحبى ص ٥٥ ٠
(٣) بشر : (د٠ كمال) دراسات في علم اللغة ص ٣٩ ٠

الجزئية (دراسة المفردات) ، لأنه أصبح الآن ذا مفهوم واسع شامل يضم كل فروع البحث اللغوى من جوانبها كلها والتى أشرنا اليها آنفا(١) .

وكان المصطلح الذى اختير أول الأمر ليشير الى الدراسات اللغوية الحديثة المعروفة الآن بعلم اللغة هو مصطلح (فقه اللغة) ثم بدأ الباحثون يتخلون عنه وان لم يتفقوا على اسم لها بيد أن أكثرها انتشارا وهو المصطلح الغالب هو (علم اللغة)(٢) ٠

فقـه اللغـة (قديما) :

ظهر هذا المصطلح قديما عنوانا لكتابين أولهما لابن فارس (المتوفي ٣٩٥هـ) وهو (الصاحبى في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها والثانى للثعالبى (المتوفي ٤٢٩ هـ) وهو (فقه اللغة وسر العربية) .

ويجزم بعض الباحثين بأن ابن فارس هو أول من أطلق هذه التسمية ، اذ لو سبقه اليها سـابق لمـا أغفلها رجال الطبقات على دقتهم في ترجمـة الرجال(٣) ٠

وقد أوضح ابن فارس موضوع كتابه حين قسم علم العرب الى أصل وفرع ، أما الفرع فمعرفة الأسماء والصفات كرجل وطويل ، وهو ما يبدأ به عند التعلم ، وأما الأصل فالقول على موضوع اللغة وأوليتها ومنشئها ثم على رسوم العرب في مخاطباتها وما لها من الافتنان تحقيقا ومجازا(٤) ٠

ولا يهتم ابن فارس بمعرفة الفروع أى معرفة الألفاظ لأنها أكثر من أن تحصى ، والجهل بها لا ينقص عند أهل المعرفة نقصا شئنا ، أما معرفة الأصول

---

(١) بشر : (د. كمال) دراسات في علم اللغة ص ٤١ .
(٢) حسان (د٠ تمام) الأصول ص ٢٦٠ ، ٢٥٩ ٠
(٣) الراجحى (د٠ عبده) فقه اللغة في الكتب العربية ص ٤٢ ٠
(٤) ابن فارس : الصاحبى ص ٣ ٠

فواجبة للتعرف على خطاب الله والرسول ، فقول جل ثناؤه (ولا تطرد الذين يدعون بالغـداة والعشى يريدون وجهـه ٠٠) الى آخر الآية سره في نظمها لا يكون بمعرفة غريب اللغة والوحشى من الكلام ، وانما معرفته بغير ذلك مما يذكره في كتابه من أصول .

يقول ابن فارس : والفرق بين معرفة الفروع ومعرفة الأصول أن متوسما بالأدب لو سئل عن الجزم والتسويد في علاج النوق فتوقف أو عى به أو لم ينقصه ذلك عند أهل المعرفة نقصا شائنا لأن كلام العرب أكثر من أن يحصى ، ولو قيل له هل تتكلم العرب في النفى بما تتكلم في الاثبات ؟ ثم لم يعلمه ـ لنقصه ذلك في شريعة الأدب عند أهل الأدب(١) .

ويعود الى هذا المعنى تقريبا عند الحديث في حاجة أهل الفقه والفتيا الى معرفة اللغة العربية فيقرر أن معرفة أصول اللغة والطرق التى جاء عليها كتاب الله وسنة رسوله واجب ، ثم يضيف الى ذلك معرفة علم العربية أى النحو، لأن به معرفة الاعراب الذى هو الفارق بين المعانى ٠

يقول : ولسنا نقول ان الذى يلزمه من ذلك الاحاطة بكل ما قالته العرب (من ألفاظ) لأن ذلك غير مقدور عليه ، ولا يكون الا لنبى كما قلنا أولا ، بل الواجب علم أصول اللغة والسنن التى بأكثرها نزل القرآن وجاءت السنة ... وكذلك الحاجة الى علم العربية فان الاعراب هو الفارق بين المعانى(٢) .

وبهذا نطمئن الى القول بأن كتابه في أصول اللغة أى في القول على موضوع اللغة وأوليتها ومنشئها ثم على رسوم العرب في مخاطباتها ومالها من الافتنان تحقيقا ومجازا ، لا في الفروع أى معرفة الأسماء والصفات (وهو ما سبق أن قلنا انه موضوع (علم اللغة بالمفهوم القديم) .

وهذا هو ما رجحه الدكتور أبو الفرج الذى يقرر أن ابن فارس وان لم يذكر عبارة (فقه اللغة) يقصد بها الأصل فهو الذى جعل له الأهمية وأشار

---

(١) ابن فارس : الصاحبى ص ٤ ، ٥ .
(٢) ابن فارس : الصاحبى ص ٥٠ ، ٥١ .

الى أن كثيرا منه جاء في كتابه(١) ٠

وقد ضمن ابن فارس كتابه عددا كبيرا من الأبواب يمكن أن تتوزع في صنفين من المباحث :

مباحث عامة في حياة اللغة العربية نشأ وتطورها ، ومن ذلك حديثه عن نشأة اللغة العربية والخط العربى وأنهما توقيف لا اصطلاح ومواضعه ، وعن أفضلية اللغة العربية واتساعها وعن اختلاف لهجاتها : اللهجة الفصحى أو اللهجات المذمومة ٠٠٠ وغير ذلك من الموضوعات .

مباحث خاصة في مجال الأصوات والصرف والنحو والبلاغة والأسلوب . وهى مباحث غير مقصودة لذاتها ، فليس الكتاب كتابا في النحو أو في البلاغة أو في غيرهما من العلوم التى تنتمى اليها هذه المباحث أصلا ، وانما هى ملا حظات عن هذه المجالات تهدف الى بيان كيف ينتظم الكلام العربى وكيف يفتن أصحابه في التعبير به .

والدكتور الراجحى يذهب الى أن عنوان الكتاب يشير الى أمرين :

فقه اللغة : وكان يعنى به القضايا العامة التى تخضع لها حياة اللغة .

وسنن العرب في كلامها : وكان يعنى بها القوانين التى تسير وفقها الاستعمالات اللغوية(٢) ٠

ولا يتعارض هذا مع ما رجحناه سابقا من أن عبارة (فقه اللغة) تعنى الأصول التى خصها ابن فارس باهتمامه ، وهى تشمل الموضوعين السابقين اللذين فصل بينهما الدكتور الراجحى أعنى القضايا العامة والقوانين ٠ ولعله من فضول القول ـ بعد ذلك ـ أن نقرر أن مباحث الكلاب متداخلة بحيث يصعب الفصل بينهما ، ولكن في ضوء الغاية من تأليفه كتابه نفهم لماذا وضعت هذا

---

(١) أبو الفرج (د٠ محمد أحمد) مقدمة لدراسة فقه اللغة ص ٣٦ ٠

(٢) أنظر الراجحى (د٠ عبده) فقه اللغة في الكتب العربية ص ٤٤، ٤٥ ٠

الوضع ، انها ـ كما قلنا سابقا ـ ليست الا ملاحظات حول اللغة العربية للكشف عن خصائصها أو مزاياها وأسرارها وليست بحثا في اللغة ذاتها نحوها وصرفها وبلاغتها ، فهذا البحث تنهض به علوم أخرى كالنحو أو البلاغة .

أما الكتاب الثانى كتاب الثعالبى (فقه اللغة وسر العربية) فقد قسمه صاحبه صراحة الى قسمين : سمى القسم الأول (فقه اللغة) ضمنه ثلاثين بابا يشتمل كل باب منها على عدة فصول ، وهذا القسم عبارة عن معجم خاص جمع فيه الألفاظ المتصلة بموضوع واحد ثم رتبها حسب الموضوعات ، بدأها بباب في الكليات (وهو ما أطلق عليه أئمة اللغة لفظ كل ، ومن ذلك : كل ما علاك وأظلك فهو سماء ، كل أرض مستوية فهى صعيد .. الخ(١) .

أما القسم الثانى والذى سماه (سر العربية) فيضم مباحث مختلفة شبيهة بالمباحث التى ضمها كتاب ابن فارس ، بل ان بينهما أبوابا مشتركة نقلها الثعالبى نقلامن ابن فارس كالنحت وللاتباع وغيرهما .

ولم يعرض الثعالبى المبحث لبعض المباحث العامة التى بدأ بها ابن فارس كتابه من الحديث عن نشأة اللغة والخط .

ويبقى بعد ذلك أنه عنى بما أهمله ابن فارس من الفروع أى مفردات اللغة من الأسماء والصفات .

وبهذا نتبين صحة ما قرره الدكتور الراجحى من أنه كان واضحا في قصره (فقه اللغة) على دراسة الألفاظ على ما هو واضح في القسم الأول(٢) .

وهذه الدراسة التى جعلها الثعالبى فقها للغة أصبحت جزءا من مفهوم المصطلح (علم اللغة) الذى جعله ابن خلدون خاصا بالبحث في الموضوعات اللغوية ، وفي ذلك يقول : ثم لما كانت العرب تضع الشيء على العموم ثم تستعمل

---

(١) الثعالبى : فقه اللغة ص ٣٣ ، ٣٦ ، ٣٢٢ .

(٢) أنظر : فقه اللغة في الكتب العربية ص ٥١ .

في الأمور الخاصة ألفاظا أخرى خاصة بها فرق ذلك عندنا بين الوضع والاستعمال ، واحتاج الى فقه في اللغة عزيز المأخذ ، كما وضع الأبيض بالوضع العام لكل ما فيه بياض ، ثم اختص ما فيه بياض من الخيل بالأشهب ومن الغنم بالأملح حتى صار استعمال الأبيض في هذه كلها لحنا وخروجا عن لسان العرب ، واختص بالتأليف في هذا المنحى الثعالبى وأفرده في كتاب سماه (فقه اللغة) وهو من آكد ما يأخذ به اللغوى نفسه أن يحرف استعمال العرب عن مواضعه(١) .

والآن : ما علاقة الموضوعات التى عرض لها ابن فارس والثعالبى في فقه اللغة بالموضوعات التى عرضت لها الفيلولوجيا بالمفهوم السائد عن الأوربيين ؟

يعقد الدكتور عبده الراجحى مقارنة بين موضوعات فقه اللغة كما بحثها ابن فارس والثعالبى وموضوعات الفيلولوجيا ، ويخرج من هذه المقارنة بأن هذه الموضوعات لا يصح ادراجها تحت الفيلولوجيا كما يفهمها أصحابها من الغربيين . ويرى أن هذه الموضوعات داخلة في اطار علم اللغة Linguistics وان كان لا ينكر أن هناك فرقا كبيرا بين منهج العرب في دراسة لغتهم ومنهج الغربيين في علم اللغة(٢) .

وكان الدكتور أبو الفرج قد سبق الى هذا حين رأى أن تركيز ابن فارس على رسوم اللغة في المخاطبة وعلى نظمها مما هو أصول اللغة العربية والتهوين من شأن الألفاظ بالنسبة لهذه الأصول قريب في الاحساس باللغة وبموضع الأهمية منها مما نقلناه سابقا عن العلماء المحدثين الذين يهتمون بالعلاقات الداخلية للغة أو ما يسمونه الأنماط التى هى أساس التمييز بين لغة وأخرى(٣) .

وهذا يجعل موضوع كتاب ابن فارس أقرب الى علم اللغة وبخاصة الاتجاه التركيبى الذى يعنى ببيان العلاقات بين وحدات اللغة .

---

(١) ابن خلدون : المقدمة ص ٥١٨ .

(٢) أنظر : فقه اللغة في الكتب العربية ص ٥٦ .

(٣) مقدمة الدراسة فقه اللغة ص ٣٩ .

وثمة رأى آخر يربط بين موضوعات الفيلولوجيا وفقه اللغة فالذين ترجموا Philology الى (فقه اللغة) قد وضعوا في اعتبارهم أن فقه اللغة يعرض لمباحث من النوع الذى تعرض له الفيلولوجيا أو أنهم جعلوا كلمة (الفيلولوجيا) مرادفة لـ (علم اللغة) .

ومنشأ التعارض الظاهر بين الفريقين أن من ربط فقه اللغة بعلم اللغة أو Linguistics نظر الى ما اهتم به ابن فارس من الكلام في أصول اللغة ورسوم مخاطبتها والملاحظات النحوية والصرفية التى أبداها ، ونظر كذلك الى ما يشبه هذا من المباحث التى عرضها الثعالبى في القسم الثانى من كتابه ، وأن من ربطه بالفيلولوجيا نظر الى بعض المباحث العامة التى عالجها ابن فارس كالحديث عن نشأة اللغة وتطورها وانشعابها الى لهجات ، والى المباحث التى جعلها الثعالبى في القسم الأول من كتابه وهى مباحث تعرض في عمومها للألفاظ ودلالاتها وبعضها يمكن ادراجه في الدراسة المقارنة كالباب الذى عقده بعنوان « فيما يجرى مجرى الموازنة بين العربية والفارسية »(١) .

فقه اللغة حديثا :

ظهرت عبارة (فقه اللغة في العالم العربى حديثا في الجامعة العربية وبخاصة حين استقدم جماعة من المستشرقين ليعاونوا في التدريس بها ، وقد فهمت آنذاك على أنها ترجمة لمصطلح Philology .

يقول الدكتور زكى مبارك : ذكر السنيور جويدى (وكان أستاذ فقه اللغة في كلية الآداب) في محاضرته الأولى (٧) أكتوبر ١٩٢٦ أن كلمة Philology تصعب ترجمتها بالعربية ، وأن لها في اللغات الغربية معنى خاصا لا يتفق عليه أصحاب العلم والأدب ، فمنهم من يرى هذا العلم مجرد درس قواعد الصرف والنحو ونقد نصوص الآثار الأدبية ، ومنهم من يذهب الى أنه ليس درس اللغة فقط ، ولكنه بحث عن الحياة العقلية من جميع وجوهها . واذا صح هذا فمن الممكن أن يدخل في دائرة (الفيلولوجى) علم اللغة وفنونها المختلفة كتاريخ

---

(١) أنظر الثعالبى : ص ٣٠٤ ـ ٣٠٧ .

اللغة ومقابلة اللغات والنحو والصرف والعروض وعلوم البلاغة وعلم الأدب في معناه الأوسع فيدخل تاريخ الآداب وتاريخ العلوم من حيث تصنيف الكتب العلمية ، وتاريخ الفقه من حيث تدوينه في المجاميع والمجلات ، وتاريخ الأديان من حيث درس الكتب المقدسة وتأليف الكتب الدينية واللاهوتية ، وتاريخ الفلسفة من حيث تأليف كتب الحكمة وكتب الكلام ، ولا سبيل الى معرفة كنه هذه الحياة العقلية الا بدرس أحوال المركز الذى نشأت فيه الآثار الأدبية(١) .

ومما ذكره (جويدى) نرى أن نظرة الغربيين الى (الفيلولوجى) قد تكون ضيقة فتجعله خاصا بدرس قواعد الصرف والنحو ونقد النصوص الأدبية ، أو متسعة فتجعله خاصا بدرس الحياة العقلية وما ينبنى على دراسة هذه الحياة من دراسة للنشاط اللغوى بمختلف جوانبه ، وهى نظرة لا تختلف عما عرضناه من قبل عند الحديث عن مفهوم الفيلولوجيا عند الغربيين .

وقد ألف الدكتور على عبد الواحد وافي كتابين في الدراسات اللغوية أسمى أولهما (علم اللغة) وأسمى الثانى (فقه اللغة) .

أما موضوع (علم اللغة) فهو دراسة النواميس العامة التى تسير عليها اللغات الانسانية في نشأتها وانتقالها من السلف الى الخلف وانشعاب الأصل الواحد منها الى شعب وفروع وتكون مجموعاتها وفصائلها وصراعها بعضها مع بعض وتطورها من مختلف الوجوه(٢) .

ومباحث هذا العلم يمكن أن تتوزع على فروع البحث اللغوى الآتية : علم اللهجات Dialectlogy وعلم الأصوات Phonetics وعلم السمانتيك (المعنى) Semantics وعلم المفردات Lexicology وعلم البنية (الصرف) Morphology وعلم السنتكس (النحو) Syntax وعلم ستيلستك (الأسلوب) Stylistics علم الايتمولوجيا (البحث في أصول الكلمات) Etymology ■

---

(١) مبارك (د. زكى) النثر الفنى في القرن الرابع ص ٤٤ ، ٤٥ .

(٢) وافي (د. على عبد الواحد) : علم اللغة ص ٦ .

ثم يضيف الى هذه المباحث بعض البحوث الاجتماعية التى ترمى الى توضيح العلاقة بين اللغة والحياة الاجتماعية وأثر المجتمع وحضارته ونظمه وتاريخه ٠٠ في مختلف الظواهر ، وبعض البحوث النفسية التى تدرس العلاقة بين الظواهر اللغوية والظواهر النفسية بمختلف أنواعها من تفكير وخيال وتذكر ٠٠ الخوتبين أثر كل طائفة في الأخرى(١) .

ولا تختلف المباحث السابقة الا قليلا عن المباحث التى يضمها (علم اللغة) بالمعنى الواسع وبالتعريف المختار هنا وهو الدراسة العلمية للغة ، وسوف نتبين تفصيل ذلك عند الحديث عن مستويات البحث اللغوى . أما المباحث الاجتماعية والنفسية فلها علاقة وثيقة بعلم اللغة وان كانت ليست منه كما أوضحنا في المبحث الثانى من هذا الكتاب .

وفي ضوء الحقائق العامة في (علم اللغة) يدرس في كتابه الثانى (فقه اللغة) ـ فصيلة خاصة من فصائل اللغات الانسانية وهى فصيلة (اللغات السامية) مفصلا بعض التفصيل في لغة منها وهى اللغة العربية ومجملا فيما عداها يقول : فمؤلفنا هذا بمنزلة الجزء الثانى من كتابنا (علم اللغة) غير أننا آثرنا أن نطلق عليه اسما خاصا شاع استعماله في الموضوعات التى يعرض لها وخاصة ما يتعلق منها باللغة العربية . وهو يعالج في كتابه هذا تاريخ اللغات السامية ونشأتها وشعوبها وأهم خصائصها واللهجات المتفرعة منها ٠٠ ثم يتكلم بعد ذلك عن اللغة العربية مفصلا الحديث عن حياتها ونشأتها وانشعابها الى لهجات ٠٠ الخ وعن عناصر اللغة العربية وما تمتاز به بوجه عام في أصواتها ومفرداتها وقواعدها صرفا ونحوا وأسلوبا ، ثم يتحدث من موضوعين عامين يتصل أولهما بكفاية اللغة العربية وثانيهما بوسائل صيانتها(١) .

ومما سبق نتبين أن الدكتور وافي يعد علم اللغة وفقه اللغة شيئا واحدا ،

---

(١) أنظر وافي (د. على عبد الواحد) علم اللغة ص ٦ ـ ١٣ .

(١) وافي (د. على) فقه اللغة ص ١ ، ص ٩٢ .

وان كان أولهما يتصل باللغة في عمومها والثانى يتصل بلغة معينة هى العربية .

وليس الدكتور وافي وحده الذى يقول بالتسوية بين العلمين فثمة كتاب آخرون جروا على ذلك ومن هؤلاء الأستاذ محمد المبارك الذى يقول : ان علم اللغة بهذا المفهوم الذى بسطناه والذى آل اليه الأمر في تطور البحث اللغوى نرى أن نطلق عليه أحد الاسمين (علم اللغة) أو (فقه اللغة) وكلاهما يفيد المقصود وينطبق على المفهوم العلمى لمباحث اللغة(١) .

وعلم اللغة عنده يضم دراسات تتصل بالأصوات والمفردات والتراكيب ، ودراسات أخرى عن تأثير اللغات بعضها في بعض ، وعن اللهجات وكيفية نشوئها وتطورها وأسباب ذلك ، وعن الرسم والكتابة(٢) .

ونتبين من علاجه للموضوع أنه يدرس اللغة العربية من خلال النظرات الحديثة لعلم اللغة التى تتلائم معها أو كما يقول : لم نأخذ من النظرات الحديثة الا اتجاهها أو بعضها ومسائلها العامة المشتركة بين اللغات(٣) .

ويقول فيما درسه في كتابه المذكور : وقد اقتصرت في أبحاثه على ما يتعلق بالكلمة المفردة دون التراكيب اذ لا يزال البحث في الكلمات المفردة يؤلف القسم الأكبر من علم اللغة ، وهو موضع عناية الباحثين ، وان كانت العناية بتراكيب اللغة أخذت تتزايد وانتهت الى تخصيص قسم خاص بالتراكيب أو نظم الكلام .. وكان موضوع تركيب الكلام يدرس في سائر اللغات في علم النحو من جهة وفي علم المعانى من علوم البلاغة من جهة أخرى(٤) .

ومؤدى ما سبق أن موضوع فقه اللغة عنده هو المفردات ، وان كان لا يمنع من درس التراكيب على أساس أنها من موضوع علم اللغة بالمفهوم الذى

---

(١) أنظر : المبارك (محمد) فقه اللغة ص ٣٩ .
(٢) المبارك (محمد) فقه اللغة ص ٢١ ـ ٢٤ .
(٣) المبارك (محمد) فقه اللغة ص ١٢ .
(٤) المبارك (محمد) فقه اللغة ص ١٢ .

حدده هو سابقا مع الوضع في الاعتبـار أنه ممن يقولون بالتسوية بين علم اللغة وفقه اللغة .

والدكتور محمد أبو الفرج يؤلف كتابا بعنوان (مقدمة لدراسة فقه اللغة) يقول في تصديره : وفقه اللغة يعنى بالدراسة العلمية الفاحصة للغة . وواضح أن هذا التعريف هو التعريف المختار لعلم اللغة Linguistics ثم يقول ومع أنه حظى بمجموعة من مؤلفات العلماء العرب في القديم والحديث فليس هناك اتفاق تام على منهجه ولا على الموضوعات التى تندرج تحته(١) . ولعله ـ لهذا السبب ـ دعا الى التسوية بين العلمين فقه اللغة وعلم اللغة

وجدت عند التعريف بـ (فقه اللغة) من الناحية الاصطلاحية أن هناك اصطلاحين في اللغة الانجليزية لدراسة ما يشابه موضوعاته وهما Philogy , Linguistics فبينت آراء العلماء فيهما ، ووضحت أن منهم من يسوى بين الاصطلاحين وهم الأكثرية ، ومنهم من يوجب الفصل بينهما ، وانتهت الى التسوية بينهما معتبرا في هذا مصلحة الدراسة اللغوية في العالم العربى(٢) .

والدكتور رمضان عبد التواب يعرف (فقه اللغة) في العصر الحاضر تعريفا عاما يجعله شاملا لكل الدراسات اللغوية مؤكدا التسوية بينه وبين علم اللغة وضرورة كل منهما للآخر . يقول :

تطلق كلمة (فقه اللغة) عندنا الآن على العلم الذى يحاول الكشف عن أسرار اللغة والوقوف على القوانين التى تسير عليها في حياتها ومعرفة سر تطورها ودراسة ظواهرها المختلفة دراسة تاريخية من جانب ووصفية من جانب آخر . وهو بهذا المعنى يضم كل الدراسات اللغوية التى تبحث في نشأة اللغة الانسانية واحتكاك اللغات المختلفة بعضها ببعض ، ونشأة اللغة الفصحى واللهجات ، وكذلك تلك التى تبحث في أصوات اللغة ودلالة الألفاظ وبنيتها من النواحى التاريخية المقارنة والنواحى الوصفية ، وكذلك في العلاقات النحوية

---

(١) أبو الفتوح (د٠ محمد أحمد) مقدمة لدراسة فقه اللغة ص ٠

(٢) أبو الفتوح (د٠ محمد أحمد) مقدمة لدراسة فقه اللغة ص ٦ ٠

بين مفرداتها ، كما تبحث أخيرا في أساليبها واختلاف هذه الأساليب باختلاف فنونها من شعر ونثر وغير ذلك ، وهذا هو ما يطلق عليه في الغرب Philology وان كانت هذه الكلمة Philologie قد تحددت عند الألمان بدراسة النصوص اللغوية دراسة تاريخية مقارنة لمحاولة فهمها والاستعانة بذلك في دراسة الفروع الأخرى التى يبحث فيها علم آخر عندهم هو (علم اللغة Sprachwissen schaft) . وكل علم من هذين العلمين لا ينفصل في الواقع عن الآخر انفصالا حادا ، ولا يمكن لأحدهما أن يستغنى عن الآخر مطلقا (١) .

وقد ظهر منذ سنين رأى حديث في موضوع (فقه اللغة) وعلاقته بـ (علم اللغة) أعلنه الدكتور تمام حسان في كتابه (الأصول) الذى جعله دراسة ابيستمولوجية لأصول الفكر اللغوى العربى في النحو وفقه اللغة والبلاغة .

وموضوع (فقه اللغة) هو المفردات يحصيها ويتكلم في علاقة اللفظ باللفظ وعلاقة اللفظ بالمعنى وعلاقة اللفظ بالاستعمال وسنعود الى هذا الموضوع بالتفصيل بعد قليل .

وقد تتبع الدكتور تمام هذا المصطلح (فقه اللغة) منذ بدأ البحث في اللغة حتى العصر الحديث . ففى القديم كان موضوعه يدرس تحت عنوان (اللغة) وهو المصطلح الذى كان يقابل (العربية) أى النحو . وربما دخل في مجاله الترادف والمشترك اللفظى والفروق وأنواع المعاجم . ثم يقرر أنه لم يطلق على هذه الدراسة اسم (فقه اللغة) الا في القرن الرابع الهجرى في عنوان كتاب ابن فارس (الصاحبى في فقه اللغة) (٢) .

ونلاحظ ما ياتى على ما ذكره الدكتور تمام :

ـ أن مفهوم مصطلح (فقه اللغة) عند ابن فارس ـ على ما رجحناه آنفا ـ ليس البحث في المفردات أو ما سماه الفرع وانما موضوعه البحث في

---

(١) عبد التواب (د. رمضان) فصول في فقه العربية ص ٩ .
(٢) أنظر : الأصول ص ٢٥٨ ، ٢٥٩ .

موضوع اللغة وأوليتها ومنشئها ثم على رسوم العرب في مخاطبتها وما لها من الافتنان تحقيقا ومجازا . وبهذا يبدو لنا أن الدكتور تمام قد استخدم مصطلح (فقه اللغة) بمنى يخالف المعنى الذى ظهر عليه أول مرة عند ابن فارس .

- ان ابن خلدون يجعل (فقه اللغة) على النحو الذى قدمه الثعالبى في القسم الأول من كتابه جزءا من (علم اللغة) الذى مجاله عنده بيان الموضوعات اللغوية (أى معانى المفردات) . وقد أضاف اليه موضوعات أخرى لها علاقة به : كالحديث عن الألفاظ المشتركة والفصيح .. الخ وبهذا لا يختلف موضوع (فقه اللغة) عند الدكتور تمام عن موضوع (علم اللغة) عند ابن خلدون . ويبقى بعد ذلك أن الدكتور فضل مصطلح (فقه اللغة) وجعله الأصل على خلاف ما يذكره ابن خلدون .

وفي العصر الحديث أطلق (فقه اللغة) على الدراسة المقارنة للغة العربية واللغات السامية ، وعلى مقارنة الألفاظ الفصيحة وغير الفصيحة سواء جاءت هذه الألفاظ من لهجات قبيلة قديمة أو من لهجات عامية حديثة ، ويطلقه البعض على دراسة اللهجات العربية على نحو ما فعل الدكتور أنيس في كتابه « اللهجات العربية » .. كما يطلق أحيانا على دراسة الأصوات العربية على نحو ما يبدو في (سر صناعة الاعراب) لابن جنى (١) .

ولم يبين لنا الدكتور تمام المقصود بفقه اللغة عند هؤلاء الذين ذكرهم في القديم والحديث أهو (فقه اللغة) بالمعنى القديم عند ابن فارس أم عند الثعالبى، أم (فقه اللغة) بالمعنى الذى يرادف (علم اللغة) عند القائلين بالتسوية أم فقه اللغة بالتعريف الذى يرادف (علم اللغة) عند القدماء .

و (فقه اللغة) بالتعريف الذى وضعه الدكتور تمام ليس علما مضبوطا (كعلم النحو) اذ العلم المضبوط عنده ما يتوفر فيه الشروط الآتية : الموضوعية والشمول والتماسك والاقتصاد .

---

(١) أنظر الأصول ص ٢٥٩ ، ٢٦٠ .

و (فقه اللغة) لا يتسم بالشمول ، لأنه لا يعتمد على الاستقراء الناقص ، وهو بهذا يختلف عن علم النحو الذى يتسم بهذه الصفة ، فالنحوى يستخرج القياس ، أما (فقه اللغة) فملاحظات لا قواعد ، واذ لم تكن له قواعد فلا مجال القياس ، أما (فقه اللغة) فملاحظات لا قواعد ، واذا لم تكن له قواعد فلا مجال فيه للقياس فهو لا يقاس على نتائجه .

والاقتصاد يتمثل في الاستغناء عن الكلام في المفردات بالكلام في الأصناف ، وفي التقعيد ، واذا التمسنا هذين الأمرين في (فقه اللغة) أدركنا أنه لا أثر لهما فيه ، فالكلام عن المعرب أو الدخيل أو الفصيح كلام عن مفردات لا أصناف ، ولا يسلم لفقه اللغة ما يزعمه أحيانا من قواعد كالذى نراه من كلام عن حركة عين المضارع مثلا .

ومع افتقار (فقه اللغة) الى الشمول والاقتصاد فانه يتسم بالموضوعية والتماسك ، فهو علم موضوعى ولكن من قبيل موضوعية الاستقراء التام والعد والاحصاء ، وهو علم غير مضبوط لأ ن الضبط لا يتحقق مع الموضوعية الا بالاستقراء الناقص وامكان التحقق من صـدق النتائج وهما الشرطان اللذان توافرا في النحو ولم يتوافرا في (فقه اللغة) . وهو علم متماسك بعيد عن التناقض ، وهو يعتمد أيضا على التصنيف وان كان تصنيفه لا يهدف الى بناء هيكل بنيوى كما يحدث في النحو مثلا ، وانما يهتم بالتصنيف سعيا لتيسير العرض ولا يستعمل الأصناف الا لابراز الفروق فقط(١) .

لقد تبين لنا أن (فقه اللغة) بالتعريف الذى وضعه الدكتور تمام يختلف عن علم النحو ، فقه اللغة علم غير مضبوط يفتقر الى الشمول والاقتصاد وان اتسم بالموضوعية والتماسك ، أما علم النحو فعلم مضبوط يتسم بهذه الصفات جميعا الموضوعية والتماسك والشمول والاقتصاد .

ولنعد الى ما وعدنا به من تفصيل القول في موضوع (فقه اللغة) لقد قلنا ان موضوعه هو الألفاظ المفردة ، ويتحدد هذا ببيان : علاقة اللفظ باللفظ أو اللفظ بالمعنى أو اللفظ بالاستعمال .

---

(١)أنظر : الأصول من ص ٢٦٠ ـ ٢٦٦ .

ـ يدخل في اطار علاقة اللفظ باللفظ : المقارنات السامية والمقارنات العربية بين اللهجات (ومحصلة ذلك أن المقارنات تتم في مستوى الكلمة المفردة ولا تتم في مستويات اللغة الأخرى) .

ـ ويدخل في اطار علاقة اللفظ بالمعنى : الكلام في جرس الكلمة وأثره في دلالتها كالحديث عن المحاكاة (دلالة الكلمة بجرسها على مدلولها) والتأليف (تركيب الكلمة من أصوات يحسن أو يقبح تجاورها) والكلام في المعنى العرفي أو المعجمي (وهو ما كان يدخل أصلا في متن اللغـة) ويدخل فيه كذلك معاجم الموضوعات أو الألفاظ أو المعانى .

ـ ويدخل في اطار علاقة اللفظ بالاستعمال : الكلام عن الغريب والدخيل (معرب ومولد) والموضوع المجاز .

هذا هو موضـوع (فقـه اللغـة) عند الدكتـور تمام فما علاقته اذا بالفيلولوجيا ؟ يقول :

يتضح لنا من كل ما سبق أن (فقه اللغة) أقرب بموضوعه الى الفيلولوجيا منه الى (علم اللغة) غير أن (فقه اللغة) يختلف عن الفيلولوجيا من حيث ان فكرة المعنى أو (القدم) ليست دائما من عناصر فهمه بل اننا لنلمح في (فقه اللغة) أحيانا عنصرا مستقبليا هو ما أطلقنا عليه عبارة (اثراء اللغة)(١)

وبعد ، فلنلخص الآن أهم الأفكار التى تحدثنا عنها في الصفحات السابقة :

ـ (الفيلولوجيا Philology)مصطلح غربى يعنى :

ـ تحقيق النصوص وشرحها وما يتطلبه ذلك من دراسة للجوانب الصرفية والنحوية والمعجمية .

ـ الدراسة المقارنة للغـات .

---

(١) أنظر الأصول من ص ٢٦٧ ـ ٢٨٨ .
(٢) حسان (د٠ تمام) ص ٢٨٩ ٠

ـ دراسات تشمل الثقافة والتقاليد والتاريخ والآداب الخاصة باللغـــة المدروسة .

والدراسة التاريخية والمقارنة التى كانت موضوع اهتمام اللغويين في القرن التاسع عشر أصبحت الآن ـ مع اختلاف في المنهج ـ تعد فرعا من (علم اللغة)يعرف بعلم اللغة التاريخى وعلم اللغة المقارن .

وبعض الباحثين من الغربيين يرى أن الصلة وثيقة بين الفيلولوجيا وعلم اللغة Linguistics وكثيرا ما يتلاقى ميداناهما ، ولذلك لا يرى بأســـا من التسوية بينهما ، وثمة فريق آخر وهم الأغلبية يقول بالفصل بينهما على اعتبار أن علم اللغة يدرس اللغة في ذاتها ولأجل ذاتها على حين يدرس الفيلولوجيا اللغة باعتبارها وسيلة لتحقيق أغراض أخرى .

ـ (فقه اللغة) مصطلح عربى يعنى :

عند ابن فارس : القول على موضوع اللغة وأوليتها ومنشأها ثم على رسوم العرب في مخاطباتها وما لها من الافتنان تحقيقا ومجازا .

وعند الثعالبى : البحث في الألفاظ من حيث ترتيبها وبيان معانيها .

وقد استخدم المصطلح (فقه اللغة) حديثا ترجمة لكلمة (فيلولوجيا) ليعنى :

ـ ما تعنيه كلمة فيلولوجيا وعلم اللغة من موضوعات ، والذين فعلوا ذلك عدوا البحوث التى عرضها ابن فارس والثعالبى أقرب ما تكون الى مفهوم الفيلولوجيا .

ـ ما تشير اليه الفيلولوجيا وعلم اللغة من موضوعات ، والذين قالوا ذلك كان في اعتبارهم أمران :

١ ـ أن بعض الباحثين من الغربيين قال بالتسوية بين العلمين (الفيلولوجيا وعلم اللغـة) .

٢ ـ أن ما درسه اللغويون العرب تحت عنوان (فقه اللغة) يدخل في اطار أحد العلمين ولا شك .

وعند الدكتور وافي : دراسة الفصيلة السامية بعامة والعربية بخاصة ، دراسة تستخدم المنهج العلمى الدقيق الذى اختطه (علم اللغة الحديث) .

أما الدكتور تمام فيعنى به (ما كان يعنيه الثعالبى في القسم الأول من كتابه) و (ما كان يعنيه ابن خلدون بعلم اللغة) من البحث في المفردات وبيان علاقة اللفظ باللفظ واللفظ بالمعنى واللفظ بالاستعمال .

ـ (علم اللغة) مصطلح عربى قديم يعنى :

ـ البحث في المفردات من حيث تصنيفها وبيان معانيها .

ـ استخدم حديثا ليشير الى موضوعات Linguistics ويعرف بأنه الدراسة العلمية للغـة .

وبعض الباحثين يستخدم مصطلحات أخرى لهذا الغرض مثل : اللغويات أو اللسانيات أو الألسنية ، بيد أن مصطلح (علم اللغة) أصبح الآن أكثرها انتشارا ، وليس ثمة داع لاستخدام (فقه اللغة) للاشارة الى موضوعاته ، وقد انصرف كثير من الباحثين عن القول بالتسوية بينهما .

ومع ما سبق أن لخصناه نقترح ما يأتى :

أن تستخدم كلمة (فيلولوجيا) معربة لتشير الى مفهوم مصطلح Philology في التراث اللغوى الغربى ، ولا داعى لاستخدام عبارة (فقه اللغة) في ترجمتها حتى تتحدد المفاهيم بدقة .

ـ أن تستخدم عبارة (فقه اللغة) لتشير الى مدلولها القديم عند ابن فارس والثعالبى أو بمدلولها الحديث عند الـدكتور تمام مع النص على صـاحب الاستعمال .

ـ أن تستخدم عبارة (علم اللغة) لتشير الى الدراسة التى تستخدم المنهج العلمى في دراسة اللغة العربية قديما أو حديثا(١) .

---

(١) هذا ما فعلناه حين وضعنا مفردات منهج (علم اللغة) و (علم اللغة العربية) لكلية التربية بالمدينة المنورة .

الباب الرابع
التحليل اللغوي

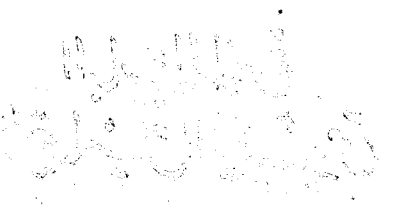

المبحث الأول

مستويات التحليل اللغوى

اللغة ظاهرة على جانب كبير من التعقيد بحيث لا يمكن لأى منهج أو مخطط مقترح أن يصف خصائصها وصفا كاملا أو يفسر ظواهرها تفسيرا تاما ، لهذا لجأ الباحثون الى افتراض أنها تتضمن جوانب متعددة يمكن لفرع أو أكثر من فروع علم اللغة أن يقوم بدراستها ـ مع ايمانهم بأن طبيعة اللغة تأبى هـذا الفصل ، لأن الأحداث اللغوية تتفاعل عناصرها في أثناء الكلام تفاعلا تاما ، كما أن فروع علم اللغة التى تقوم بدراسة هذه الأحداث يعتمد بعضها على بعض بشكل كبير ، ولهذا كان مبدأ التقسيم ـ مع ما سبق ـ مبدأ مقررا منذ عهد بعيد وقائما على أساس سليم .

ويقرر (هاليداى) أن اللغويين قد اختلفوا كثيرا في الطبيعة الخاصـة للحدود بين المستويات ، بيد أن هذا الاختلاف ليس أكثر ولا أقل مما هو معروف من اختلاف العلماء في فروع العلم الأخرى .

وينبغى أن يوضع في الاعتبار عند مناقشة هذاالموضوع أمران :

الأول : وجود أرضية واسعة مشتركة قائمة على أساس راسخ بين المواقف المتعددة للتقسيم : فما هو مقرر وشائع أولى وأكثرها أهمية مما هو في مجال الأخذ والرد .

الثـانى :أن النظريات المقدمة في هذا الشأن ليست في الغالب نظريات متصارعة احداها ينبغى أن تكون صوابا ، والأخرى ينبغى أن تكون خطأ ، والأصح أن ما يعرف بالمخططات أو الطرز Models تتعايش وتترابط في ضوء النظرية العامة(١) .

---

(١) أنظر Halliday, Mclntosh and strevens, The Linguistics sciences and Language Teaching, p. p. 17, 18

والمشكل حقا - بعد أن تبين لنا تعقد الظواهر اللغوية ، وتعدد مناهج دراستها - هو أن نختار أو نبتكر المخطط أو الطراز الذى يكون أكثرها ملاءمة لتحقيق الهدف .

وتقسيم التحليل اللغوى الى مستويات قائم في الحقيقة على أساس موقف أصحاب التقسيم من اللغة وما تتضمنه من جوانب .

كما أنه يقوم أيضا على أساس موقف كل فريق من الجانب الصوتى أو المادى في اللغة ، فبعضهم يرى أنه يستأهل أهمية مماثلة لأى جانب آخر من جوانب اللغة ، على حين يرى بعض آخر أنه يستوجب اهتماما خاصا ، لأنه يدرس وفق نظرية ومنهج مختلفين عن النظرية والمنهج اللذين تدرس بهما جوانب اللغة الأخرى .

وعلى ضوء ما سبق نعرض وبايجاز اتجاهين شائعين في التقسيم ، وعلى الباحث أن يختار التقسيم المناسب لبحثه .

الاتجـاه الأول :

ان دراسة اللغة - كما يقول (ماريو باى) - على ما جرى عليه العرف سواء كان المنهج وصفيا أم تاريخيا تتدرج في أربعة مستويات ، وان كانت الحدود بينها غير واضحة تماما كما نحب أن تكون . هذه المستويات هى :

١ - **مستوى الأصوات** Phonology ويدرس أصوات اللغة ، ويشمل كلا النوعين المعروفين باسم علم الأصوات العام Phonetics وعلم الفونيم Phonemics والوحدة الأساسية أو المادة الخام لعلم الأصوات العام هى الصوت المفرد Phone الذى يعرف بأنه صوت لغوى بسيط يمكن تسجيله بالآلات الحساسة في المعمل ، ولهذا العلم فروع هى : علم الأصوات النطقى ، وعلم الأصوات الفيزيائى أو الطبيعى ، وعلم الأصوات السمعى(١) .

---

(١) أسس علم اللغة ص ٤٣ ، ٤٧ ، ٤٨ .

وعلم الأصوات النطقى يقوم أساسا على تحديد مخارج الأصوات وبيان الصفات الصوتية التى تشكل الصوت ، انه يعطينا وصفا موضوعيا لهذه الأصوات وكيفية انتاجها وتصنيفها تصنيفا ضيقا أو واسعا ، وهذا التصنيف قد تكفلت به الأبجدية الصوتية الدولية التى تشتمل من الوجهة النظرية - على الأقل - التنوعات الأساسية الممكنة لأصوات الكلام ، وتصنيفها على حسب المخارج الصوتية المستعملة مع كل منها والأوضاع التى تتعرض لها هذه المخارج .

وعلم الأصوات الفيزيائى يقوم بدراسة التركيب الطبيعى للأصوات فهو يحلل الذبذبات والموجات الصوتية المنتشرة في الهواء بوصفها ناتجة عن ذبذبات الهواء في الجهاز النطقى المصاحبة لحركات أعضاء هذا الجهاز .

أما علم الأصوات السمعى فيقوم بدراسة ادراك الأذن والأعضاء الملحقة بها للأصوات كما يدرس سيكلوجية الادراك(١) .

أما علم الفونيمات فوظيفته وصف أصوات لغة معينة وتصنيفها على أساس من احساس المتكلمين باللغة واعتبارهم عددا من الأصوات صوتا واحـدا أو أصواتا منفصلة .

وعلى سبيل المثال يشعر المتكلم العربى بأن ألف المد في (طاب) وفي (تاب) وفي (قاب) ألف واحدة على الرغم من أنها تختلف في النطق في كل كلمة ، فهى في الكلمة الأولى مفخمة وفي الثانية مرققة وفي الثالثة بين بين . ولكنه يشعر بأن الطاء في (طاب) والتاء في (تاب) صوتان مختلفان على الرغم من أن الطاء كالتاء في كل الصفات الا أنها مفخمة ، والأساس في ذلك (أى في اعتبارهما صوتين مختلفين) هو احساس المتكلم أو حكمه بأنه يترتب على وجود (الطاء) في الكلمة الأولى و (التاء) في الكلمة الثانية خلاف في المعنى .

---

(١) أنظر : أسس علم اللغة ص ٤٧ وعلم اللغة العام (الأصوات) ص ١٧ ومقدمة لدراسة فقه اللغة ص ١٢٢ .

الفونولوجيا اذا يتفرع الى فرعين علم الأصوات وعلم الفونيمات .

وثمة تقسيم آخر شائع يفترض أن يدرس الجانب الصوتى علمان مستقلان هما :

علم الأصوات : Phonetics ووظيفته دراسة الصوت اللغوى الانسانى لذاته بصرف النظر عن وظيفته التى يؤديها في لغة معينة .

وعلم وظائف الأصوات : Phonology وهو دراسة طريقة تأدية الأصوات الانسانية لوظائفها في اللغات المختلفة ، وطريقة تناسقها في أنماط خاصة بكل لغة ، وتتسع دائرته لتشمل دراسة المقاطع والنبر والنغم ... الخ(١) .

٢ ـ مستوى الصرف Morphology أو مستوى دراسة الصيغ اللغوية وبخاصة تلك التغيرات التى تعترى صيغ الكلمات فتحدث معنى جديدا مثل اللواحق التصريفية كألف الاثنين وواو الجماعة وياء النسب .. في العربية ، فالكلمة (رجل) حين يضاف اليها ألف الاثنين تجعلها للمثنى فيقال (رجلان) والسوابق مثل السين وهمزة التعدية وحروف المضارعة ، فالسين مثلا حين تلحق الفعل المضارع تجعله للمستقبل فحسب ، ومثل التغيرات الداخلية التى تعترى بعض الصيغ مثل قلب تاء الافتعال حين تسبق بصوت مفخم نحو اصطبر واضطرب .

ويقول الأشمونى عن التصريف أو الصرف : يطلق على شيئين : تحويل الكلمة الى أبنية مختلفة لضروب من المعانى كالتصغير والتكسير واسم الفاعل واسم المفعول .. : والآخر تغيير الكلمة لغير معنى طارىء عليها ولكن لغرض آخر وينحصر في الزيادة والحذف والابدال والقلب والنقل والادغام(٢) .

والوحدة التى يعالجها علم الصرف هى (المورفيم) وهو أصغر وحدة

---

(١) مقدمة لدراسة فقه اللغة ص ١٢٢ ، ١٢٣ .

(٢)منهج السالك ص ٧٧٩ .

ذات معنى في اللغـة المدروسـة ، وعلى سبيل المثال تتألف (مسـلمات) من مورفيمين (مسلم) و (ات) ولا يمكن أن تنقسم الكلمة (مسلم) أو (ات) الى أقسام أخرى لهامعنى .

٣ ـ **مستوى النحو** Syntax الذى يختص بتنظيم الكلمات في جمل أو مجموعات كلامية ، ففى الانجليزية مثلا يقال John hit George والمتقدم هو الفاعل ، والسبب في ذلك ترتيب كلمات الجملة على النحو السابق ، ولو تقدم George لأصبح هو الفاعل ، ومثل هذا في العربية قولنا : ضرب موسى عيسى فالمتقدم هو الفاعل حتما .

بيد أن اللغات تختلف فيما بينها من حيث العناصر التى تمثل نحوها ، فالاعراب مثلا يقوم بدور كبير في التمييز بين معانى الأبواب النحوية في العربية ، وليس له مثل هذا الدور في اللغة الانجليزية .

ومن الواضح أن علاقة قوية تربط علم الصرف بالنحو ، وفي هذه العلاقة يقول (ماريو باى) : التغيرات الحادثة في داخل الكلمات نفسها تشكل موضوع علم الصرف morphology الذى يختص بدراسة الصيغ ، وتنظيم الكلمات في نسق معين يشكل موضوع علم النحو Syntax ، والصرف والنحو يكونان معا ما يسمى بعلم القواعد Grammar أو التركيب Structure (١) .

وشىء قريب من هذا قاله بعض النحاة القدامى ، فأبو حيان مثلا يجعل موضوع علم النحو يضم أحكام الكلمة في حالة الافراد أو في حالة التركيب : أى ما يشمل دراسـة الصيغـة وهو موضوع علم الصرف أو التركيب وهو موضوع علم النحو(٢) .

٤ ـ مستوى المفردات Vocapulary الذى يختص بدراسة الكلمات المنفردة ،

---

(١) أسس علم اللغـة ص ٥٣ .

(٢) أنظر السيوطى الهوامع ٢/ ٢١٢ .

ومعرفة أصولها ، وتطورها التاريخى ومعناها الحاضر وكيفية استعمالها ، ويدخل تحت دراسة المفردات : فرع يسمى الاشتقاق etymology وهو يختص بدراسة تاريخ الكلمات ، وفرع آخر يسمى الدلالة Semantics ويختص بدراسة معانى الكلمات ، وهناك فرع يسمى المعجم Lexicology وهو فن عمل المعجمات اللغوية(١) .

وقد سبق أن عالجنا موضوع عمل المعاجم عند الحديث عن علم اللغة التطبيقى . هذا وقد جعل (ماريو باى) علم السيمانتيك أو الدلالة فرعا من فروع المعجم يختص بدراسة معانى الكلمات ، وفي هذا المنحى يقول الدكتور (بشر) : وفي رأى البعض أن السيمانتيك يدرس المعنى على مستوى اللفظة المفردة على نحو ما يجرى في المعجمات وما يشبهها من كتب اللغة التى تعنى بجمع الثروة اللفظية وتفسيرها بوجه من الوجوه ، وهذه ـ كما يقول المدققون ـ نظرة ضيقة قنعت بالأمور السطحية ، ولم تأت بجديد في هذا الشأن أكثر من تقديم تسمية جديدة لدراسة قديمة معروفة هى صناعة المعجمات وما يرتبط بها من تصنيف كلمات اللغة واعطائها معانيها العامة(٢) .

وثمة رأى آخر يجعل السيمانتيك فرعا خاصا من الفروع اللغوية ويجعل موضوعه : المعنى على مستوى اللفظة والعبارة كليهما ، ولكن في اطار اجتماعى معين ، ومن زاوية معينة هى : زاوية الاستعمال الحى في البيئة الخاصة ، وهو منهج (فيرث) الذى يفضله الدكتور بشر ، ويعرف أحيانا هذا الفرع بعلم المعنى الاجتماعى

وفي هذا الفرع يقول الدكتور تمام : اللغة نتاج اجتماعى بلا شك .. وهذا الجانب الاجتماعى في اللغة لابد من مراعاة الكشف عنه في ابانة المعنى ، وان وجود هذا العنصر الاجتماعى في اللغة ليدفعنا الى الكلام عن معنى اجتماعى هو المعنى الدلالى الذى يتوافر فيه الخصوص الذى افتقدناه في المعنى المعجمى

---

(١) اسس علم اللغة ص ٤٤ .

(٢)دراسات في علم اللغة (القسم الثانى) ص ١٥٣ ، ١٥٤ .

العام ، واذا كان المعنى المعجمى هو معنى الكلمة فليس المعنى الدلالى الا معنى المنطوق الذى هو نشاط نطقى قبل كل شىء (١) .

الحدود بين المستويات :

ان الحدود بين هذه المستويات الأربعة غير واضحة تماما ومتشابكة ، فأصوات اللغة مثلا تتاثر كثيرا بالصيغ والعكس صحيح ، والصوت والصيغة كلاهما يتاثران غالبا بالمعنى ، كذلك يوجد تبادل مطرد بين الصرف والنحو كما هو الحال بالنسبة لبعض اللغات حين تستعمل واحدا منهما وتستغنى عن الآخر ، ولهذا فان الصرف والنحو كثيرا ما يجمعان تحت اسم واحد هو التركيب القواعدى Gramatic structure (٢) .

الاتجـاه الثـانى :

انتهينا فيما سـبق الى انه لا خلاف بين اللغويين في القول بأن الحدث اللغوى يمكن النظر اليه على انه يتضمن جوانب متعددة ، وأن كل جانب منها يمكن أن يقوم بدراسته فرع أو أكثر من فروع علم اللغة ،بيد أنهم مختلفون في عد هذه الجوانب وفي تسمية العلوم التى تقوم بدراستها وفي تحديد مجالها .

وقد عرضنا موقف بعض الباحثين الذين يرون أن علم اللغة (الذى يدرس اللغة دراسة علمية) يمكن أن يدرس جوانب اللغة وفقا لمستويات أربعة يعتمد بعضها على بعض هى : مستوى الأصوات والصرف والنحو والمفردات .

ومن أكثر الآراء التى أبديت في هذا الموضوع أهمية وانتشارا بين الباحثين ما رآه الباحث (هاليـداى) ورفيقاه ، وقد رأينا من المفيـد أن نعرض لهذا الرأى بالتفصيل .

---

(١) اللغة بين المعيارية والوصفية ص ١٢١ .

(٢) أسس علم اللغة ص ٤٤ ، ٤٥ .

يستخدم (هاليداى) مصطلح (العلوم اللغوية Linguistics Sciences ليغطى موضوعين مترابطين جدا، وان كانا متمايزين هما : علم اللغة Linguistics وعلم الأصوات Phonetics . وهما مترابطان بشدة لأنهما يدرسان نفس المادة أى اللغة لنفس الهدف أى اكتشاف كيف تعمل ، وهما متمايزان ، لأنهما يدرسان جوانب مختلفة من اللغـــة ويحتاجان الى مناهج مختلفة لوصف هذه الجوانب(١) .

وعلم اللغة ـ عند باحثين آخرين ـ يغطى المجالين السابقين كليهما ، ومن ثم فان علم الأصوات عند هؤلاء يعد فرعا من علم اللغة لا قسيما له ، كما هو عند (هاليداى) ، ولا يرى (هاليداى) بأسا في هذا ، ولكنه يفضل استخدام مصطلح (علم اللغة) و (علم الأصوات) كمصطلحين متكاملين ، وجمعهما معا في اطار المصطلح ، (العلوم اللغوية) لأنه كان حريصا على أن يتوفر للباحثين مصطلح خاص يشير الى الجانب غير الصوتى للغة .

ان تحديد مستويات البحث في اللغة بجوانبها المتعددة ، وبيان العلوم التى تنهض بدراستها ينبنى على نظرة خاصة الى اللغـة . واللغة ـ عنـد هاليداى ـ ليست جهازا عضويا ـ على حد ما قاله معظم اللغويين في القرن التاسع عشر ـ ، وليست بناء أو صرحا ـ كما عدها علماء اللغة التركيبيون أو البنيويون في العصر الحديث ، اللغة نشاط ، نشاط يتمثل أساسا في أربعة أشكال : الكلام والسمع والكتابة والقراءة ، وهذه الأنشطة تتمثل في عمليات مادية يمكن ملاحظتها ومن ثم دراستها (٢) .

وثمة بالطبع عمليات أخرى في اللغة لم نتمكن من دراستها حتى الآن ، وبخاصة المراحل الادراكية ، فالعمليات المتصلة بالسمع والقراءة والتى تحدث في أعضاء الحس وفي الجهاز العصبى وفي المخ قد فهمت بعض الفهم ، ولكن مازال أمر دراستها أمرا عسيرا ، والدراسة الحديثة تبدأ بالقاء ضوء على ادراك الأصوات الكلامية ، ولكننا مازلنا بعيدين جدا حتى الآن من قدرتنا

---

(٢٠١) أنظر The Linguisticss ciencse and Language Teachining p.p. 9,10

على تسجيلها بوضوح . ولهذا ينصح (هاليداى) بأن نكتفى بوصف الجوانب المادية التى يمكننا ملاحظتها ، وأن نتجنب الوقوع في محاولة شرح المعروف بالمجهول وما يمكن ملاحظته بما لا يمكن ملاحظته .

والعمليات المادية الأساسية للنشاط اللغوى هى انتاج وادراك ونقل (في اللغة المنطوقة) نوعين من المادة الخام للأحداث اللغوية هما : الموجات الصوتية المسموعة والعلامات المرئية .

والجانب المادى (material) المتمثل في العمليات السابقة ليس هو الجانب الوحيد للنشاط اللغوى ، فثمة جانبان آخران ينبغى أن نضعهما في الاعتبار هما : الجانب التركيبى أو البنيوى (Structrual والجانب المحيطى أو البيئي (enviromental)(١) .

ان الأحداث اللغوية لا تقع في وسط مادى فحسب ، بل تكشف عن اطرادات محددة في علاقاتها الداخلية التى لا يمكن ملاحظتها مباشرة في الحدث المادى . . كما أنها لا تقع في عزلة بل لها علاقات مطردة بأحداث أخرى خارج اللغة .

وهذه الجوانب الثلاثة للنشاط اللغوى : المادى والتركيبى والمحيطى هى السبب في تقسيم النشاط اللغوى الى مستويات ، ومن هذه الجوانب نستنبط ثلاثة مستويات أساسية هى :

* المادة Substance والشكل Form والمقام Context

ولنأخذ الجملة الآتية لتوضيح ذلك : (المطر غزير) .

المادة : هى الجملة السابقة منطوقة أو مكتوبة ، وعلى هذا فالمادة هى الواسطة أو الوسيلة التى تنقل بها اللغة .

الشكل : هو هيكل أو مظهر الوحدات التى تؤلف الجملة السابقة : أل

---

(١) انظر : The Linguistics sciences and Language Teaching, p. 10

(أداة تعريف) + مطر(اسم) + غزير (وصف) .

والعلاقات التى بينها فالجملة نفسها تتألف من وحدتين هما : (المطر) وهى من أشكال المسند اليه ، و (غزير) وهى من أشكال المسند ، والشكل (المطر) يتألف من وحدتين هما (ال) وهى للتعريف و (مطر) .. الخ .

المقام : هو العلاقة بين الشكل اللغوى المنطوق أو المكتوب والعالم الخارجى أى الموقف الذى قيلت فيه الجملة السابقة .

والآن أعتقد أن نظرة (هاليداى) الى اللغة وتحديده لجوانبها قد أصبحت واضحة بحيث نعود لنفصل القول فيما رآه من اعتبار العلوم اللغوية علمين لا علما واحدا . يقول : السبب هو أننا نستخدم نظريات ومناهج لكل منهما على انفراد ، فحين نصف (المادة) نستخدم نظريات ومناهج مأخوذة من المجالات العامة لعلم وظائف الأعضاء والطبيعة ، ولهذا فان دراسة المادة تنتمى الى العلوم الطبيعية (الفيزياء والبيولوجيا) ودراسة المادة الصوتية هى علم الأصوات .

أما الجانبان الآخران للغة : الجانب الشكلى والمقامى فيتطلبان نظرية ومناهج لها صفات العلوم السلوكية والاجتماعية ، وهذان الجانبان يمكن جمعهما معا في مجال دراسى واحد هو علم اللغة .

واذا ما اعتبرنا اللغة المنطوقة أصواتا في نظام ، جعلنا علم الأصوات يدرس الأصوات وعلم اللغة يدس النظام(١) .

وعلاقة علم الأصوات بالعلوم الطبيعية والبيولوجية واضحة ، ولهذا كانت دراستها دراسة علمية تجريبية أمرا مقررا ، فعلم الأصوات النطقى له اتصال بعلم وظائف الأعضاء بينما علم الأصوات الاكوستيكى (دراسة الموجات الصوتية) له اتصال بعلم الطبيعة .. وفي دراسة الجانب الادراكى للكلام

---

(١) انظر : The Linguistic sciences and Language Teaching, p. p. 12, 13

نتبين مرة أخرى أنله علاقة بعلم وظائف الأعضاء ، وله أيضا علاقة بعلم النفس.

أما علم اللغـة - الذى يعنى بدراسـة نماذج من العلاقات بين الأحداث اللغوية ، هذه الأحداث أجزاء من النشاط المحدد اجتماعيا - فعلاقته واضحة بالعـلوم الاجتماعيـة : علم النفس وعلم الاجتماع وعلم الانثروبولوجيا الاجتماعى .

والأحداث اللغوية تقع في نماذج داخلية وخارجية ، والنموذج الداخلى هو ما يعرف بالشكل اللغوى ، ودراسة الشكل اللغوى تتبع القواعد العامة التى تحكم دراسة الخصائص والأحداث المترابطة تركيبيا والتى تكون من حيث الجوهر منطقية واحصائية احتمالا . والنموذج الخارجى هو ما يطلق عليه المقام وهو الذى يوضح العلاقة بين الأحداث اللغوية والظواهر غير اللغوية، ودراسة المقام توضح عادة تحت عنوان (علم المعنى أو الدلالة Semantics وعلم المعنى عادة : ما يتضمن منهجا خاصا بالمفاهيم ، وهى دراسة تميل الى أن تكون منفصلة عن الدراسات اللغوية الأخرى(١) .

وقد أوضح (هاليداى) ما يعنيه سابقا من أن العلاقات التى بين الأشكال اللغوية منطقية في جوهرها بأن هذا لا ينبغى أن يفهم منه أن هناك علاقة بين المنطق واللغة ، أو أن الاسناد المنطقى يمكن أن يستخدم في تفسير العلاقات بين المفردات اللغوية · والذى يعنيه هو العلاقة الموجودة بين المنطق وعلم اللغـة ، بمعنى أن من الممكن الاستفادة من المنطق ليشكل الصحـة النظرية للنماذج المستخدمة في وصف اللغة ، ويشكل تناسق علاقاتها بعضها ببعض في اطار البناء الكلى للنماذج(٢) ·

وقد وضع (هاليداى) الجدول الآتى ليوضح البناء الكامل لمستويات الدراسة الوصفية أتم توضيح .

---

(٢٠١) أنظر The Linguistic Science and Language Teaching p. 12, 13

الموضوع المدروس	علم الأصوات		علم اللغة		
المستوى (عام)	المادة صوتية مكتوبة	علاقة الشكل بالمادة	الشكل	المقام علاقة الشكل بالموقف	العرف ظاهرة غير لغوية
المستوى (خاص)	علم الأصوات	فونولوجي	النحو المعجم (القاموس)	علم المعنى	
	الإملاء	جرافولوجي (نظام الكتابة)			

وبعد فمن الممكن الآن أن نتبين الأفكار الأساسية الآتية :

- اللغة نشاط يتمثل في ثلاثة جوانب : الجانب المادى والجانب التركيبى والجانب المحيطى ، والعلم الذى يدرس الجانب المادى هو علم الأصوات ينتمى الى العلوم الطبيعية (الفيزياء والبيولوجيا) وهو يستخدم نظريات ومناهج هذه العلوم ، أما العلم الذى يدرس الجانب التركيبى والمحيطى فيتطلب نظرية ومناهج لها صفات العلوم السلوكية والاجتماعية .

- المستوى العام (في الجدول) يقصد به خصائص اللغة ، فاللغة : مادة ، وشكل ، ومقام (معنى) .

- المستوى الخاص (في الجدول) يقصد به العلوم التى تدرس هـذه الخصائص .

يدرس علم الأصوات مادة اللغة منطوقة أو مكتوبة ، وثمة علم آخر يدرس علاقة المادة بالشكل وهو (الفونولوجيا Phonology)هذا اذا كانت المادة منطوقة ، فان كانت مكتوبة درسها من حيث هى مادة (علم الاملاء Script ومن حيث علاقتها بالشكل علم الجرافولوجى (علم نظام الكتابة) .

-يدرس علم اللغة الشكل والمقام (علاقة الشكل بالعالم الخارجى) فالشكل يدرسه علم النحو grammar (وهو يشمل الصرف) والمعجم Vocabulary وان كان كل منهما يدرسه من زاوية مختلفة ، ويدرس المقام علم المعنى أو الدلالة Semantics .

- ثمة جانب من جوانب اللغة لا يدخل في مجال علم اللغة الوصفى وهو دراسة اللغة في علاقتها بالذين يستخدمونها ، وهذا الجانب يعده (هاليداى) فرعا منفصلا من العلوم اللغوية ويدرسه كموضوع خاص .

- عندما ندرس اللغة تنكشف لنا أنواع مختلفة من النماذج في صـور متكاملة لا يغـاير بعضها بعضـا بل تتفاعل في الحدث اللغوى ودون حدود فاصلة ، ولهذا لا ينبغى النظر الى جوانب اللغـة أو الى العلوم التى تقوم

بدراستها الا بهذه النظرة .

ومن المفيد ـ بعد ما لخصناه من أفكار أساسية ـ أن نعرض بالتفصيل ما رآه (هاليداى) ورفيقاه من الفرق بين الفرعين اللذين يدرسان أصوات اللغـة (علم الأصـوات وعلم الفونولوجى) وبين الفرعين اللذين يدرسـان الشكل اللغوى (النحو والمعجم) .

أولا : علم الأصوات والفونولوجيا (علم نظام الأصوات) .

لقد رأينا (هاليداى) يعد علم الأصوات قسيما لعلم اللغة لا فرعا له ، ورأيناه كذلك يقرر أننا اذا اعتبرنا اللغة المنطوقة أصواتا في نظام ، فان علم الأصوات هو الذى يدرس الأصوات ، وعلم اللغة هو الذى يدرس النظام ، ، وبين علم اللغة وعلم الأصوات يقع الفونولوجيا (أو علم وظائف الأصوات) كما سماه الدكتور أبو الفرج ، ان الفونولوجيا هى الواسطة بين المـادة (موضوع علم الأصوات) والشكل (موضوع علم اللغـة) لأنها هى التى تضع أصوات اللغة في أنماط ونماذج ، هذه الأنماط أو النماذج تستغل كمكونات للعناصر الشكلية للغة . ولهذا كانت (الفونولوجيا) ذات ارتباط وثيق بهذين العلمين ، ولا يجوز الفصل بينهما الا لغرض التحليل اللغوى ، ولا غنى عنها في الدراسة اللغوية اذا أريد لها أن تكون شاملة ودقيقة(١) .

ثانيا : النحو والمعجم .

يقرر (هاليداى) ابتداء شيوع ثلاثة أفكار مضللة بخصوص الفرق بين العلمين .

الأولى : أن المعجم يعالج مفردات اللغة ، والنحو يعالج كل شىء آخر (أى العناصر الصغرى التى تتألف منها الكلمات والعناصر الكبرى التى تتألف من الكلمات) .

---

(١) انظر : The Linguistics Sciences and Language Teaching, p.

الثانية : أن المعجم يعالج مفردات اللغة ، والنحو يعالج العلاقات المجردة بين هذه المفردات .

الثالثة : أن المعجم يعالج المعنى ، والنحو يعالج الشكل .

ثم يقرر أن الفكرة الثالثة خاطئة تماما ، لأن الشكل جزء من المعنى لا نقيض له ، والنحو والمعجم كلاهما يعنيان بالمعنى . ويقرر كذلك أن في الفكرتين الأولى والثانية بعض الصواب ، ومع ذلك يرى أن ما يطلق عليه (الكلمة) ينتمى في الحقيقة الى النحو والمعجم ، ولكن من زاوية مختلفة ، والنحو والمعجم يعالجان ـ في الحقيقة ـ مفردات وعلاقات تجريدية ، وان كان من الحق القول بأن التجريد أكثر في النحو منه في المعجم(١) .

ويوضح (هاليداى) الفرق بين العلمين بطريقة جيدة قائمة على أساس مفهوم الاختيار في النحو والمعجم .

لو قلت لك ضع في المكان الخالى مما بين القوسين كلمة مناسبة (.... الرجل كان جالسا) لقلت (هـذا) ، لقد اخترت (هـذا) من بين مجموعة محدودة جدا من العناصر اللغوية هى ما يطلق عليه أسماء الاشارة وهى (هذا وهذه وهاذان وهاتان وهؤلاء) .

ولكننى لو قلت لك ضع كلمة مناسبة في المكان الخالى مما بين القوسين (هذا الرجل كان جالسا على ...) .

فمن المحتمل أن تقول : كرسى ، أريكة ، الحشائش ، بساط ومن المحتمل أن تقول شيئا آخر ، بل من المحتمل ألا يتفق شخصان فيما يمكن أن يضعاه من كلمات .

أنت في الحالة الأولى تختار من مجموعة محدودة من المفردات ، وفي الحالة

---

(١) The Linguistics sciences and Language Teaching p. p. 22, 23

الثانية من مجموعة غير محدودة غالبا ، وهذا هو أساس الفرق بين النحو والمعجم .

النحو يختص بالاختيار من النوع الأول حيث الاحتمالات محدودة ، وحيث يوجد خط فاصل بين ما هو ممكن وما هو غير ممكن ، فلو قلت (هذه) بدلا من (هذا) لتبينت أن (هذا) غير ممكن لمخالفته للقاعدة التى توجب المطابقة بين البدل والمبدل منه في هذه الحالة . وأما المعجم فمجال الاختيار فيه من النوع الثانى حيث الاحتمالات بلا حدود غالبا . ويعرف النوع الأول بالاختيار المغلق Closed والنوع الثانى بالاختيار المفتوح Open ، ان معدل الاختيار من النوع المغلق يطلق عليه اصطلاح (النظام System) ، ومن النوع المفتوح يطلق عليه (القائمة Set)وغالبا ما يقال عن النحو : انه مختص بالنظام المغلق Closed System ، وعن المعجم بأنه مختص بالقائمة المفتوحة Open System أو بعبارة مختصرة : النحو نظام والمعجم قائمة(١) .

والسمة الأساسية للنظام المغلق أن عناصره يمكن تعريفها تماما سلبيا وايجابيا ، وعلى سبيل المثال ألف الاثنين عنصر من عناصر النحو في اللغة العربية، ويمكن تعريفها سلبا بالقول بأنها ليست مفردا أو جمعا ، والفعل الماضى كذلك جزء من نظام الفعل في النحو العربى ، ويمكن تعريفه سلبا بأن نقول : انه ما ليس مضارعا أو أمرا ... وهكذا الأمر في كل ما يتصل بعناصر النحو ، بيد أنه لا يمكننا أن نفعل ذلك مع عناصر المعجم اذ لا يمكن أن نعرف الكرسى بأنه ما ليس كنبة أو بساطا(٢) .

والفرق السابق ـ مع ذلك ـ ليس حاسما ، في طرف نجد عناصر النحو المتمثلة في النظام المغلق ، وفي الطرف الآخر نجد عناصر المعجم المتمثلة في القائمة المفتوحة . لقد تبين أن في كل اللغات عناصر تقع في الوسط بين النظام والقائمة تتدرج من هذا الطرف الى ذاك ، حيث يكون عدد الاحتمالات مقيدا ،

---

(١) أنظر : The Linguistic sciences and Language Teaching p. p. 21 2

(٢) أنظر السابق ص ٢٤ .

ولكنه مع ذلك كبير ، ومن أمثلة ذلك حروف الجر في العربية ، ولهذا يختلف الباحثون في معالجتها فبعضهم يعالجها في النحو وبعضهم يعالجها في المعجم .

واذا أردنا الدقة فان اللغة لا ترسم خطا فاصلا بين النحو والمعجم ، ومع ذلك فمن الضرورى أن يرسم مثل هذا الخط ، لأن عناصر كل منهما تحتاج الى نظريات مختلفة لتفسيرها أى : أننا لا يمكننا أنفسر النموذجين كليهما (نماذج النحو) ونماذج المعجم) بنفس الأقسام والعلاقات(١) .

---

(١) أنظر السابق ص ٢٢ .

المبحث الثانى

منهج مقترح لتحليل الوحدات اللغوية

تكرر في غير موضع من هذا الكتاب قولنا : ان اللغة نظام ، أى أنها تتألف من وحدات ومن قواعد وعلاقات تحكم هذه الوحدات . لقد تبين للغويين أن معظم لغات العالم لها نظام صوتى ونظام صرفي ونظام نحوى ، ولكل نظام من هذه الأنظمة وحدات وقواعد وعلاقات تحكم هذهالوحدات ولهذا قيل : ان اللغة نظام الأنظمة .

وقد كان (دى. سوسير) ينظر الى اللغة باعتبارات ثلاثة : اعتبار نفسى واعتبار اجتماعى واعتبار شكلى ، ويتمثل الاعتبار الأخير ـ وهو الذى يعنينا هنا ـ فيما قرره من أن اللغة مجموعة من النظم المتداخلة التى تكون فيما بينها نظاما تركيبيا عاما هو الذى نسميه قواعد اللغة ، وهو لا يعنى بالنظام مدلول التركيب أو الصيغة بل يعنى التركيب نفسه أو الصيغة نفسها ، وهذا هو الجانب الشكلى(١) .

الدراسة الشكلية اذا هى التى تدرس النظام أى وحدات اللغة وقواعدها وعلاقاتها .

ونظرا لاعتماد الدراسة اللغوية الحديثة على الجانب الشكلى للغة فقد وثق بعض اللغويين علاقتها بالعلوم الرياضية على اعتبار أن علم اللغة والعلوم الرياضية معنيان بالأنظمة الشكلية أى بالعلاقات التى تربط بين العناصر التى تؤلف النظام ، وقد كان الهدف من ذلك هو الوصول الى دقة في الدراسة اللغوية

---

(١) أيوب (د. عبد الرحمن) اللغة والتطور ص ٨٣ .

تعدل الدقة في العلوم الرياضية(١) .

والمصطلح (شكلى Formal) يراد به : معايير أو خصائص لغة ما يمكن أن تستخدم في التحليل اللغوى كأساس لتصنيف وحداتها وأنماطها أو نماذجها مثل : صيغ الكلمات أو نماذج الجمل أو ترتيب عناصرها ٠٠ الخ .

واللغويون قد يقابلون الخصائص الشكلية بالخصائص الدلالية ، وفي هـذه الحالة تكون كلمـة (شـكل) مقابلة لكلمـة (معنى) ، وقد يقابلون الخصائص المادية للغة المنطوقة أو المكتوبة ، وفي هذه الحالة تكون الكلمة (شكل) مقابلة لكلمة (مادة)(١) .

وتردد كذلك قول بعض اللغويين ان اللغة بنية أو تركيب ، وأن علم اللغة الوصفى قد يعنى عند بعض البـاحثين علم اللغة التركيبى . وبهـذا يكون موضوع هذا العلم هو بنية اللغة أو تركيبها .

ويعرف علم اللغة التركيبى ـ بأوسع معانيه ـ بأنه أى دراسة لغوية لأية لغة على أنها نظام مستقل من الخصائص الصوتية والمعجمية تدرس من أجل ذاتها . ويعرف ـ بأضيق معانيه ـ على أنه يشير الى منهج جماعة معينة من اللغويين الأوربيين (كاللغويين المعروفين بمدرسة براغ) الذين يزعمون أنه : لا عنصر من عناصر اللغة يمكن تحليله بمعزل عن العناصر الأخرى للغـة نفسها(٢) .

ونخرج من هذا بأن الدراسة الشكلية والتركيبية يدرسان اللغة من حيث هى نظام أو مجموعة من الأنظمة ، لكل نظام منها وحدات وقواعد وعلاقات .

ويطلق على وحدات النظام الصوتى المصطلح Phonemes فونيمات أو وحدات صوتية ، ويطلق على وحدات النظام الصرفي المصطلح Morphemes

---

(١) Dinneen, An Intröduction to general Linguistics p.p. 67, 68

(٢) Hartmann and Stork, Dictiönary of Language and Linguistics

مورفيمات أو وحدات صرفية ، أما وحدات النظام النحوى فهى بعينها الوحدات الصرفية حين تنظم في عبارات أو جمل .

وسوف نعرض هنا بايجاز المخطط الشائع بين اللغويين أصحاب المنهج الشكلى أو التركيبى في تحليل هذه الوحدات تحليلا لغويا .

أولا : الوحدات اللغوية

١ - الفونيـــم :

يعرف دانيال جونز الفونيم بأنه : عائلة من الأصوات المترابطة فيما بينها في الصفات في لغة معينة ، والتى تستعمل بطريقة تمنع وقوع أحد الأعضاء في كلمة مّن الكلمات في نفس السياق الذى يقع فيه عضو آخر من العائلة نفسها(١).

فالنون في نبع وانساب واندحر وانشطر وانكسر فونيم واحد على الرغم من أنها تتميز في كل موقع من المواقع السابقة بصفة اكتسبهتامن وقوعها موقعا خاصا منها ، وان كانت كل هذه النونات تشترك في صفات أخرى تجعلها مخالفة لأى فونيم آخر . وهذا معناه أن النون فونيم واحد له تنوعات مختلفة تظهر في سياقات خاصة ، ويطلق على هذه التنوعات المصطلح ألفون allophone فالنون اذا فونيم له ألوفونات تظهر في مواقع خاصة .

وهناك تعريفات أخرى للفونيم والألوفون نشير هنا الى تعريف (فوكس) لأنه سيلقى الضوء على هذا المفهوم يقول : الفونيم صورة ذهنية يكد المتكلم في الوصول اليها ، أما الصوت allophone فهو الانجاز الذى يحققه تحت أى ظرف معين وفي أى محيط محدد(٢) . وعلى هذا ففونيم النون المشار اليه سابقا ليس له وجـود فعلى أو تحقق واقعى بل هو فكرة مجـردة في ذهن المتكلمين

---

(١) بشر (د. كمال) علم اللغة العام (الأصوات) ص ١٥٧ .

(٢) ماريو باى أسس علم اللغة ص ٩٠ .

بالعربية ، أى أنه ليس واحدا من النونات السابقة التى في نبع أو في انثاب ٠٠٠٠ الخ ، وهذه النونات ليست الا الأشكال الواقعية المتحققة التى يقوم المتكلم بانتاجها ، ويقوم السامع باستقبالها ، وليست الا محاولات يقوم بها المتكلم لتحقيق الفكرة المجردة لفونيم النون ، وهى ـ كما أسلفنا ـ يتم انجازها تحت شروط خاصة (موقعها مما قبلها ومما بعدها) .

ويفطن المتكلمون باللغة المعينة الى الاختلافات الفونيمية ، ولكنهم قليلا ما يدركون الفروق الصوتية التى تميز أفراد الفونيم الواحد(١) . فلو نطق أحدهم بالفعلين انتصر واقتصر لأدرك السامع الفرق بينهما ، ولكنه ربما لا يفطن الى الفرق بين النون في انتصر وانكسر ٠ وذلك راجع الى أن تغيير الفونيم يصحبه تغيير في المعنى على حين لا يترتب على التغيير الصوتى تغير في المعنى ، وعلى هذا فالوحدة الصوتية أو الفونيم تشير الى فرق في المعنى ، ولكنها لا تشير الى شيء خارج السياق اللغوى ، فالقاف من (قام) تشير الى فرق بين هذه الكلمة وكلمات أخرى تتفق معها في الوحدات الأخرى مثل : (نام) و (صام) و (عام) ٠٠٠ الخ فالقاف من (قام) والنون من (نام) والعين من (عام) هى التى جعلت كل كلمة من الكلمات السابقة مختلفة عن الأخرى ، ولكنها لا تدل وحدها على شيء مما تدل عليه الكلمة كلها .

وفي بعض اللغات مجموعة من الفونيمات يطلق عليها الفونيمات الثانوية كالنبر والتنغيم وهى ظواهر صوتية اضافية تصاحب الفونيمات الأساسية أو مجموعاتها .

وقد يكون لهذه الفونيمات تأثير في المعنى في بعض اللغات . ففى الانجليزية تكون الكلمة Present ظرفا اذا نبرت المقطع الثانى ، وتكون فعلا اذا نبرت المقطع الأول ، ويرتبط النبر بقوة الصوت أو علوه .

أما التنغيم فيؤدى دورا كبيرا في اللغة الصينية ، وقيمته تعادل تماما قيمة السواكن أو الحركات فالكلمة Fu تنطق بأربعة ألحان مختلفة فتعنى

---

(١) ماريو باى أسس علم اللغة ص ٩٠ .

مرة (رجل) ومرة (حظا سعيدا) ومرة (مقر الوالى) ومرة (غنى)(١) . ولكنه يؤدى دورا أقل أهمية في الانجليزية والعربية . ففى العامية المصرية مثلا تنطق الجملة (محمد جه) بنغمات مختلفة فتكون مرة للاخبار بمجيئه ، ومرة للسؤال عن مجيئه .

ويرتبط التنغيم بتركيب نغمة الصوت الأساسية .

٢ ـ المورفيـــم :

يعرف المورفيم بأنه : أصغر وحدة ذات معنى في تركيب اللغة(٢) .

ويقصد بالمعنى هنا العلاقة بين المورفيم كجزء من النظام التعبيرى للغة والوحدة المقابلة له في نظام المضمون في نفس اللغة . فالكلمة (تفاحة) مورفيم، لأنها ترتبط ارتباطا مباشرا بفرد من أفراد نظام المضمون في اللغة العربية أى صورة الثمرة المعروفة .

وقد يتألف المورفيم الواحد من عدد من الفونيمات فالكلمة كتاب تتألف من الفونيمات : k + i + t + aa + b وقد يكون من فونيم واحد ومثاله في الانجليزية S فالشكل Books يتألف من مورفيم Book والمورفيم S وهو أصغر وحدة ذات معنى في النظام التعبيرى في اللغـــة الانجليزية ، وهو يدل على الجمع ، ومثاله في العربية تاء التأنيث فهى أصغر وحدة ذات معنى في اللغة العربية وهى فونيم واحد .

ومن التعريفات المفيدة للمورفيم : سلسلة من الفونيمات ذات المعنى لا يمكن تقسيمها بدون فقدان المعنى أو تغييره(٣) . فالشكل : (كتابان) يمكن تقسيمه الى شكلين هما كتاب + ان ، فالمورفيم (كتاب) يشير الى شىء

---

(١) أنظر : ماريو باى أسس علم اللغة ص ٩٣ ، ٩٤ .

(٢) Gleason, An Introduction to descriptive Linguistics, p. 5.9

(٣) أسس علم اللغة ص ١٠١ .

محدد معروف ، والمورفيم (ان) يشير الى التثنية . غير أن المورفيم (كتاب) لا يمكن تقسيمه بعد ذلك فلا يمكن أن يقال Ki + taab فالجزء الأول Ki لامعنى له وكذلك الجزء الثانى .

المورفيم الحر والمورفيم المقيد :

من المناسب هنا أن نشير الى نوعين من المورفيمات النوع الأول هو ما نسميه المورفيم الحر ، وهو وحدة صرفية يمكن أن تستخدم وحدها باعتبارها كلمة ذات معنى محدد . والنوع الثانى هو ما نسميه المورفيم المقيد : وهو وحدة صرفية لا يمكن أن تستخدم وحدها باعتبارها كلمة ذات معنى محدد(١) .

فالشكل (مسلمون) يتألف من مورفيمين أحدهما وهو (مسلم) مورفيم حر حيث يمكن استخدامه وحدة باعتباره كلمة ذات معنى محدد ، والثانى هو المورفيم (ون) ولا يمكن استخدامه وحده باعتباره كلمة مستقلة . والمورفيم الحر هو ما يطلق عليه (الكلمة) .

ويعنى هذا أن المورفيم المقيد لا يوجد في اللغة المعينة مستقلا بنفسه بل لابد من اتصاله بسواه من المورفيمات .

ومن أمثلة المورفيمات المقيدة في العربية ما يسمى اللواصق ، واللواصق تنقسم الى ثلاثة أنواع :

النوع الأول : ويعرف بالسوابق وهى المورفيمات التى تسبق المورفيم الحر ، ومن أمثلتها حروف المضارعة وهمزة التعدية .

النوع الثانى : ما يعرف بالأحشاء وهى المورفيمات التى تتوسط المورفيم الحر ، ومن أمثلتها تضعيف عين الفعل ، وألف فاعل وألف جمع التكسير .

---

(١) أنظر : أسس علم اللغة ص ٥٣ ، ٥٤ .

النوع الثالث : ما يعرف باللواحق وهى المورفيمات التى تلحق بآخر والمورفيم الحر مثل ياء النسب وتاء التأنيث وعلامة جمع التصحيح والتثنية .

المورفيم والألومورف :

لعلك لاحظت معى أن الفرق بين معنى قام وقامت هو وجود المورفيم تاء التأنيث في الشكل الثانى ، وأن الفرق بين كتب Kataba وكتب Kutiba هو في نوع الحركة في المقطع الأول وفي المقطع الثانى منهما ، وهذا معناه أن التغيير في شكل الكلمة يترتب عليه تغيير في المعنى . ولكن قد يقع تغيير في الشكل لا يترتب عليه تغيير في المعنى ، ولعل المثال الآتى من اللغة الانجليزية يوضح القضية السابقة .

نلاحظ أن اللاحقة S حين تضاف الى الكلمات الآتية cat, dog, rose يكون لها نفس الوظيفة ، وهى الدلالة على الجمع ، ولكنها تتغير مباشرة بنوع الأصوات التى تسبقها ، فالصوت الأخير في Cats يشبه الصوت الأول في الكلمة Sue والصوت الأخير في dogs يشبه الصوت الأول في الكلمة Zoo والصوت الأخير في roses يشبه أصوات الكلمة is .

ومعنى هذا أن المورفيم الواحد قد يظهر في أشكال صوتية مختلفة تبعا لما يسبقه من أصوات فهو S بعد P, t, k, o, وهو iz بعد S, Z, S, e وهو Z بعد الأصوات الساكنة الأخرى .

وهذا مؤداه أن المورفيم S الذى معناه الجمع قد يظهر في أشكال مختلفة في مواقع لغوية محددة ، وهذه التنوعات لا يقابلها تغير في المعنى ، فهى كلها على الرغم من تعددها تؤدى معنى واحدا هو : الجمع ، ولهذا يفرق اللغويين بين المورفيم وبين أشكاله المختلفة في مواقع محددة ، ويطلق على هذه التنوعات allmorphes ألومورفات .

---

(١) أنظر Gleaeon, An Introduction to descrptive Linguistics, p. 5.22 وأسس علم اللغة ص ١٠٤ .

والخلاصة أن الأشكال اللغوية s, z, iz ـ اهى الا الومورفات لمورفيم واحد هو / S /.

ومن أقرب الأمثلة لتوضيح هذا الموضوع أن الألف والتاء حين يضافان الى اسم أو وصف في العربية يفيدان معنى الجمع المؤنث فيقال في زينب زينبات وفي مسلم مسلمات ... وهكذا .

والألف تأخذ في النطق اشكالا مختلفة فهى [a a t] إذا سبقت بصوت مفخم مثل قصات وبطات وعظات ، وهى [æ æ t] اذا سبقت بصوت مرقق نحو خمسات وثابتات وباردات ، وهى[ə ə t] . اذا سبقت بصوت بين التفخيم والترقيق نحو بلاغات وصرخات ورقيقات . . .

ومؤدى ذلك أن الألف والتاء مورفيم يدل على معنى معين وهو جمع المؤنث ، وأنها تأتى في النطق في ثلاثة أشكال (الومورفات) مشروطة بموقع معين (أى بعد صوت مفخم أو مرقق أو بين بين) ولا ينبنى على التغير الصوتى الناشىء عن وقوعها هذا الموقع أى تغير في المعنى .

ثالثـا : الجملـــــــة :

يبذل علماء اللغة المحدثون جهودا كبيرة في محاولة الوصول الى تعريف يوضح الخصائص العامة لمفهوم الجملة أى الخصائص العامة التى يمكن التعرف عليها من منطوق كل اللغات . وفي هذا المجال يذكر لغوى معاصر مائة وأربعين تعريفا مختلفا(١) وسوف نكتفى هنا بتعريف بلومفيلد الذى يكاد يتفق عليه الباحثون ، ولا يعنى هذا أنه تعريف جامع مانع يحسم كل خلاف ويستعصى على النقد ، ان هدفا كهذا يصعب الوصول اليه بل من العبث الادعاء بالوصول اليه . وما نهدف اليه هنا هو التعريف الذى يصلح للبحث ويحقق الهدف المحدد للدراسة .

---

(١) Fries, The structure of English, p. 17

يقول بلومفيلد : الجملة شكل لغوى مستقل ليس متضمنا في شكل لغوى أكبر وفقا لمقتضيات التركيب النحوى(١) .

ولتوضيح ذلك نقول : ان المنطوق : (قام محمد) جملة ، لأنه شكل أكبر ليس جزءا من شكل أكبر منه . أما قولنا : (الذى قابلته) في المنطوق (قام محمد الذى قابلته) فليس جملة ، لأنه جزء من تركيب أكبر هو : (قام محمد الذى قابلته) ، وحين يقع الشكل اللغوى جزءا من شكل أكبر يقال : انه في وضع متضمن والا فيقال أنه في وضع مطلق ، وهذا الشكل الأخير هو : الجملة.

ويشير بلومفيلد الى نقطتين مهمتين في هذا الصدد :

الأولى : أن الشكل اللغوى قد يكون مستقلا في موضع ومتضمنا في موضع آخر .

« قد يظهر شكل ما في منطوق ما على أنه جملة على حين يظهر هذا الشكل نفسه في منطوق آخر في موضع متضمن ، فنجد أن الشكل التعجبى (محمد !) جملة . ونجد أن (محمد) في الشكل التعجبى (محمد المسكين !) في وضع متضمن . ونحن نعد الشكل التعجبى (محمد المسكين !)جملة لكنه في المنطوق (هرب محمد المسكين) في وضع متضمن ، ونحن أيضا نعد الشكل السابق (هرب محمد المسكين) جملة . ولكنه في المنطوق . (عندما نبح الكلب هرب محمد المسكين) في وضع متضمن » .

الثانية : أن المنطوق الواحد قد يتألف من عدة جمل .

«قد يتألف منطوق ما من أكثر من جملة ، وهذا هو الحال عندما يحتوى المنطوق على أشكال لغوية ليس لها علاقة نحوية مرتبطة ـ بأى معنى من المعانى وفقا للنظام النحوى المعين بشكل أكبر »(٢) .

والمثال الآتى يوضح ما سبق .

---

(٢٤١) Bloomfield, Language, p. 179

لا تصرى على الكذب لا يهمك الا أمره وحده . ألم تطلعى على نشرته المسودة بمداد الحقد ؟

يتضمن المنطوق السابق وفقا لتعريف بلومفيلد ثلاث جمل ، لأنه لا يتضمن أى عنصر نحوى مما نسميه في العربية الروابط يربط بين جمله الثلاث ، على الرغم من وجود ارتباط معنوى بينها .

ومن الخصائص التى تنبه اليها اللغويون في تحديد الأشكال المستقلة أو الحرة أنها يمكن أن تأتى منفردة في أية منطوق لغوى ، وهذا يعنى أنها تقع بين سكتتين سكتة قبلها وأخرى بعدها .

ان أسهل وحدة يمكن تحديدها بدقة ـ في أى محادثة ـ هى كلام شخص ما حتى يتوقف ويبدأ شخص آخر ، أى أن وحدات الكلام سوف تكون بناء على هذا مجموعات تتحدد بتغير المتكلم ، والخطوة الأولى في الدراسة التى تهدف الى بيان الأشكال المستقلة وغير المستقلة تعتمد على وحدات المنطوق التى يمكن أن تأتى منفصلة عن طريق تغيير المتكلم(١) .

وقد أشار بلومفيلد في تعريفه الى ما يطلق عليه (التراكيب النحوية) التى يكون بمقتضاها شكل ما شكلا مستقلا أو غير مستقل . وهى قرائن يستدل بها على الأشكال المستقلة وغير المستقلة . ومن النماذج التى قدمها للأشكال غير المستقلة :

١ ـ الأشكال التى تعتمد على موقف معين أو كلام سابق . كأن تقول : (غدا) تكملة لكلام سابق .

٢ ـ الأشكال التى تتضمن وحدات لغوية تشير الى وحدات سابقة . كأن تقول : (وهو يركب سيارته) تكملة لكلام سابق .

٣ ـ الأشكال التى تتضمن أدوات أو عبارات تشير الى كلام سابق . كأن

---

(١) Fries, The structure of English, p. 23, 25

تقول : (ان جاءنى) تكملة لكلام سابق(١) .

ان فكرة استقلال الجملة أو عدم استقلالها من الأفكار المهمة البارزة في النحو العربى يقول : ابن جنى في تعريف الكلام أو الجملة : أما الكلام فكل لفظ مستقل بنفسه مفيد لمعناه ، وهو الذى يسميه النحاة جمل نحو : زيد أخوك وقام محمد وفي الدار أبوك وصه ومه ورويد وحاء في الأصوات فكل لفظ استقل بنفسه وجنيتمنه ثمرة معناه فهو كلام(٢) .

فالكلام أو الجملة في تعريفه يشترط فيهما أمران : الاستقلال والافادة . وأمثلته للجمل المستقلة لا تبعد كثيرا عما مثل به بلومفيلد آنفا .

وما ذكره النحاة عن الكلم في حال عدم الافادة يكاد يعبر عما يعبر به اللغويون المحدثون بالشكل غير المستقل ، يقول أبو يعقوب المغربى : جملة الحال اذا نظر اليها من حيث هى ، أى من حيث أنها جملة ، مستقلة بالفائدة ، لأنها انما وضعت في الأصل بناء على وضع الجمل ، أو استعملت لتفيد فائدة يحسن السكوت عليها فتكون مستقلة بالافادة ، فاذا لم تستقل بأن توقف افادتها على شيء آخر فلعروض ربطها بغيرها ، فالجملة الحالية من حيث هى حالية تفتقر الى كون آخر تكون هى قيدا له ، ولا تستقل بالافادة من تلك الحيثية ، لأنها سبقت حينئذ لتكون قيدا لغيرها ، فاذا قلت : جاء زيد وعمرو يتكلم فجملة قولك (وعمرو يتكلم) لها جهتان : جهة كونها حالا وجهة كونها من مبتدأ وخبر(٣) .

ونستخلص من النص السابق أن ما يطلق عليه في النحو العربى جملة الحال (وغيرها من الجمل التى لها محل من الاعراب) شكل غير مستقل ، لأنه يتوقف على شكل لغوى آخر يتعلق به عن طريق ما يسمى الربط فالشكل

---

(١) أنظر Bloomfield, Language, p. p. 176, 299

(٢) الخصائص ١/١٧ .

(٣) شروح التلخيص ٣/١٩٣ .

(وعمرو يتكلم) ليس جملة لأمرين : الأول أنه شكل متضمن في شكل أكبر منه هو قولنا : جاء زيد · والثانى أن هذا الشكل لا يجيء مستقلا بدليل الواو التى تربطه بما قبله من قولنا : جاء زيد .

وعندما نقابل ما ذكره بلومفيلد وشراحه عن الجملة بما ذكره نحاة العربية سوف نجد تشابها كبيرا بين الفريقين ، وليس معنى هذا أن بلومفيلد قد تأثر بالنحو العربى ، ولكن الأمر ينبغى أن يتجاوز تلك النظرة الضيقة الى نظرة أكثر عمقا وشمولا . ومؤدى هذه النظرة أن مفهوم الجملة مفهوم عالمى عام لا يختص بلغة معينة وهذا مبرر كاف لكثير من الدارسين في القول بالنحو العالمى الذى ينتظم كل لغات البشر ، وفي ذلك يقول أحدهم : « ان اللغات الانسانية كلها تتضمن منطوقات مستقلة وأخرى غير مستقلة ، ولكنها تختلف فيما بينها في الخواص الشكلية التى تميز هذه المنطوقات(١) .

ثانيا : التحليل اللغوى :

لقد قدمنا في الصفحات السابقة فكرة موجزة عن الوحدات اللغوية ، وقبل أن نتحدث عن المنهج الذى اقترحه علماء اللغة الشكليون لتحليل هذه الوحدات نقرر بعض النتائج التى لها أهمية في القاء الضوء على هذا المنهج .

اللغـة أصـوات : بمعنى أنها تتألف من عـدد من الأصـوات تنتظم في مجموعات أو أشكال محددة .

اللغة معنى : أى أن أصوات اللغة لها علاقة تقريبا بكل ما هو خارج اللغة من حقائق الكون والانسان .

اللغة اعتباطية : أى أن العلاقة بين الأصوات والمعانى ليست دائما الا علاقة غير مباشرة .

اللغة عرفية : أى أن أفراد المجتمع اللغوى المعين يربطون ـ بطريق العرف العام ـ بين شكل لغوى ما وشىء خارج اللغة .

---

(١) Fries, The structure of English, p. 14

والمنهج المقترح في تحليل وحدات اللغة يعتمد على أن أى وحدة لغوية يمكن تحديدها عن طريق صفاتها التركيبية والتوزيعية والوظيفية .

١ - تركيب الوحدات اللغوية :

لكى نعرف شيئًا عن طريق تركيبه فمعنى ذلك أننا لابد أن نعطى قائمة تامة جامعة للأجزاء المكونة له ، وهى عملية تميز هذا الشيء عن أشياء أخرى ذات أجزاء أكثر أو أقل . وعلى سبيل المثال يمكننا أن نعرف الأصوات المفردة المستخدمة في لغة ما عن طريق تركيبها بوصف وتصنيف الحركات النطقية المطلوبة لاصدارها(١) .

لنفرض أننا نريد أن نعرف الوحدة الصوتية (ب) علينا أولا أن نصف مكوناتها ، فنصف ما تقوم به أعضاء النطق من حركات لكى تقوم بانتاجها (لاحظ أننا قد عزلنا هذه الوحدة عن غيرها من الوحدات التى قد تسبقها أو التى تتلوها في الكلام الفعلى وقد فعلنا ذلك حتى يتيسر لنا دراستها) فنقول مثلا : عند النطق بالباء يمر الهواء بالحنجرة فيتذبذب الوتران الصوتيان ، ثم يتجه الى الحلق ثم الفم ثم ينحبس عند الشفتين المغلقتين اغلاقا تاما ، ثم تنفتح الشفتان فجأة ويخرج منها هذا الصوت .

أما المورفيمات فيمكن تعريفها تبعا للفونيمات التى تكونها فالمورفيم (كتاب) مثلا يتألف من الفونيمات الآتية k + i + t + aa + b

أما الجمل فيمكن تعريفها عن طريق المورفيمات التى تكونها ، فالجملة : الكتاب مفتوح تتألف على النحو الآتى :

---

(١) Dinneen, An Introduction to general Linguistics, p. 11

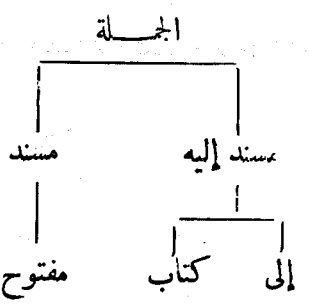

٢ ـ توزيع الوحدات اللغوية :

رأينا قبلا أن الأصوات المفردة (الفونيمات) في لغة ما تأتى في عدد من التجمعات الصوتية نتيجة لطبيعة اللغة المنطوقة ، وهذا هو ما يقال أيضا عن المورفيمات أو الكلمات .

ومن الممكن بناء على هذا أن نعرف الوحدات اللغوية عن طريق توزيعها وبيان علاقة كل منها بالأخرى . ولكى نقوم بذلك بدقة كبيرة فعلينا أن نعين بيئة محددة يمكن أن تقع فيها هذه الوحدات . ان البيئة اللغوية هى نقطة مختارة من السياق الذى تتولى فيه وحدات اللغة(١) .

ويمكننا على سبيل المثال أن نحدد في مجال توزيع الأصوات كل الأصوات التى تقع في أول المقطع أو في وسطه أو في آخره وما يمكن أن يحدث لها من تغيير . فالحركة الطويلة في العربية (الف المد) قد تأتى مسبوقة بالأصوات الساكنة (ا ب ت ث ... الخ) فتكون قمة المقطع . وتختلف طبيعتها وفقا لهذه الأصوات وفقا للنظام التوزيعى الآتى :

١ ـ ألف المد مفخمة حين تسبق بصوت مفخم مثل صار ضار طار .. الخ .

٢ ـ ألف المد مرققة حين تسبق بصوت مرقق مثل سار دار تاب .. الخ

---

(١) Dinneen, An Introduction to general Linguist, p. p. 11, 12

٣ ـ ألف المد بين الترقيق والتفخيم حين تسبق بالأصوات الأخرى غير المفخمة وغير المرققة مثل مال وبال ٠٠ الخ .

ويمكننا كذلك أن نحدد ـ في مجال توزيع أجزاء المورفيم أو الكلمة من الفونيمات ـ الصيغ التى يمكن أن تجىء عليها الجذور ، والقسم الذى تنتمى اليه الصيغة ، وما يمكن أن تتعرض له الجذور من تغيرات عند صوغها ، كما يمكن أيضا التعرف على ما يمكن أن يتصل بالكلمة من سوابق أو لواحق أو أحشاء .

ويمكننا التعرف ـ في مجال توزيع الكلمات في الجملة ـ على الكلمات أو العبارات التى يمكن أن تحل محل كلمات أو عبارات أخرى ، وعلى سبيل المثال يمكن أن تحل أشكال معينة (كلمات أو عبارات) في موقع الكلمة (الكتاب) في الجملة (الكتاب مفتوح) فنقول :

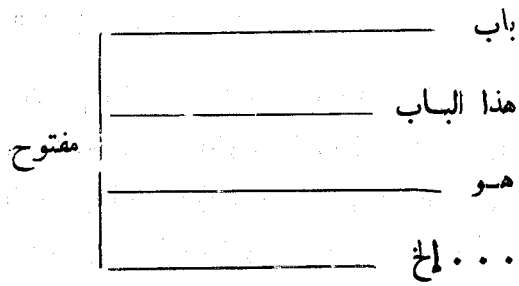

وتعرف هذه الأشكال بأشكال المسند اليه .

ويمكن أيضا التعرف على الأشكال التى يمكن أن تحل في موقع الكلمة (مفتوح) في الجملة السابقة فنقول :

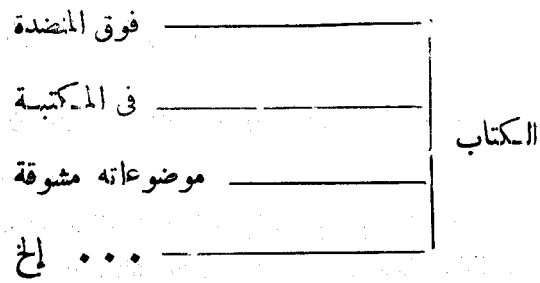

وتعرف هذه الأشكال بأشكال المسند .

وشغل المواقع على النحو الذى شرحناه يعرف بالعلاقة الرأسية ، لأن اختيار وحدة من الوحدات السابقة لتشغل موقعا محددا يقوم على أساس علاقة هذه الوحدة بوحدات أخرى من خارج السياق تصلح أن تشغل الموقع نفسه ، وهو ما يشار اليه بالمصطلح (الاستبدال Substitution) .

وقد يتم اختيار وحدة ما لتشغل موقعا معينا حين ننظر الى علاقة هذه الوحدة بما يجاورها في سياقها ويعرف هذا بالعلاقة الأفقية ، ويتفرع عن العلاقة الأفقية العلاقات الآتية :

التضام وهو أن تتطلب كلمة من قسم ما (من أقسام الكلام) وهى في سياق بعينه كلمة أو كلمات بعينها ليتألف من مجموعها جملة أو جزء خاص من جملة(١) فالكلمة (محمد) مثلا وهى من قسم الأسماء تتطلب كلمة مثل (جاء) وهى من قسم الأفعال ليتألف منهما الجملة (جاء محمد) .

والرتبة وهى النظام الذى تسلكه الوحدات في سياق أفقى محدد ، كأن تتقدم وحدة على وحدة أخرى أو تتأخر عنها بشكل ثابت أو غير ثابت ، وعلى سبيل المثال تأتى الصفة في العربية في مكان ثابت في العبارة فهى بعد الموصوف فيقال محمد الكريم فحسب ، ولكن المفعول به قد يتقدم على الفعل أو الفاعل . فيقال ضرب محمد عليا وعليا ضربه محمد وضرب عليا محمد .

والمطابقة : وهى تتم بين بعض الأشكال اللغوية في سياقات معينة ، فالصفة مثلا تتطابق الموصوف في التعريف والتنكير والتذكير والتأنيث والافراد والجمع .. الخ .

٣ ـ وظيفة الوحدات اللغوية :

من الممكن أن نعرف الوحدات التى تتكون منها لغة ما عن طريق وظائفها

---

(١) أنظر في موضوع العلاقات النحوية رأسية أو أفقية .
Robins, General Linguistics, an introductroy survey p. 224

أى عن طريق الغرض الذى تؤديه أو الهدف الذى تحققه(١) .

والوظيفة الأولى للغة هى أن تنقل المعانى وهذا يتم من خلال الأصوات ومن خلال الفروق الصوتية ، ولكل وحدة من وحدات اللغة وظيفة واحدة مميزة على الأقل · ان كل وحدة سوف تميز رسالة من أخرى حتى وان لم تحمل معنى في ذاتها ، وهذه هى الوظيفة العادية للأصوات المفردة أو الفونيمات أما الوحدات الأخرى فلها بالاضافة الى وظيفتها المميزة وظيفة اشارية ، أى أن هناك علاقة عرفية بين الوحدة اللغوية وشىء ما في خارج اللغة ، ولتوضيح ذلك خذ مثلا المنطوق (تفاحة) هذه الكلمة يمكن أن يقال لها ان وظيفة اشارية ، لأننا نستخدمها للاشارة الى ثمرة معينة ، ويمكن أيضا أن يقال أن لها وظيفة مميزة ، لأنها تقرر أننا نقصد ما سميناه ولا نقصد شيئا آخر .

وتعريف الوحدة الصوتية من حيث الوظيفة يقوم على أساس أنها تقوم بدور التمييز والتفريق فالباء في (بلد) جعلت هذه الكلمة مختلفة عن كلمة ولد مثلا التى تتفق معها في وجود الفتحة واللام والفتحة والدال ·· ومعنى هذا أن وجود الباء هو الذى جعل هذه الكلمة (بلد) مختلفة عن تلك الكلمة (ولد) ومما يؤكد دور الوحدة الصوتية في التمييز بين معانى الكلمات أن حذف وحدة صوتية أو اضافوحدة الى الكلمة ينبنى عليه اما تغير معناها أو فقدانها له البتة .

فاذا حذفنا اللام من الكلمة (فيل) بقيت كلمة أخرى تختلف عنها في المعنى هى (في) ولو حذفنا الجيم من الكلمة (تاج) لبقيت كتلة صوتية لا معنى لها .

واذا أضفنا العين الى الكلمة (من) فسوف نحصل على كلمة جديدة هى (منع) ، واذا أضفنا الباء الى نهاية الكلمة (حجر) فسوف نحصل على كتلة صوتية لا معنى لها .

وماسبق يؤكد خطأ الذين ينسبون بعض المعانى لبعض الفونيمات أو

---

(١) أنظر Dinneen, An Introduction to general Linguistics, p. 12

الحروف ، ومن هؤلاء الشاعر رشيد الخورى الذى يقول : قد تنبهت بطول المراجعـــة الى أن حرف الفاء هــو نقيض حرف الغين بدلالته على الابانة والوضوح : فتح فضح فرج فلق فجر فسر ٠٠ الخ مما يعى احصاؤه ويندر استثناؤه(١) .

وقد أخطأ الشاعر حين نسب المعنى الذى يدعيه وهو الابانة والوضوح الى حرف بعينه في الكلمات التى مثل بها ، فالفاء وحدها لا تدل على الابانة والوضوح كما قال بل تدل عليه كلمة بعينها هى (فضح) مثلا ، والفاء في هذه الكلمة أو فيغيرها لا تقوم وحدها بأداء هذا المعنى بل تقوم به أفراد أو حروف الكلمة كلها على سواء .

والوحدة الصرفية أو المورفيم كالوحدة الصوتية تقوم بوظيفة التفريق والتمييز فقامت غير قام لوجود التاء ، ولكنها تتميز عنها بأن لهـا وظيفـة اشارية ، والوظيفة الاشارية للوحدة (بلد) مثلا تعنى أن هذه الكلمة تشير الى شىء ما خارج اللغة .

المعنى فى التحليل اللغوى

في اللغة سمتان يمكن تمييزهما أو التعرف عليهما بيسر أولاهما : أن اللغة مكونة من أصـوات مفردة أو من مجموعات صوتية يمكن أن توصف نماذجها بدقة . ثانيتهما : أن اللغة تستخدم لتوصيل رسائل من خارج اللغة .

ويمكننا أن نسمى السمة الأولى جانب التعبير أو اللفظ ، والسمة الثانية : جانب المضمون أو المعنى ، والرسم البيانى الآتى يقدم احدى الطرق التى تبين لنا العلاقة التى تربط الجانبين :

---

(١) العقاد (عباس) أشتات مجتمعات في اللغة والأدب ص ٤٣ ٠

التعبـــير ـــــــــــــــــــــــــــــ	المضمـون
المضمـون ـــــــــــــــــــــــــــــ	التعبـــير

وتبين الأسهم العلاقة المطردة بين الوحدات وتفترض :

١ ـ أنه يمكننا دراسة وحدات المضمون (أو المعنى) دون أى اشارة الى أى تعبير لغوى معين .

٢ ـ أنه يمكننا دراسة وحدات التعبير أو (اللفظ) دون اشـارة الى المضمون .

٣ ـ أنه يمكننا أن ندرس الأنظمة المتوازية للتعبير والمضمون عن طريق الوحدات المفردة وأبنيتها المحتملة .

واذا كان علينا أن ندرس العلاقات المطردة التى بين عناصر المعنى دون اشارة الى التعبير فلا يمكن أن يقال أننا ندرس لغة معينة لأننا في هذه الحالة سوف ندرس مفاهيم انسانية عامة . نقول هذا الى جانب ما قد يوجه الى هذه العلاقة من نقد .

واذا كان علينا أن ندرس أشكال التعبير دون ربطها بالمعانى فقد يقال حينئذ أننا ندرس (شفرة) ما دون محاولة لحلها ، وهنا أيضا لا ندرس لغة معينة .

ومن هنـا نصـل الى الفرض الثالث الذى نرى أنه أمثلها وأقربها الى تحقيق الهدف وهو أن نأخذ بعين الاعتبار النظام الدلالى الى جانب النظام الشكلى غير أن هذا لا يعنى الخلط بينهما في الدراسة ، فالدارس يبـدأ أولا بدراسة الأشكال ويقوم بتحليلها من وجهة النظر الشكلية ثم بعد ذلك يوجه اهتمامه الى جانب الدلالة(١) .

---

(١) أنظر Dinneen, An Introduction to general Linguistics, p. p. 12, 13

ومما تجدر الاشارة اليه هنا أن بعض المدارس اللغوية الحديثة تتجاهل المعنى في تحليلها للغة تجاهلا تاما ، وتوجه اهتمامها كله الى الأشكال اللغوية ومعرفة وظائفها أى أن ما يعنى هؤلاء في تحليل اللغة هو الجانب المادى أى اللغة باعتبارها سلسلة من الأصوات يستخدمها أصحابها بطريقة معينة ، وهم يؤيدون وجهة نظرهم هذه بأنهم يستطيعون معرفة نوع الكلمة ووظيفتها في منطوقات لا معنى لها . ولتوضيح مقصدهم سوف أطلب منك تحليل ما بين القوسين (لبم المقالسون منقلمين) .

وقبل أن نفعل سوف نتفق على أمرين :

أولهما : أن ما بين القوسين لا معنى له ، اذ ألفته الآن وأنا أكتب هذه الكلمات وتستطيع أنت أيضا أن تؤلف مثله .

ثانيهما : أن المراد بالتحليل هنا أمران : الأول أن نحدد نوع الكلمة أى القسم الذى تنتمى اليه من أقسام الكلام) الاسم ، الفعل ، الوصف ، الظرف الأداة) .

والثانى : أن نحدد الوظيفة التى تشغلها الكلمة المعينة بعد معرفة نوعها .

ولنبدأ الآن معا ، وسوف نكتفى بأقل قدر ممكن من المعلومات يعين على بيان المراد ، لأن التحليل الكامل قد يستغرق منا صفحات .

سوف نتفق على أن الكلمة الأولى من قسم الفعل ، وأن الكلمة الثانية من قسم الاسم، وأن الكلمة الثالثة من قسم الوصف .

فاذا ما جئنا الى بيان وظائف الكلمات السابقة فلن نختلف على أن الكلمة الأولى تشغل موقع المسند الفعلى ، وأن الكلمة الثانية تشغل موقع المسند اليه ، وأن الكلمة الثالثة تشغل موقع الحال .

والآن نسأل أنفسنا كيف عرفنا تحليل المنطوق السابق تحليلا صحيحا على الرغم من أننا لا نعرف معانى كلماته ان كان لها معنى ؟

والاجابة يسيرة ، لقد نجحنا لأن المنطوق السابق قد جاء على نسق التراكيب اللغوية ذات المعنى في اللغة العربية في بناء كلماتها وفي نظامها في الجملة وفي علاقاتها النحوية .

فالكلمة (لبم) فعل ماض لأنها على وزن (فعل) وهو من أوزان هذا الفعل .

والكلمة (منقلمين) وصف لأنها على وزن (منفعل) وهو من أوزان الوصف .

وهكذا الأمر حين نريد دراسة وظائف هذه الكلمات فالكلمة الأولى مسند فعلى والكلمة الثانية مسند اليه ، والعلاقة بينهما هى وقوع هذا الحدث من هذا المحدث أى الفاعلية ، والكلمة (منقلمين) حال لأنها تصف هيئة المسند اليه ، ولعلك لاحظت أن الكلمة الثانية لها علامة هى الواو والنون وهى علامة الرفع مع جمع المذكر السالم ، وأن الكلمة الثالثة لها علامة هى الياء والنون ، وهى علامة النصب مع جمع المذكر السالم .

ولعلك لاحظت أيضا أن المنطوق السابق قد تضمن عددا من هذه العلامات مثل (ال والواو والنون والياء والنون والميم) هذه العلامات أعانتنا كثيرا في التعرف على المنطوق السابق فدخول أل على الكلمة (مقالس) جعلها اسما قابلا لأن يقع مسـندا اليه ، ولحوق الواو والنون به جعلتـه جمعا مذكرا ، وجعلته في حالة الرفع ... الخ .

وهنا نصل الى النقد الذى يوجه الى أصحاب هذه المدرسة . لقد نجحنا في تحليل المنطوق السابق لأنه جاء على نفس النظام التركيبى (الصوتى والصرفي والنحوى) لمنطوق آخر في اللغة التى نعرفها ولنقل مثلا أنه يماثل قولنا (وقف المشاهدون مندهشين) .

ولو وضعنا المنطوق السابق أمام لغوى لا يعرف نظام اللغة العربية في بنائها الصوتى والصرفي لوجد صعوبة بالغة في الوصول الى التحليل الصحيح .

وقد أشار (ماريو باى) الى فشل اللغويين في معرفة اللغة الآتروسكانية لأنهم لا يعرفون معانى كلماتها ويعلق قائلا : لا جدوى اذن من كل ما يتشدق به بعض اللغويين عن قدرتهم على تحليل اللغات على أساس الأشكال والوظائف النحوية للوحدات اللغوية فقط دون الرجوع الى المعنى ، ولا نعجب اذا عرفنا أن اتباع المدرسة التى تنادى بفصل الشكل عن المعنى يلجأون عند دراستهم للغات الهنود الحمر الى واحد أو أكثر ممن يستخدمون هذه اللغة ليزودهم بمعانى الجمل التى يدرسونها والمفردات التى تحتويها الجمل(١) .

لقد تبين لنا أن المعنى عند بعض المدارس فرع من فروع علم اللغة ، بل هو وحده قسيم لفرع علم اللغة كلها ، وقد أشرنا من قبل الى أن علماء اللغة قد استخدموا المنهج العلمى بنجاح في دراسة الظواهر اللغوية ، وأصبح من الممكن أن يقال علم الأصوات وعلم الصرف وعلم النحو ، ولكن موضوع (المعنى) ما زال حتى اليوم مختلفا في اعتباره علما يمكن أن يخضع لمقتضيات البحث العلمى . ولهذا آثر أصحاب المنهج الوصفى البنيوى تجنب الخوض في هذا الموضوع باعتباره موضوعا لا يمكن أن يخضع للملاحظة والتجربة .

يرى (جليسون) مثلا : أن الدراسات التى تناولت جانب (المعنى) كانت أقل تطورا من الدراسات التى تناولت جانب (الشكل) وينتهى الى أنه ليس من المقبول حتى الآن أن نعتبر هذا الجانب علما ، ويقول : ان من أكبر عيوب العمل الوصفى في ناحية الشكل في لغة ما الافتقار الى فهم العلاقة بين الشكل والمعنى وعدم القدرة على تحليل المعنى في دراسة ذات صلة بالشكل ، ويرى أن مادة (المعنى) هى بالطبع كل تجارب الانسان ، وليس هناك علم واحد يمكنه أن يدرس كل هذه التجارب(٢) .

ويرى الدكتور السعيد بدوى أن اعتبار (المعنى) علما واستخدام المناهج العلمية في دراسته يتوقف على المراد من (المعنى) ويلخص موقفه من هذه القضية قائلا :

---

(١) لغات البشر ص ٤٦ .

(٢) أنظر Gleason, An introduction to Descriptive Lingistics, p. 1.15

ان المعنى اذا قصد به ما تثيره الكلمات في النفس والشعور فهو (المعنى النفسى) واذا قصد به علاقة الكلمات بما تشير اليه من محسوسات العالم المحيط بنا فهو (المعنى الاشارى) وهذان النوعان خارجان عن ميدان الدراسة اللغوية العلمية ، لأن الأول لا يخضع للملاحظة الموضوعية ولأن الثانى ليس لغة ولا صوتا لغويا بل أشياء ملموسة .

أما اذا قصد به التحديد الذى تضفيه الكلمات المصاحبة في سياق ما على كلمة معينة من جهة ومجموع ما تضفيه كل السياقات التى تظهر فيها تلك الكلمة عليها من جهة أخرى فهو (المعنى التوزيعى) وهذا النوع من صميم الدراسات اللغوية نظرا الى أن معنى الكلمات لا يطلب خارج ميدان اللغة بل في جمل اللغـة نفسها ، فالمعنى التوزيعى لكلمة (الساعة) يمكن التعرف عليه من السياقات الآتيـة .

« اقتربت الساعة وانشق القمر »

دقت ساعة الجامعة معلنة الثالثة صباحا

دقت ساعة العمل

حانت ساعتك

كم الساعة معك

الحيـــاة ســاعة

فمعنى الكلمة في كل مثال يتوقف على السياق الذى تظهر فيه ، ولما كان السياق يتكون من كلمات معينة ونظام لهذه الكلمات كان المعقول أن نقول : ان معنى كلمة (الساعة) يكمن في الكلمات المصاحبة لها في السياق . وينتهى الى أن معنى هذه الكلمات هو في الواقع مجموع معانيها في كل هذه السياقات وغيرها من السياقات الأخرى التى قد تظهر فيها في اللغة أى أن معنى الكلمة موزع على هذه السياقات بالتساوى(١) .

(١) أنظر : بدوى (د. السعيد) محاضرات في علم اللغة ص ٢٦ (مخطوط) .

وعلى هذا فالباحث اللغوى الذى يختار (المعنى) مجالا نعمله ، عليه أن يحدد التعريف الذى يتبناه في دراسته ، وينبنى على ذلك اختيار المنهج المناسب لما قصد اليه .

وقد أشرنا الى أن المدرسة الوصفية البنيوية قد وقفت دراستها على الشكل الخارجى للغة ، وأهملت جانب المعنى ، وقد كان ذلك انطلاقا من ايمانهم بالمنهج العلمى وادراكهم أن هذا الجانب لا يخضع لمقتضيات هذا المنهج . ولكن هذا المنهج قدضحى ـ حين أخلص للمنهج العلمى ـ بأهم جوانب اللغة وهو المعنى ، كما أن اللغة لها طبيعة تختلف اختلافا جذريا عن طبيعة المواد الكيماوية والظواهر الطبيعية ... الخ ولهذا ثارت مدرسة لغوية معاصرة على هذا القصور في البحث اللغوى ، ووضعت المعنى في اعتبارها . والمشكلة في هذا أن هذه المدرسة اللغوية تعتمد على الحدس الفردى أو الحس الخاص للفرد كجزء من المادة التى يعمل بها اللغوى ، وهذا أمر غير مقبول من علماء الطبيعة وزملائهم ، ولكن وجهة نظر اللغويين جميعا هى أن اللغة ظاهرة ذات طبيعة خاصة فذة تختلف عن طبيعة أية ظاهرة أخرى من ظواهر هذا العالم . ولهذا فان المنهج العلمى الذى يجب أن يطبق على دراساتها يجب أن يعدل بالشكل الذى يتلاءم مع هذه الطبيعة الخاصة .

الباب الخامس
موجز بتاريخ البحث اللغوي

من أين نبدأ تاريخ علم اللغة ؟ ولماذا ندرسه ؟

يكاد يجمع المؤرخون على أن علم اللغة العام حديث النشأة جدا ، وأن العالم السويسرى (دى سوسير ١٨٥٧ ـ ١٩١٣)هو الذى أرسى دعائمه حين ألقى محاضراته التى جمعت بعد وفاته وظهرت بعنوان (محاضرات في علم اللغة العام) بيد أن هذا لا يعنى أن البحث في اللغة ابتدأ فحسب منذ ذلك التاريخ ، أو أن الناس قديما لم ينظروا في اللغة ولم يدرسوها .

ان تاريخ البحث في اللغة قديم جدا يعود به بعض المؤرخين الى اكتشاف أول نظام كتابى في الحضارة المصرية والسومرية في العالم القديم ، كما فعل (مونين) في كتابه (تاريخ علم اللغة) ، ولكن نظرا لقلة الوثائق التى بين أيدى الباحثين عن هذه الحقبة فضل كثير من المؤرخين أن يبدأوا هذا التاريخ بالهنود كما فعل (بلومفيلد) و (جسبرسن) و (روبنز) حيث نجد عند الهنود أول تفكير واضح يتصل باللغة ، وأول وصف لها باعتبارها لغة .

ولكن لماذا نكتب تاريخ علم اللغة ؟ أو بعبارة أخرى ما الذى يستفيده الباحث اللغوى المعاصر من هذا التاريخ ؟

ولا شك أن تاريخ العلوم قد يجد فيه الكثيرون ما يشبع نهمهم الى المعرفة الخالصة ، وهذا عمل نبيل حقا ، ولكن لا يقل عنه نبالة أن يكون في درس هذا التاريخ فائدة للباحثين الذين تفرغوا لهذا اللون من البحث .

قد يجد الباحث المعاصر في دراسة تاريخ علم اللغة ما يعينه على فهم الاتجاهات اللغوية المعاصرة التى ربما كانت امتدادا أو احياء أو تعديلا لاتجاهات أو أفكار سابقة ، ولا شك أن الباحث اللغوى المعاصر الذى يتطلع الى التعمق في نظرية (النحو التوليدى) مثلا قد يجد فائدة كبيرة في الرجوع

الى القرن الثامن عشر وبخاصة آثار (همبولدت) أو في الرجوع الى النحو العربى وبخاصة مفهوم الحذف والتقدير .

ان تاريخ علم اللغة سوف يهدينا بكل تأكيد الى الأصول العامة للفكر اللغوى ، وبالعوامل التى أثرت في تكوينها ، وعلى سبيل المثال لا الحصر كان علم اللغة في القرن الثامن عشر متأثرا بنظرية لاهوتية مؤداها أن اللغة العبرية هى أم اللغات جميعها ، ولهذا توجهت البحوث في هذه الحقبة الى البحث في موضوع أصل اللغة الانسانية ، وقد كان اكتشاف السنسكريتية في القرن التاسع عشر والتحقق من صلتها باللغات الأوربية الحديثة هو الذى وجه البحوث اللغوية في هذا القرن الى الجانب التاريخى والمقارن أى البحث في تطور اللغات وفي العلاقات اللغوية بينها .

ان تاريخ علم اللغـــة يكشف عن العلاقة الوثيقـة التى ربطته بالعلوم وبالاتجاهات الفكرية السائدة ، لقد نشأ علم اللغة عند الهنود للمحافظة على كتابهم المقدس (الفيدا) ونشأ عند الاغريق متأثرا بفلسفتهم ونشأ عند العرب من أجل المحافظة علىالقرآن الكريم ، وبانبثاق عصر النهضة أسدل الستار على منطق أرسطو وفلسفة الاغريق ، وظهرت العلوم التجريبية ، وتسابق علماء اللغة للاستفادة من هذه العلوم ، لقد نبعت أفكار (شلايشر) في أن اللغة جهاز عضوى من نظرية (دارون) ، وكان النحويون الشبان حريصين أشد الحرص على أن يربطوا علم اللغة بعلم الطبيعة ويجعلوا للتطور اللغوى قوانين ثابتة ثبات القوانين الطبيعية ، وقد انتفع (دى سوسير) بعلم الاجتماع واصطنع منهجه في دراسة الظواهر الاجتماعية لدراسة اللغة ، لأنها عنده ظاهرة اجتماعية بالمعنى الذى قرره (دور كايم) في تعريف الظاهرة الاجتماعية، ويقرر زعيم المدرسة التوليدية (تشومسكى) أن علم اللغة ما هو الا فرع من فروع علم النفس الادراكى .

ومن هنا تتحقق فائدة جليلة للباحثين في علم اللغة أو في العلوم الأخرى للتعرف على العلاقات الوثيقة بين العلوم .

ان العودة الى الماضى ليست عبثا كما قد يتصور بعض الناس ، وليست

لارضاء الفضول العلمى ، أو لامتاع ذوى المتع العالية ، ان الباحث المعاصر حين يتتبع حركة التاريخ وهى تمضى في سيرها تقفه على المشكلات التى برزت والحلول التى قدمت والنظريات التى اعتنقت والمناهج التى استخدمت والمراجع التى رجع اليها ٠٠ الخ ، وفي هذا يقول (مونين) :

« يقدم لنا هذا التاريخ ثبتا ـ مهما كان موجزا ـ للمراجع الأساسية ، وقائمة تضم مشاكل البحث والأسئلة المطروحة على الباحث . كما يتوق الى الاسهام في تكوين اللغوى الشاب تكوينا أكمل ، لأنه يساعده على القاء نظرة عامة على مجموع الأبحاث المتصلة بالمبادىء والطرق ، ولعله يستمد من هذا التاريخ المادة التى تعينه على القيام بتأملات عديدة واسعة في اللغة بوصفها بحثا موضوعيا ، كما يستمد منه ادراكا أفضل لقيمة المشاكل اذا هو اطلع على ماضيها فيتوصل الى معرفة القيمة النسبية للمسائل والى قضاء فترة استشفاء من التسمم الناتج عن التخصص العلمى الدقيق ـ ولن يكون وحيدا بهذا الصدد ـ كما يكتسب احساسا كاملا بعلم اللغة الذى هو عام حقا ، وربما كانت بغية اللغوى الشاب ـ حين أقبل على تاريخ علم اللغة أن يطلع اطلاعا واعيا على هذا الماضى المديد من الأخطاء والعقبات الكأداء ، وأسباب الفشل التى عاناها الأسلاف ، وهذا لا يقل فائدة عن معرفة نجاح وتقدم المؤلفين بالنسبة لنفسية الباحث وخلقه بوصفه عالما مقدرا لواجباته »(١) .

---

(١) تاريخ علم اللغة ص١١ ، ١٢ .

المبحث الأول

تاريخ علم اللغة فى العصور القديمة

أولا : الهنـــود

كان الهنود أول من تناول اللغة بالتأمل الواعى في طبيعتها وبالدرس المنهجى لخصائصها . فظهر عندهم أول وصف دقيق واف مبنى على الملاحظة الدقيقة لا على النظريات .

وكان البحث اللغوى عند الهنود وليد شعور دينى راسخ يدفعهم الى المحافظة على كتابهم المقدس (الفيدا) والى تلاوته تلاوة صحيحة ، ومن ثم نظروا الى لغة هذا الكتاب وهى (السنسكريتية) نظرة التقديس ووسموها بالكمال وكانت دراسة هذه اللغة والعناية بها لونا من ألوان العبادة(١) .

(والفيدا) هى أقدم النصوص المعروفة عند البراهمة ويرجع تاريخها الى حوالى ١٢٠٠ ق م ، وبمرور الزمن أصبحت (السنسكريتية) لغة (الفيدا) لغة قديمة ، وانصرف الهنود عن استعمالها في حياتهم اليومية ، وحلت محلها لغة تدعى (براكريت) ومع ذلك ظلت السنسكريتية لغة رسمية ادبية تستخدم في التراتيل الدينية وفي المواضيع العلمية والفنية ، وهى تشبه في ذلك اللغة اللاتينية القديمة في أوربا واللغة العربية الفصحى اليوم(٢) .

وكانت القواعـد التى وضعها الهنود لهذه اللغـة غير مدونة يتوارثها الباحثون جيلا بعد جيل الى أن ألف (بانينى) امام النحاة الهنود فيها كتابا .

---

(١)أنظر : مونين : تاريخ علم اللغة ص ٦٤ .

(٢)أنظر : مونين : تاريخ علم اللغة ص ٦٤ .

يقول عنه أحد المؤرخين : لا نجد له مثيلا في ذلك التاريخ سواء في مصر أم في صومر أم عند اليونان(١) .

عاش (بانيني) في شمال الهند حوالى القرن الخامس أو الرابع ق م وسمى كتابه (المثمن) أى ذو الثمانية أجزاء ، وتضم هذه الأجزاء أربعة آلاف قاعدة منظومة بلغت في دقتها مبلغ المعادلات الرياضية ، وهى ـ مع دقتها وايجازها ـ تستوعب قواعد السنسكريتية استيعابا عظيما .

يقول بلومفيلد : ان هذه القواعد التى يعود تاريخها الى حوالى ٣٥٠ ـ ٢٥٠ ق م لتعتبر من أهم مظاهر الذكاء الانسانى ، انها تصف ـبكل دقة وتفصيل ـ كل ما يتصل باللغة السنسكريتية من الاشتقاق والتصريف والتركيب، وكل الخصائص النحوية للمتحدث باللغة (٢) .

عالج بانينى في كتابه قواعد تنتظم أصوات السنسكريتية وصرفها ونحوها ، والكتاب من ثمانية أقسام كل قسم من أربعة فصول ، في القسم الأول تعريفات عامة وقواعد للشرح كما يعالج مشكلات صوتية متنوعة ، أما القسم الثانى فيعالج موضوع الابدال ، وهدف التصريف وقواعد الجنس gender والعدد ، ويتناول القسم الثالث موضوع اللواحق الأساسية ، أما القسمان الرابع والخامس فيتعرضان للواحق التى يمكن اضافتها للأصل غير الفعلى مكونة جذرا غير أساسى ولواحق تصريفية ، ويتناول القسمان السادس والسابع بحوثا صرفية صوتية morphophonemice ، أما القسم الثامن فيتناول موضوعات متعددة (٣) .

الأصوات عند بانيني :

كانت عناية الهنود بالأصوات عناية عظيمة لحرصهم الشديد على أن تتلى

---

(١) مونين : تاريخ علم اللغة ص ٦٤ .

(٢) Blöomfield, Language p. 11

(٣) مختار (د٠ أحمد) البحث اللغوى عند العرب ط٢ ص ٢٣٦ .

نصوص (الفيدا) كما كانت قديما ، وتتمثل هذه العناية واضحة في كتاب بانينى ، اذ بدأه بالحديث عن أصوات السنسكريتية من الحركات والسواكن ، ومن منهجه في تصنيفها وطريقته في ترتيبها ، وأسلوبه في وصفها نتبين ما يأتى :

ـ قسم الأصوات الى أربعة أقسام هى : الحركات ومنها الفتحة والضمة والكسرة ، والسواكن كالباء والتاء والدال ٠٠ الخ وسواكن الصفير كالسين والشين ، وأنصاف الحركات وهى عنده الياء والراء واللام .

ـ يرتب الأصوات ترتيبا مخرجيا بدأه بأعمقها مخرجا وتدرج في الصعود حتى وصل بها الى الشفتين .

ـ يحدد مجارى الأصوات وعلى أساسها يعرض الأصوات الانحباسية والاحتكاكية والمنطلقة(مثل الحركات) ٠٠ الخ .

ـ يبين مخارج الأصوات ويقسم الأصوات تبعا لذلك الى شفوية وأسنانية ٠٠ الخ .

ـ ثمة معلومات أخرى تتصل بالنبر والغنة الأنفية ، والحركات طويلها وقصيرها بسيطها ومركبها (١) .

الصرف والنحو :

قسم بانينى الكلام الى قسمين وضع في القسم الأول الأفعال ووضع في القسم الثانى ما ليس من الأفعال كالأسماء والحروف وذلك على أساس ما يلحق الكلمة من زوائد في نهايتها (٢) .

ومن الطريف أنه تنبه الى ما يلحق أصوات الكلمة من تغيير نتيجة اتصالها

---

(١) غالى (د٠ محمدمحمود) أئمةالنحاة في التاريخ ص ٩٤ ، ٩٥ ٠
(٢) أئمة النحاة في التاريخ ص ٩٧ ٠

بهذه الزوائد ، ومثل ذلك في العربية ما يعرف بقلب تاء الافتعال طاء حين يكون فاء الكلمة صوتا مفخما نحو اصطبر .

ومن اعظم ما ابدعه (بانينى) من مفاهيم مفهوم الصفراللغوى . ومثاله في العربية أن الفعل الماضى يكون مؤنثا حين تلحقه التاء ، ويكون مذكرا حين يخلو منها ، وبهـذا يتعرف الجنس في الفعـل بأحد أمرين تاء التـأنيث أو خلوه منها(١) .

ومن المفاهيم اللغوية التى أظهرها بانينى فكرة الجذر وما يلحق به من حركات وأدوات ، وما يعتريه من صور مختلفة من التصرف . على نحو ما هو معروف في العربية فكاتب ومكتوب ومكتب وكاتب .. الخ يجمعها جذر واحد من السواكن ك ، ت ، ب وباضافة الحركات أو حروف الزيادة الى هذا الجذر تتنوع الصيغ وتختلف المعانى .

وفي هذا المفهوم يقول جورج مونين : بهذا أمكن للعلماء أن يبحثوا بحثا لغويا صرفا في تكوين الكلمات ، وحل هذا محل الثرثرة المسماة بالدراسات الاشتقاقية والتى شغلت أوربا أكثر من ألفى عام ، ان اكتشاف تلك المفاهيم ـ بعد دراسة السنسكريتية ـ كان نقطة الانطلاق لدراسة علمية في الاشتقاق ضمن نطاق القواعد المقارنة(٢) .

ويوجز أحد علماء الألسنة الهندية طريقة (بانينى) النحوية بأنها طريقة رياضية كلية تأخذ من أصحاب النحو الحديث اهتمامهم بسياق الكلام وترتيب الكلمات في الجملة ، كما تأخذ عن غيرهم اهتمامهم بتتبع الكلمة في صيغها المختلفة من اسم أو ضمير أو أداة شارحا ما يعتريها من تغير صرفي وصوتى ـ ثم يحدد مكانها من المناهج المعاصرة قائلا : قد يسميها بعض المحدثين الطريقة الظاهرية ، لأنها تدرس اللسان كظاهرة انسانية متكاملة Phenomenon وقد يسمى بعضهم هذا المذهب الطريقة التحويلية التى تتبعها المدرسة التحويلية وعلى رأسها تشومسكى(٣) .

---

(١) أنظر مونين : مونين تاريخ علم اللغة ص ٦٩ .
(٢) تاريخ علم اللغة ص ٦٨ .
(٣) غالى (د. محمد محمود) أئمة النحاة في التاريخ ص ١٠١ .

تأثير النحو الهندى :

وقد وصل الى أوربا بعض القواعد السنسكريتية والهندوسية بواسطة المبشرين في القرنين السادس عشر والسابع عشر ، وفي القرن الثامن عشر نقل الانجليز الموجودين في الهند تقارير ومعلومات أكثر دقة ، وحوالى القرن التاسع عشر أصبح الالمام باللغة السنسكريتية جزءا من ثقافة الطلاب الأوربيين (١) ٠

وقد ظهرت أول ترجمة كاملة لكتاب بانينى (١٨١٥ ـ ١٨٤٠م)قام بها (بوتلينج) .

وقد كان لهذا التراث اللغوى الهندى آثار بعيدة في التفكير اللغوى الأوربى وبخاصة في القرن التاسع عشر فبلومفيلد ـ مثلا ـ يرى أن النحو الهندى قد أطلع الأوربيين ولأول مرة على وصف كامل دقيق للغة يعتمد على الملاحظة لا على النظرية ، أضف الى ذلك أن اكتشاف السنسكريتية قد جعل من الممكن عقد دراسة مقارنة بين اللغات (٢) ٠

وقد أشار اللغوى (فولرز) الى بعض نقاط التماس بين (بانينى) والعلوم الصوتية اللغوية التى أنشأها الجيل الأول من النحويين العرب كالخليل مثلا ٠

وقد أشار الدكتور عبد الرحمن أيوب الى وجود تأثير هندى في المنهج والتبويب على كتاب سيبويه ، ويتمثل ذلك في العناية بدراسة الأصوات ومخارجها وعدم الاهتمام بالنظريات والتقسيمات العقلية (٣) ٠

وثمة باحثون آخرون ينكرون هذا التأثير أو يقللون من شأنه ، ويرون أن التفكير اللغوى عند العرب من نتاج العقلية العربية فحسب ٠

(٢،١) Bloomfield, Language p. 11

(٣) أيوب (د٠ عبد الرحمن) التفكير اللغوى عند العرب ص ١٣٤ ، ١٣٥ ٠

ثانيا : اليونان

لقد عرف عن اليونان عنايتهم الشديدة بدراسة اللغة ، وقد بحثوا بجد ومثابرة في أصولها وتاريخها ، وفصلوا القول في بنيتها ، واليهم يعود الفضل بكثير من معارفنا اللغوية . بيد أن هذه العناية قد صرفتهم عن دراسة اللغات الأجنبية ، وقد أطلقوا لفظ (برابرة) على الذين لا يتكلمون اليونانية ، وهذه الكلمة في الأصل تشير الى صراخ الطيور .

وفي ذلك يقول أحد الباحثين : ان الاغريق اعتنوا ببنية اللغة ونشأتها أكثر من عنايتهم بتطور اللغات وتنويعها(١) .

وفي احدى محاورات افلاطون (كراتيلاس) يظهر لنا نقاش لغوى له طابعه الفلسفى بين متحاورين ، يدور حوارهما في طبيعة العلاقة بين الأشياء والألفاظ التى تدل عليها أهى علاقة طبيعية ضرورية أم علاقة عرفية واتفاق بين الناس .

يرى أحد المتحاورين ويدعى (كراتيلاس) أن اسم الشيء ما هو الا نتيجة لطبيعة الشيء المسمى ، وينبغى أن يكون البناء الصوتى للاسم انعكاسا لبناء الشيء المسمى ، ومن ثم فالأسماء ليست رموزا للأشياء بل هى جزء لا يتجزأ من جوهر المسمى .

أما الثانى ويدعى (هرموجينس) فينكر الزعم السابق ويرى أن الألفاظ رموز نستخدمها في التعبير عن الأشياء ، والعلاقة بين الألفاظ والأشياء علاقة عرفية قائمة على اتفاق المتحدثين باللغة ، وينبنى على هذا أن يحدث اختلاف في معانى الألفاظ متى حدث اختلاف في هذا الاتفاق(٢) .

ومن المعروف أن أرسطو قال بالعلاقة العرفية بين الألفاظ والأشياء وهذا القول هو ما يرجحه اللغويون المعاصرون منذ (سوسير) الى اليوم .

وقد كان هذا الحوار بداية لجدل لا يهدأ استمر زهاء قرن بين مدرسة

---

(١) ماريو باى : لغات البشر ترجمة د. صلاح المغربى .

(١) Dinneen, An Introduction to general Linguistics, p. p. 74, 75

الشـــذوذيين ويتزعمها (كراتيس) ومدرســـة القيـاسيين ويتزعمهـا (ارستراخوس) .

يرى (كراتيس) أن اللغة فطرة انسانية لا تخضع للقواعد أو القوانين المطردة ، ويدلل على ذلك بما هو ملحوظ في اليونانية من خروج على القواعد المقررة ، أما (أرستراخوس) فيعتقد أن اللغة أمر طبيعى ، وهى لذلك منتظمة ومنطقية ، أى أنها نظام مترابط تحكمه قواعد وقوانين مطردة(١) .

ومن المعروف أيضا أن أرسطو كان يرى أن اللغة نظام وضعى وأنها بهذا تخضع لقوانين ثابتة ، وكانت هذه القوانين عندهم قريبة مما نسميه اليوم بالقوانين الصوتية(٢) ٠

ويعرف افلاطون الجملة Logos بأنها تعبير عن أفكارنا بواسطة الأسماء والأفعال ، والاسم والفعل ـ عنده ـ هما العنصران الأساسيان فيها ، ويعرف الاسم بأنه اسم فاعل الحدث ، ويعرف الفعل بأنه اسم الحدث .

ومن الواضح أنه كان في مقدوره أن يلاحظ الفروق الشكلية فيما بينها ، وأن يضعها في اعتباره عند التعريف ، ولهذا غاب عنه ذكر عناصر كلامية معروفة في اللغة اليونانية ليست من قبيل الأسماء أو الأفعال (٣) ٠

وقد كان لدى أرسطو نظرية عامة في اللغة ، لقد وضع مستويات مختلفة يمكن على أساسها أن تدرس اللغة ، وأن تتميز أشكال الكلمات والجمل ، وأن تتحدد معانى الكلمات في حال افرادها أو تركيبها ، وأن تذكر الفروق بين أنماط اللغة المنطوقة والمكتوبة ٠

ومن الجدير بالذكر هنا أن أرسطو ليس لغويا بالمعنى الدقيق ، فقد كان يمزج بين الاعتبارات اللغوية والمنطقية .

---

(١) ماريو باى : لغات البشر ترجمة د٠ صلاح المغربى ٠
(٢) أيوب (د. عبد الرحمن) اللغة والتطور ص ١١ .
(٣) Dinneen, An Introduction to general Linguistics, p. p. 78,79

ومع ذلك فاليه يرجع الفضل في ارساء أسس تحليل النحو مع نظرية في بنية العبارة المؤلفة من قطبين هما : المسند والمسند اليه(١) ٠

وقد عرف (أرسطو) الاسم بأنه لفظ مفرد يدل على معنى بالاصطلاح ، ولا يدل على زمن ولا يفيد أى جزء من أجزائه معنى على انفراد ٠

فالكلمة (أرنب) مثلا تدل على معنى عرفي متفق عليه بين المتحدثين بالعربية ، ولا يدل المقطع (أر) منفردا على معنى ٠

وعرف الفعل بأنه لفظ مفيد يدل على حدث ، وليس لأى جزء من أجزائه معنى قط وهو أبدا يدل على معنى يسند الى شيء ما .

فالكلمة (الضرب) مثلا اسم لانها لا تدل على زمن أما الكلمة (يضرب) ففعل اذ أنها تدل على أن حدث حاصل الآن على وجه التخصيص ٠

أما الجملة Logos فانها كلام مفيد قد يدل الجزء من أجزائها على معنى بانفراد .

ونتبين معنى الجملة اثباتا أو نفيا بالاسناد فحين نقول : الولد يصيح . نتبين أن المنطوق السابق يتألف من عنصرين هما : الاسم المسند اليه والفعل المسند ، وكل واحد منهما له معنى في ذاته ، ونتبين هذا المعنى بالاسناد أى حين نسند حدث الصياح الى الولد(٢) ٠

وقد راعى (أرسطو) في تعريفاته السابقة الجانب الصوتى في الجملة فتحدث عن الأجزاء التى تتألف منها الكلمة والجملة ، والجانب الدلالى فحدد مدلول الاسم والفعل والجملة .

وقد نظر الرواقيون وعلماء الاسكندرية في هذه الأبحاث جميعا ، وقد

---

(١)تاريخ علم اللغة صـ٩٠ ، ٩١ .

(٢) فخري (ماجد) أرسطو ص ١٤٤ ٠

وضع (ثراكس) أول كتاب في قواعد اللغة اليونانية ١٧٠ - ٩٠ق م . وقد درس في كتابه أصوات اليونانية ، وتحدث في أصول كلماتها وفي أقسام الكلام . وعند حديثه عن الأصوات اليونانية فرق بين الأصوات الانفجارية والاحتكاكية والأصوات المجهورة والمهموسة وعند حديثه عن أقسام الكلام جعلها ثمانية وهى : الاسم والفعل ، واسم الفاعل ، وأداة التعريف والضمير ، وحروف الجر ، والظرف ، وأدوات العطف(١) .

وقد قدر لهذا التقسيم أن ينتقل من اليونانية الى عدد من اللغات الأوربية ، ولم يحدث عليه الا تغييرات طفيفة .

ويرى (مونين) أن علماء الاسكندرية لم يفعلوا - على صعيد القواعد اللغوية - سوى التوسع في تلك الموضوعات التى أشار اليها افلاطون وأرسطو حول تصنيف الحروف وأقسام الكلام وتحليل حالات الاعراب وبنية العبارة . ومع ذلك ينسب اليهم ارساء فقه اللغة في العالم الغربى ، وقد أشرنا من قبل الى الصراع بين مدرسة القياسيين الذين يقولون باطراد القواعد اللغوية ومدرسة الشذوذيين الذين يقولون بأن اللغة لا تخضع لقواعد ثابتة . ويقول أيضا في هذه القضية : ان الفائدة الحقيقية لهذه المسألة أنها حفزت الفلاسفة الغربيين وبصورة مستمرة على النظر في شئون اللغة(٢) .

ثالثاً : الرومان

لم يكن للرومان فضل كبير في تاريخ علم اللغة اذا وضعنا في الاعتبار الجدة والابتكار ، وكل ما يذكر لهم من فضل أنهم نقلوا الينا بحوث اليونان اللغوية وقد ألف (فارون) (القرن الأول ق م) كتابا أسماه (اللغة اللاتينية) قسم فيه الكلام أربعة أقسام مخالفا بذلك التقسيمات المعروفة في عصره .

---

(١) غالى (د. محمد محمود) أئمة النحاة في التاريخ ص ٨٦ ، ٨٧ .

(٢) تاريخ علم اللغة ص ٩١ .

وألف (كونتيليان) (القرن الأول الميلادى) كتابا في (فن الخطابة) ضمنه موجزا في قواعد اللاتينية ، وألف بريشيان (القرن السادس قم) كتابه (قواعد اللغة) من ثمانية عشر جزءا ، وهو صاحب التعريف الذائع للجملة ، وهو الجملة : نظم من الكلام يدل على معنى كامل .

وقد كانت هذه الكتب مرجع قواعد اللغات الأوربية جميعا هذه القرون(١).

ومن الملاحظات العامة التى تنبه اليها المؤرخين الذين درسوا النتاج اللغوى لليونان والرومان :

١ ـ يقول ماريو باى : وقد قام كل من الرومان والاغريق بكتابة قواعد نحوية للغتين اليونانية واللاتينية ، وكانت كلها تتحدث عما ينبغى أن يكون بدلا من وصف ما هو كائن ، فحاولوا أن يخضعوا اللغة لقوانين وضعية (مع أن اللغة الدارجة في ذلك الوقت كانت تختلف اختلافا بينا عن اللغة الفصحى وعما تنادى به القوانين النحوية ، وهذا الاختلاف ثابت بالدليل الكتابى (٢) ٠

٢ ـ لم يهتم اليونان والرومان باللغات الأجنبية أدنى اهتمام ، وقد كان لدى الرومان فرصة لاجراء المقارنة بين اليونانية واللاتينية مثلا ، ولكنهم لم يفعلوا ، وملاحظاتهم القليلة بهذا الشأن لا غناء فيها ٠ بل ان موضوع التطور اللغوى لم يشغل بالهم اللهم الا ملاحظات يسيرة تتصل باللهجات المحلية التى تعيش الى جوار اليونانية أو اللاتينية (٣) ٠

---

(١) أنظر تاريخ علم اللغة ص ٨٨ ، ٨٩ ، وائمة النحاة في التاراريخ ص ٨٦ ، ٨٧ ٠

(٢) لغات البشر ص ٣ ٠

(٣) أنظر لغات البشر ص ٣ ، وتاريخ علم اللغة ص ٨٩ .

رابعا: العصر الوسيط من القرن الرابع الى القرن الرابع عشر

انتشرت المسيحية في أثناء هذه الفترة بين شعوب وثنية ، وقد قام المبشرون بها بترجمة النصوص الدينية كالتوراة والانجيل الى لغات هذه الشعوب ، ولم تكن هذه الشعوب تعرف الكتابة ، مما حدا بهؤلاء المبشرين أن يستحدثوا لها أبجديات كالأبجديات الكلتية والجرمانية ، وكان المتوقع أن يؤدى هذا النشاط الى تقدم حقيقى في مجال التحليل الصوتى ، ولكن شيئا من هذا لم يحدث ، وما حدث - بالاضافة الى ابتكار هذه الأبجديات - ظهور كتيبات تساعد الحجاج والمسافرين والجنود على التفاهم مع الأجانب(١) .

ولم تخرج كتب القواعد التى انتشرت آنذاك عما ذكره (دونات وبريشيان) وكانت كلها تدرس قواعد اللاتينية ، أما كتب القواعد التى تدرس اللغات الأوربيه الأخرى فقد تأخر ظهورها ، لقد كانت اللاتينية وحدها هى التى تستحق أن تكون لغة ، بل ان علماء هذا العصر وطلاب العلم كانت عنايتهم موجهة الى اللاتينية القديمة كما تظهر في الكتب ، ولم نلحظ الا اهتماما ضئيلا بصور الكلام المنطوق ، لقد كان هؤلاء يرون أن اللغات الأوربية لا ترقى الى مرتبة الفن والعلم ، يعنون بذلك العلم الثابت أى علم القواعد أما اللاتينية فقد ضبطت قواعدها وثبتت منذ أكثر من ألف عام ، وخلال العصر الوسيط كله كانت كلمة grammar تعنى اللغة اللاتينية القديمة(٢) .

وكانت اللاتينية في أثناء هذه الحقبة الطويلة من الزمن تتطور من شكلها القديم الى أشكالها التى نعرفها اليوم باللغات الرومانسية ، ومع ذلك لم يتنبه العلماء الى هذا التطور وظل العلماء ملتزمين بتقاليد الكتابة التى تمثل اللاتينية القديمة(٣) .

---

(١) أنظر (مونين) : تاريخ علم اللغة ص ١٠٤ .

(٢) (مونين) : تاريخ علم اللغة ص ١٠٩ .

(٣) أنظر Bloomfield, Language p. p. 6, 7

وقد عنى (دانتى) ـ وهى عناية غريبة في عصره ـ بدراسة اللهجات الايطاليـــة في كتابه (بلاغة العـوام) في هـذا الكتـاب عالج خصـائص اللهجات الايطالية الأربعة عشرة على نحو ما نعرفه عنها اليوم وميزها تمييزا مختصرا ، وقد قام كذلك بمحاولة جادة في مجال المقارنة بين اللغات ، وقد خرج منها بأن اللغة الايطالية وأخوتها من اللغات الرومانسية ترجع الى أصل لاتينى(١) ٠

وقد كان العلماء في هذه العصور يرون أن اللاتينية تمثل الشكل الطبيعى المنطقى لكلام البشر ، وقد تطورت هذه الفكرة فيما بعد فكتب الباحثون فيما يطلق عليه (النحو العام) الذى ينتظم الخصائص العامة في اللغات المختلفة ٠

وقد شرح (بيكون) هذا المفهوم بقوله : ان مبادىء النحو في جوهرها واحدة بالنسبة لجميع اللغات ، ولكنها قد تختلف في التفاصيل بين لغـــة وأخرى(٢) ٠

وقد ظهر هذا المفهوم عند علماء (بور رويال) في القرن الثامن عشر بل ظل سائدا كذلك في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين حيث عارضه اللغويين ، ثم ظهر مرة ثانية عند (ورف) ثم تبلور عند (تشومسكى) (٣) ٠

وقد كان شائعا في هذه العصور النظرية التى تستند الى تصور يهودى مسيحى ـ والتى تعتقد أن العبرية هى أم اللغات الانسانية جميعا ٠ وربما كانت هذه الفكرة من الأسباب التى صرفت الأذهان عن عقد المقارنات بين اللغات على أساس علمى واقعى ٠

---

(١) ماريو باى : لغات البشر ص٤ .
(٢) ماريو باى لغات البشر ص ٥ .
(٣) أنظر (مونين) تاريخ علم اللغة ص١١٦ .

خامساً : العرب

لا نرى أن الصفحات القليلة التى يقدر لها أن تستغرق الحديث في البحث اللغوى عند العرب تكفى لبيان أصوله وسماته المميزة ومكانه بين البحوث اللغوية للأمم الأخرى ، هذا شىء أبعد ما يكون عن الحق والعدل ، كما أنه أبعد ما يكون عن الواقع ، فالبحث اللغوى عند العرب يستغرق مجلدات لا صفحات ، وهو عمل ينبغى أن يتوفر له جمع من العلماء ، لا هم لهم غيره ولا مطمح لهم سواه ، لا يدخرون في سبيله وقتا أو مالا أو جهدا ، لهذا كان لهذه الصفحات هدف غير هذا الهدف ، هذه الصفحات أقرب ما تكون الى الصورة التى يلتقطها المصور لجبل شامخ تسمو ذروته الى السماء ، أو لسهل واسع مترامى الأرجاء تمتد فيه الأنهار وتفترشه الزروع والأشجار ، مثل هذه الصورة لا تكشف الا عن الملامح العامة أو الأصول ٠

هذه الصفحات اذا ليست الا صورة لهذا البحث ومستوياته وأهم مصادره واتجاهاته ، الغاية منها أن تضع البحث اللغوى عند العرب في لوحة التاريخ العام لعلم اللغة الممتد من الهنود الى العصر الحديث ٠

ومما هو جدير بالذكر هنا أن مؤرخى علم اللغة لم يطلعوا على التراث العربى اطلاعهم على التراث الهندى أو اليونانى مثلا ، ولهذا لم يوفوه حقه ، ولم يقدروه قدره ، واكتفوا ـ اذا ما اضطرهم الأمر الى ذلك ـ بسطور قلائل لا تغنى طالب التاريخ العلمى بله طالب التاريخ اللغوى ٠

البحث اللغوى عند العرب :

كانت نشأة العلوم العربية أثرا من آثار الاسلام ، فلم يعرف عن العرب قبل الاسلام جهد يذكر في دراسة لغتهم ، فظهر علم النحو ليضع القواعد التى تصون المتكلم عن الخطأ في الاعراب الذى كان قد بدأ ظهوره بانتشار الاسلام بين شعوب غير عربية ، كما ظهرت جهود علماء اللغة في تقييد ألفاظ العربية وضبط شكلها وتحديد معانيها ٠

غير أن ظهور اللحن في العربية وخوف أولى الأمر على القرآن منه لم يكن وحده الذى دعاهم الى وضع العلوم العربية بل دعتهم الى ذلك دواع كثيرة ، لقد توفرت لديهم الرغبة الشديدة في فهم القرآن الكريم والتعرف على أسراره ، ووجدت لدى المسلمين من غير العرب حاجة ملحة الى تعلم العربية والتعبد بكتابها الخالد ، كما أن العربية قد بدأت تحتك بلغات أخرى وتدخل في صراع معها تؤثر فيها وتتأثر بها ، وبدأ العرب حينئذ ينظرون الى لغتهم نظرة المتأمل الباحث ، ومن هنا يمكن أن يقال أيضا : ان نشأة العلوم العربية كانت أثرا من آثار نضج العقلية العربية واحتكاكها بالحضارات الأخرى واستفادتها منهـــا(١) ٠

وقد اعتمد علماء العربية حين وضعوا قواعدها وألفوا معجمها على القرآن الكريم والشعر العربى وكلام العرب الموثوق بعربيتهم ، وقد التزموا في ذلك مبادىء صـــارمة ، وبذلوا جهودا كبيرة في أخـذها من أفواه العرب الخلص ، واحتملوا في سبيل ذلك أقسى المتاعب ، فقد كانوا يسعون اليهم في مواطنهم ويقيمون في مظاعنهم ، وكثيرا ما كان الأعراب الفصحاء ينتقلون الى هؤلاء العلماء في البصرة والكوفة ليأخذوا عنهم ٠

لقد قلنا عند الحديث عن مستويات التحليل اللغوى ، ان بعض المدارس اللغوية الحديثة ترى أن دراســة اللغة تتم وفقا لخطوات متدرجة تسلم كل خطوة منها الى خطوة تالية ، وهكذا حتم يتم للباحث وصف اللغة المدروسة وصفا دقيقا ، وسوف نقدم هنا صورة موجزة لما خلفه لنا علماء العربية في مجال البحث اللغوى وفقا لمستويات البحث : الأصوات والنحو والمعجم ٠

أولا : الأصـــوات :

لم يدرس علماء العرب أصوات العربية دراسة مستقلة الا حديثا ، وقد تناولوها قديما مختلطة بغيرها من البحوث النحوية أو في مقدمات معاجمهم ٠

(١) أنظر ضيف (د٠ شوقى) : المدارس النحوية ص ١١، ١٢ وحسان (د٠ تمام) الأصول ص ٢٢ ـ ٢٩ ٠

وأول ما يلقانا من ذلك المقدمة التى وضعها الخليل بن أحمد (١٠٠ هـ ـ ١٧٥ هـ) لمعجمه (العين) الذى رتبه وفقا لمخارج الحروف ، فقد بين في مقدمته هذه أن في العربية تسعة وعشرين حرفا ، ثم مضى يحدد مخارج هذه الحروف حرفا حرفا ٠

وقد تكلم (سيبويه) صاحب الكتاب عن الأصوات عرضا ، وله فيها تقريرات جعلها في نهاية كتـابه عند حديثـه عن الادغام ، وقد رتب حروف العربية ترتيبا يخالف ترتيب الخليل قليلا ، وقد حدد صفة كل حرف وبين مخرجه وأوضح مجراه بدقة عظيمة ، وكذلك فعل النحاة من بعده حين عالجوا موضوع الادغام ٠

وكان لعلماء التجويد والقراءات القرآنية جهود كبيرة في مجال البحث الصوتى ، وكانت كتب التجويد ـ على سبيل التمثيل ـ تشتمل ـ الى جانب قواعد التلاوة ـ على فصل في مخارج الحروف وطريقة نطقها وصفاتها كما فعل (ابن الجزرى) في كتابه (النشر في القراءات العشر) ٠

ولعلماء البلاغة والأدب ملاحظات صوتية مفيدة حين كانوا يتحدثون عن فصاحة الكلمة ، ومن هؤلاء (الباقلانى) صاحب (اعجاز القرآن) و (ابن سنان) صاحب (سر الفصاحة) ٠ وللجاحظ ملاحظات طريفة في الأصوات العربية حين تحدث في كتابه (البيان والتبيين) عن عيوب النطق ٠

ولابن سينا الفيلسوف رسالة طريفة في الأصوات هى (أسباب حدوث الحروف) تكلم فيها عن سبب حدوث الصـوت بعامة أى باعتبـاره ظاهرة طبيعية ، فقال ان سببه القريب تموج الهواء دفعة واحدة بسرعة وقوة بسبب القرع أو القلع ، وعن سبب حدوث الحروف أى الأصوات الانسانية ، فذكر أن التموج هو الذى يحدث الصوت ، ثم يتحدث عن طريقة تموج الصوت وانقسامها ، ثم يعرض لتشريح الحنجرة واللسان ، ثم يتحدث باستفاضة عن أصوات العربية ويصفها مفصلا ، ثم يتحدث عن الأصوات الشبيهة بأصوات العربية في لهجات العربية وفي اللغات الأخرى ، وفي نهاية الرسالة يقارن بين أصوات العربية وغيرها من أصوات اللغات الأخرى ٠

وقد ألف (ابن جنى) كتابا في الأصوات هو (سر صناعة الاعراب) أجمل فيه ما يأتى :

ـ بيان صفاتها العامة وتقسيمها وفقا لاعتبارات مختلفة ٠

ـ عدد حروف المعجم وترتيبها ووصف مخارجها ٠

ـ ما يعرض للصوت في بنية الكلمة من تغيير ٠

ـ نظرية الفصاحة في اللفظ المفرد ورجوعها الى تأليفه من أصوات متباعدة المخارج ٠

ثانيا : النحو :

يرى بعض الباحثين أن النحو العربى نشأ متأثرا بالنحو السريانى ، وكانت السريانية منتشرة في (الرها) و (نصيبن) وغيرهما من المناطق المجاورة للعراق موطن النحاة العرب الأوائل ، ويميل دارسون آخرون الى أن النحو نشأ عربيا أصيلا ، وتختلف روايات المؤرخين العرب فيمن وضع النحو وفيمن أشار اليه بذلك ، ومن أشهرها الرواية التى تنسب وضع النحو الى أبى الأسود بتكليف من على بن أبى طالب ٠ وهذه الرواية تزعم أنه وضع بعض أبواب النحو ، وحدد أقسام الكلام من اسم وفعل وحرف ٠

ويتشكك بعض الباحثين في هذه الرواية ، ويرى أن التعريفات والتقسيمات المنسوب الى على أو الى أبى الأسود أبعد ما تكون عن العصر الذى عاشا فيه ويميل هؤلاء الى القول بأنها من وضع الشيعة ، ومع ذلك يرجحون أن أبا الأسود أول نقط يضبط أواخر الكلمات في القرآن الكريم ، وقد أضاف نصر بن عاصم الى هذا النقط نقط الاعجام الذى يميز الحروف بعضها عن بعض ، وبنقط الاعراب (نقط أبى الأسود) ونقط الاعجام أحيط القرآن بسياج قوى يحميه من اللحن ٠

والنحو بالمعنى الفنى قام به جيل جاء بعد تلامذة أبى الأسود من القراء على رأسهم عيسى بن عمر وأبو عمرو بن العلاء وعبد الله بن اسحق ٠٠ وهؤلاء جميعا رويت عنهم أنظار في النحو ، وقد روى عنهم سيبويه في كتابه بعض ذلك ٠

وقد اصطلح المؤرخون على أن يتحدثوا عن هؤلاء النحاة الأوائل ومن جاء بعدهم في اطار مدرستين لغويتين هما مدرسةالكوفة ومدرسة البصرة ٠

مدرســـة البصرة :

فتح العرب الحيرة عام ١٤هـ ، وأمر عمر بن الخطاب بتأسيس البصرة عام ١٥هـ فصارت حاضرة العراق ، وقد توافرت لهذه المدينة ظروف عديدة جعلتها مجالا لنشاط علمى متنوع كان أظهره البحث في اللغة والنحو ، ويصعد بعض الدارسين بزعامة هذه المدرسة الى أبى الأسود الدؤلى وتلامذته الذين أشرنا الى بعضهم آنفا ٠

وقد روى سيبويه في كتابه الشهير كثيرا من الآراء والتعليلات النحوية التى توضح أن أصول النحو وأهم مصطلحاته كانت موجودة قبله ، وفي رأى كثير من الباحثين أن الخليل بن أحمد هو المؤسس الحقيقى لعلم النحو الذى وضعه سيبويه في كتابه ، وقد نقل عنه سيبويه كثيرا ، وجملة ما رواه ٥٢٢ مرة ، وهو قدر لم يرد مثله ولا قريبا منه عن أحد من أساتذته ٠

وسيبويه (ت ١٨٠هـ) هو امام النحو العربى وصاحب كتاب العربية الأشهر (الكتاب) ، وقد بلغ افتتان العلماء به وتقديرهم لصاحبه مبلغا حتى قيل انه قرآن النحو ٠ والكتاب يجمع مسائل النحو في أبواب ، يعالج مسائل كل باب بحشد من الأمثلة والنصوص يكشف ما فيها من صواب أو خطأ أو حسن أو قبح أو كثرة أو قلة ، ولا نجد في الكتاب ما نجده في كتب المتأخرين وبخاصة الألفية وشروحها من تقسيمات وتفريعات ووضع شروط وتحديد تعريفات ٠٠ الخ ٠

وقد تلقف العلماء كتاب سيبويه وأخذوا في درسه ، فكان مدار البحث منذ ظهر حتى اليوم ٠

مدرســـة الكوفـة :

نشأت مدرسة الكوفة متأخرة قليلا عن مدرسة البصرة ، وقد أخذ علماؤها النحو عن البصريين ، ويروى أن أبا جعفر الرؤاسى ـ مؤسس هذه المدرسة ـ أخذ النحو عن عيسى بن عمر وأبى عمرو بن العلاء ٠

ومن أعلام هذه المدرسة (الكسائى) و (الفراء) فاليهما يرجع الفضل الحقيقى في وضع النحو الكوفي ، فهما اللذان وضعا أصوله وأوضحا خصائصه، وللفراء كتاب جليل هو (معانى القرآن) يجعله الباحثون علم المدرسة الكوفية في النحو وان كان في أصله كتابا في التفسير ، والفراء في كتابه هذا لا يفسر القرآن بالطريقة المعروفة ، وانما يتخير من الآياتعلى حسب ترتيب السور ما يدير حولها مباحثه اللغوية والنحوية ٠

ونوجز هنا ما ذكره المؤرخون من فروق بين المدرستين :

ـ يتشدد البصريون في الحكم بفصاحة العربى المعتد بعربيته ، على حين يتساهل الكوفيون حتى كانوا يأخذون عن الأعراب الذين قطنوا حواضر العراق ٠

ـ يتوسع الكوفيون في قبول القراءات القرآنية على حين يضيق البصريون مجال القبول ، بسبب ما عرف عنهم من توسع في أصول اللغة وقياس على القليل واعتدادهم بالمثال الواحد ٠

ـ اشترط البصريون كثرة الأمثلة والشواهد وتداولها على ألسنة العرب الفصحاء ، أما الكوفيون فكانوا يعتدون بالأشعار والأقوال الشاذة ، ولا يشترطون الكثرة في تقعيد قواعدهم ٠

ـ كثرة التأويل والتقدير عند البصريين لرفضهم كثيرا من الأمثلة العربية الصحيحة ونتيجة لمحاولاتهم المتكررة اخضاع الأمثلة العربية الصحيحة لأقيستهم النظرية ٠

ويضم بعض الباحثين مدرسة ثالثة الى مدرستى البصرة والكوفة هى مدرسة بغداد ويرى أن هذه المدرسة نهجت في دراستها نهجا جديدا يقوم على الانتخاب من آراء المدرستين ، وبهذه الطريقة نشأ جيل من النحاة يحمل آراء هاتين المدرستين ويميل الى رأى هذه المدرسة أو تلك ، ومن أعلام هذه المدرسة ابن كيسان والزجاجى وأبو على الفارسى ٠

ثالثـا المعجـــم :

تتنوع المعاجم العربية وتتعدد مدارسها وتختلف مناهجها على نحو رائع أدهش المستشرقين : يقول (فيشر) اذا استثنينا الصين لا يوجد شعب آخر يحق له الفخار بوفرة كتب علوم لغته وبشعوره المبكر بحاجته الى تنسيق مفرداتها بحسب أصول وقواعد غير العرب ٠

والمعاجم العربية قسمان :

ـ معاجم الألفاظ : ويقوم ترتيب مادتها على أساس الشكل أو اللفظ ٠

ـ معاجم الألفاظ : ويقوم ترتيب مادتها على أساس الشكل أو اللفظ ٠ ألفاظ موضوع معين في باب بعينه ٠

(ا) معاجم الألفاظ :

ويمكن وضعها في مدارس على النحو الآتى :

ـ مدرسة الترتيب الألفبائى العادى ، وقد أخذت هذه المدرسة صورتين : مخرجا ، وقد ابتكر الخليل بن أحمد هذا الترتيب ووضع على أساسه أول معجم عربى يضم بين دفتيه ألفاظ العربية ٠ وهو معجم (العين) وقد سار على نهجه عدد من اللغويين منهم الأزهرى صاحب (تهذيب اللغة) والقالى صاحب (البارع) وابن سيدة صاحب (المحكم والمحيط الأعظم) ٠

ـ مدرسة الترتيب الألفبائى العادى ، وقد أخذت هذه المدرسة صورتين :

١ ـ ترتيب الكلمات تحت حرفها الأول ، وكان أسبق من استخدم هذا الترتيب أبو عمرو الشيبانى صاحب معجم ـ (الجيم) ، بيد أنه لم يكتمل له تنسيق كتابه وفقا للحرف الثانى فالثالث ٠

وأهم المعاجم التى استخدمت هذا الترتيب بطريقة ميسرة كان معجم (أساس البلاغة) للزمخشرى ، وقد نهج نهجه الفيومى صاحب (المصباح المنير) وقد اتبعت المعاجم الحديثة في ترتيب موادها نهج (أساس البلاغة) و (المصباح) نظرا لسهولته وقرب مأخذه ٠

٢ ـ ترتيب الكلمات وفق حرفها الأخير ٠

يرى بعض الدارسين أن الجوهرى هو أول من ابتدع هذا الترتيب ، وقد وضع عليه معجمه (الصحاح) الذى حاز شهرة واسعة لسهولة استخدامه ووضوح منهجه ، ومن الذين اتبعوا نظامه : ابن منظور صاحب أضخم المعاجم العربية (لسان العرب) والفيروزابادى صاحب (القاموس المحيط) والزبيدى الذى شرح القاموس في كتابه (تاج العروس) ٠

ـ مدرسة الترتيب بحسب الأبنية ٠ ظهر أول معجم يرتب ألفاظه وفقا لأبنية أو صيغ الألفاظ في القرن الرابع الهجرى وهو معجم (ديوان الأدب) لأبى ابراهيم اسحق بن ابراهيم الفارابى ٠

ومن هذه المدرسة معاجم خاصة بأبنية الأفعال ، وأول كتاب ظهر منها هو (الأفعال) لابن القوطية ، ومن المعاجم التى اقتفت أثره (الأفعال) لابن القطاع و (الأفعال) للسرقسطى ٠

(ب) معاجم المعانى :

كان علماء العربية قبل أن يظهر معجم (العين) يضعون ما يجمعونه من ألسنة العرب في رسائل في موضوعات معينة ، ولهذا كانت الكتب اللغوية التى ترتب الكلمات وفقا للموضوعات أسبق في الوجود أو معاصرة لمعاجم الألفاظ فوضعت كتب أو رسائل في (الابل) و (الخيل) و (السلاح) ٠٠ الخ ٠

ومن أضخم معاجم المعانى وأوفاها معجم (المخصص) لابن سيدة ٠

وبقى أن نشير الى مجموعة من الكتب تبحث في اللغة العربية وخصائصها بشكل عام ، ومن هذه الكتب (الصاحبى في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها) و (الخصائص) لابن جنى و (فقه اللغة وسر العربية)للثعالبى ، وقد عرضنا لها عند حديثنا عن مصطلح (فقه اللغة) ٠

ملاحظات عن منهج العرب في البحث اللغوى :

أولا : من العرض الموجز السابق لنشأة البحث اللغوى عند العرب وتطوره نتبين أنهم درسوا اللغة في مستوياتها المختلفة الصوتية والصرفية والنحوية والمعجميـــة ٠

كان النحو عندهم شاملا لقواعد العربيـــة على مستوياتها الصوتيـــة

والصرفية والنحوية منذ ظهر أول كتاب فيه ، لقد بدأ سيبويه كتابه بمسائل النحو ، وفي أثناء عرضها عالج بعض مسائل الصرف التى ينبنى على تغير البنية فيها تغير في المعنى كالتصغير والتثنية والجمع ، ثم أنهى كتابه بمسائل الصرف الأخرى فتحدث عن أبنية الأسماء والأفعال والصفات ٠٠ الخ وعند حديثه عن الادغام عدد حروف العربية ووصفها محددا مخارجها وصفاتها، وما يعرض لها في مواقعها من تغيير ٠

وقد مضى النحاة على هذه الوتيرة يجمعون مسائل النحو والصرف ، وان كانوا يفرقون بين نوعين من مسائل الصرف ، الأول درسوه مع مباحث النحو كالتصغير والنسب والجموع ، والثانى أخروه الى الانتهاء من مسائل النحو كمسائل الأبنية والابدال والاعلال ٠

وثمة اتجاه آخر وان كان أقل شيوعا ، ذلك أن المازنى ألف كتابا في (التصريف) جعله للمسائل التى عرض لها سيبويه في نهاية كتابه من حديث عن أبنية الأسماء والصفات والأفعال ، وما يعرض للكلمات من تغير في بنيتها بالحذف أو الزيادة أو التغيير ٠ وقد سار ابن الحاجب في (الشافية) والرضى في شرحه لها على افراد التصريف بالتأليف كما فعل المازنى ، وان كانا قد ضما مباحث تصريف المازنى الى بعض المباحث التى لها ارتباط بالنحو كالتصغير والجمع ، وجعلوها جميعا في علم التصريف ، ومع أن ابن الحاجب والرضى ومن تبعهما قد جمعوا مسائل التصريف بنوعيها في كتاب الا أنهم يرون أن التصريف جزء من النحو يقول الرضى (اعلم أن التصريف جزء من أجزاء النحو بلا خلاف بين أهل الصنعة(١) ٠

وفي هذا أيضا يقول أبو حيان (علم النحو مشتمل على أحكام الكلمة ، والأحكام على قسمين : قسم يلحقها حالة التركيب ، وقسم يلحقها حالة الافراد، فالأول قسمان : قسم اعرابى وقسم غير اعرابى ، وسمى هذان القسمان علم الاعراب تغليبا لأحد القسمين ، والثانى أيضا قسمان : قسم تتغير فيه الصيغ

---

(١) الرضى : شرح الشافية حـ ١ ص ٦ ٠

لاختلاف المعانى نحو ضرب وضارب وتضارب وكالتصغير التكسير وبناء الآلات وأسماء المصـادر وغير ذلك ، وهـذا جرت عادة النحويين بذكره قبـل علم التصريف ، وان كان منه ، وقسم تتغير فيه الكلمة لا لاختلاف المعانى كالنقص والابدال والقلب والنقل وغير ذلك(١) ٠

وقد رأينا أن (هاليداى) عند حديثه عن الفرق بين النحو والمعجم يرى أن النحو نظام من القواعد ، وأن المعجم قائمة من المفردات ، وقد كان هذا الفرق واضحا عند النحاة العرب ، وقد بينا ذلك بالتفصيل عند عرضنا لمصطلح اللغـــة والنحـو ٠

ثانيا : درس النحاة اللغة العربية في مستوياتها السابقة دراسة وصفية وبخاصة اذا وضعنا في الاعتبار نحو المتقدمين لا المتأخرين ، لقد كان كتاب سيبويه مثلا للعربية الفصحى من مصادرها الأصيلة : القرآن وقراءاته والشعر وكلام العرب ، وسـيبويه في الحقيقة ـ على خلاف النحاة المتـأخرين ـ كان يتحدث عن صور الاستعمال العربى فيحدد خصائصها كما كان يستخدمها العرب الى عصره ، وان مال أحيانا الى اصدار أحكام على ما يلاحظه من صور الاستعمال بالصحة أو بالخطأ بالحسن أو بالقبح ، بالقلة أو بالكثرة ، بيد أن هذه الأحكام لم تكن ناتجة عن القاعدة التى يقررها ، وانما كانت ناتجة عن الاستعمال الذى يلاحظه ، فالصحيح صحيح ، لأنه يوافق ما يستعمله العربى والحسن حسن لأن العربى يستحسنه ٠٠٠ الخ ٠

وقد كان من أصول النحو عندهم السماع عن العرب ، فكان النحاة يأخذون العربية سماعا لا من الكتب ، بل كانوا ينكرون أن تؤخذ من الصحف ، على خلاف ما كان مقررا بين النحاة اليونانيين واللاتيين من الاعتماد على اللغة المكتوبة ٠ وكان من أصول السماع عندهم أن تؤخذ العربية من عرب البادية : بادية نجد والحجاز وتهامة ، ولذلك اعتبروا (محور المكان) فحددوا القبائل التى تؤخذ منها والقبائل التى لا تؤخذ منها ، واعتبروا كذلك (محور الزمان) فلم يتجاوزوا القرن الرابع بين عرب البادية والقرن الثانى بين عرب الحواضر ٠

---

(١) السيوطى : همع الهوامع حـ ٢ ص ٢١٢ ٠

وعلى الرغم مما شاب جمعهم وتقعيدهم من مآخذ فقد كان جمعا وتقعيدا جاريين على أصول المنهج الوصفى ٠

ثالثا : لم يكن لعلماء العربية عناية بالمقارنة بين اللغات على النحو الذى انتشر في أوربا في القرن التاسع عشر ، بل لم ينتبهوا الى درس لغتهم درسا تاريخيا يتتبع مراحلها ويقارن كل مرحلة منها بالأخرى ٠ بيد أنه من الانصاف لهم أن يقال : ان هذا كان شأن اللغويين الهنود والاغريق ، فلم يعرف عنهم عناية بهذا الجانب ٠ يقول (مونين) : ان لفظة (برابرة) بليغة في حد ذاتها ، لأنها كانت تشير الى صراخ الطيور ٠٠ ثم صارت تعنى ـ في شيء من الذم ـ أولئك الذين لا يتكلمون الأغريقية(١) ولا تختلف نظرة العرب الى اللغـــات الأخرى عن نظرة الاغريق ، فالذين لا يتكلمون العربية أعاجم لا يفصحون ولا يبينون ، فكأنهم من العجماوات أى الحيوانات(٢) ٠

قد يقول بعض الناس ان علماء العربية كانت لهم ملاحظات طيبة عن علاقة اللغة العربية باللغات السامية ، فالخليل بن أحمد يقول في (العين) : وكنعان بن نوح ، ينسب اليـه الكنعانيـون ، يتكلمون بلغة تضارع العربية(٣) ومن المعروف أن أصحاب المعاجم وفقهاء اللغة وعلماء الأصول لم يغفلوا عن الكلمات غير العربية وعن ردها الى لغاتها الأصلية كالحبشية والآرامية والنبطية ٠ كما أن بعض القائلين بالاصطلاح في نشأة اللغات قد تنبهوا الى أن اللغة تتغير ، يقول ابن جنى بعد أن يذكر أنه جوز الأمرين : التوقيف والاصطلاح : وكيف تصرفت الحال وعلى أى الأمرين كان ابتداؤها ، فانها لابد أن يكون وقع في أول الأمر بعضها ، ثم احتيج فيما بعد الى الزيادة عليه لحضور الدواعى اليه فزيد فيها شيئا فشيئا(٤) ٠ وكان لابن حزم موقف لغوى عظيم من القائلين بتفضيل اللغة العربية ، وأنها أم اللغات ، يقول : وحروف الهجاء واحدة لا تفاضل بينها ولا قبح ولا حسن في بعضها دون بعض ، وهى تلك بأعيانها في كل لغة ، فبطلت هذه الدعاوى الزائفة الهجينة ٠٠٠ وقد قال قوم : العربية

---

(١) تاريخ علم اللغة ص ٨٩ ٠
(٢) أنظر لسان العرب (عجم) ٠
(٣) أنظر : العين (كنع) ٠
(٤) الخصائص حـ١ ص ٢٨ ٠

أفضل اللغات ، لأن بها نزل كلام الله تعالى ، وهذا لا معنى له ، لأن الله عز وجل قد أخبرنا أنه لم يرسل رسولا الا بلسان قومه ، وقال تعالى : « وان من أمة الا خلا فيها نذير » ، و « وانه لفى زبر الأولين » فبكل لغة نزل كلام الله ووحيه (١) ٠

بيد أن هذه الملاحظات أو المواقف لم تنشأ عنها نظرية في علم اللغة التاريخى ، ولم ينبن على أساسها نظرة متكاملة للتغير اللغوى وللعلاقات الأسرية بين اللغات ٠

مكانة الفكر اللغوى العربى :

ينبغى أن يكون واضحا هنا ما قلناه آنفا من أن مؤرخى علم اللغة من الأوربيين لم يدرسوا الفكر اللغوى العربى كما درسوا الفكر المعاصر له وبخاصة فكر الهنود واليونان واللاتين ، ولهذا لا يقفون عنده طويلا عندما يقتضيهم البحث التاريخى أن يمروا به ، بيد أن القلة التى توفرت على درسه من المستشرقين الذين درسوه حق درسه قدروه حق قدره ، يقول (فيشر) عن العمل المعجمى : واذا استثنينا الصين فلا يوجد شعب آخر يحق له الفخار بوفرة كتب علوم لغته ، وبشعوره المبكر بحاجته الى تنسيق مفرداتها بحسب أصول وقواعد غير العرب (٢) ٠

وقد شدت أعمال النحاة في الأصوات انتباه هؤلاء المستشرقين وفتنوا بدقتها في الوصف والتقسيم حتى ذهب بعضهم الى افتراض اقتباس واسع عن حضارات سابقة تتمتع بمفاهيم لغوية متطورة تطورا بعيدا كالحضارة الاغريقية والهندوسية وقد أشار اللغوى (فولرز) الى بعض نقاط التماس بين (بانينى) والعلوم الصوتية التى أنشأها الجيل الأول من النحويين العرب كالخليل مثلا(٣) ٠ بيد أن هذا الرأى يبدو للكثيرين من الباحثين فرضا لا تدعمه الأدلة،

---

(١) الاحكام في أصول الأحكام حـ ١ ص ٣٣ ـ ٣٥ ٠

(٢) المعجم اللغوى التاريخى ص ٤ ٠

(٣) تاريخ علم اللغة ص

ولهذا تخلى (بروكلمان) عنه واعتبر وجود علم للأصوات عند العرب ظاهرة هامةفي حد ذاتها ، و (فليش) يقول : منذ القرن الثامن الميلادى كان علماء اللغة في البصرة يسعون الى وصف لغتهم وصفا صوتيا ، وسواء أوجدوا تلقائيا علما جديرا بأن يذكرنا بالعلامة (بانينى) أم أنهم اقتبسوا هذا العلم عنه فتلك مشكلة أخرى ، ولكن لابد لنا بادى ذى بدء أن نعترف بوجود هذا العلم في الأصوات وأنه علم فذ ممتاز (١) ٠

وقد حسم العلامة (شاده) هذه القضية بقوله : ولم يكن هناك في الشعوب القديمة الا شعبان بحثا عن كيفية الأصوات وانتاجها بحثا فاق بحث اليونان دقة وهما : الهند والعرب ، وبما أن الهند سبقوا العرب في علم الأصوات بألف سنة أو أكثر زعم بعض المستشرقين أن العرب اقتبسوا علم الأصوات من الهند ، ولكن مذهب العرب في دراسة الأصوات يخالف مذهب الهند في نقط مهمة ، فنرجح أن العرب استحدثوا هـذا الفن من المدارك العربيـة بأنفسهم ، ولم يقتبسوه من أى شعب غيرهم (٢) ٠

وقد كانت بواعث نشـأة هذا العلم والتعمق في درسـه متوفرة يقول : ان العجم الذين أسلموا في القرنين الأولين من قرون الاسلام كان يهمهم للغاية أن يحسنوا قراءة المصحف الشريف ، وينطقوا أصواته نطقا عربيا خالصا ، ولم يروا الى ذلك سـبيلا الا بعد تعميق المطالعة لأصـوات العربية واحكام انتاجها ، فيظهر أن حدوث علم الأصـوات عند العرب مقرون بنشوء علم التجويد (٣) ٠

ولهذا أيضا قال بعض الباحثين ان تدوين علم القراءة أفاد المسلمين فائدة لم تحظ بها أمة سواهم ، وذلك أن البحث في مخارج الحروف والاهتمام بضبطها على وجوهها الصحيحة لتيسير تلاوة كلمات القرآن الكريم على أفصح

---

(١) تاريخ علم اللغة ص

(٢) علم الأصوات عند سيبويه وعندنا ص ٤ ٠

(٣) علم الأصوات عند سيبويه وعندنا ص ٤ ٠

وجه وأبينه كان من أبلغ العوامل في عناية الأمة بدقائق اللغة العربية الفصحى وأسرارها ، وكانت ثمرة هذا الاهتمام والجهد أن القراء تشربوا بمزايا اللغة العربية وقواعدها ودقائقها ، ومما يويد ذلك أن الكثيرين من قدماء النحويين كالفراء كانوا مبرزين في علم القراءة ، كما كان الكثيرون من أئمة القراءة كأبى عمرو والكسائى بارعين في علم النحو(١) ٠

ان تعمق العرب في دراسة لغتهم وأهمية ما انتهوا اليه من حقائق هو الذى جعل مورخا منصفا يرى استحالة وضع تاريخ عام لعلم الأصوات مع تجاهل علم الأصوات العربى ، يقول (مونين) : يستحيل علينا أن نتجاهل علم الصوت عند العرب ، فندرس أولا أصوله ثم انتشاره في أوساط الثقافة العبرانية الى ما بعد القرن السادس عشر ، وما أحدثه من أثر في الغرب من ناحيـــة التفكير الصوتى(٢) ٠

وللنحو العربى تأثير كبير على النحو العبرى ، وعنه أخذت بعض المفاهيم اللغوية العربية طريقها الى الأوربيين في عصر النهضة ، يقول (بلومفيلد) : وخارج اطار تقاليد أوربا طورت أمم عديدة نظرياتها اللغوية معتمدة أساسا على أصل قديم ، لقد وضع العرب نحوا للغتهم الفصحى كما تظهر في القرآن الكريم ، وعلى منواله وضع اليهود في الأقطار الاسلامية نحوهم ، وفي عصر النهضة أصبح الباحثون الأوربيون على علم بهذا النحو ، والمصطلح(جذر root مثلا جاءهم من النحو العربى(٣) ٠

وفي ذلك أيضا يقول كاتب مادة (Grammar) في دائرة المعارف اليهودية : ان الحافز لدراسة الفيلولوجى العبرى قد قوى بعامل خارجى ، وبالتحديد بالمثال العربى الذى قدمته اللغة العربية ، وقد استمرت اللغـــة العربية تؤثر في علم اللغة العبرى ، وكان النموذج العربى هو الذى احتذاه العبرانيون ثم طوروه(٤) ٠

---

(١) مقدمة ناشر التيسير للدانى ص٠ج ٠
(٢) تاريخ علم اللغة ص ٢٠٦ ٠
(٣) Bloomfield, Language P. O
(٤) مختار عمر (د٠ أحمد) البحث اللغوى عند العرب ص ٥٠ ٠

المبحث الثانى

تاريخ علم اللغة فى العصور الحديثة

أولا : عصر النهضة

اتسع نطاق العلاقات الدولية في هذه الفترة اتساعا كبيرا ، وبتأثير ذلك انشئت معاجم وكتب مدرسية في اللغات الأجنبية ، ثم ظهرت حركة الاصلاح الدينى التى وجهت الناس الى دراسة العبرية والآرامية والسريانية تلك اللغات التى حفظت كثيرا من النصوص الدينية ٠

ولما ظهرت المطبعة ظهرت معها مشكلة الكتابة مما أسهم في تنمية الوعى بالظواهر الصوتية والعناية بوضع أبجديات جديدة أو باصلاح الاملاء القديم(١)

بيد أن انتشار كتب القواعد لم يسهم كثيرا في تطور البحث اللغوى ، فقد ظل اللغويون معتمدين في تحليلهم لأجزاء الكلام على أرسطو وفارون أو على كتب القواعد التى وضعها نحاة اللاتينية في العصر الوسيط التى لم تخرج هى الأخرى عما ذكراه ٠

وقد سادت آنذاك تلك الفكرة المستمدة من التوراة فكرة أن اللغـــات الانسانية جميعها مصدرها واحد ، وأن العبرية هى هذا الأصل المشترك ، ومن ثم فقد كثرت البحوث التى تهدف الى اثبات ذلك بعقد المقارنات بين العبرية واللغات الأخرى ٠ ومن أهم البحوث في هذا الشأن بحث (كانيوس) الذى أذاع في أوربا فكرة القرابة بين اللغات السامية ، تلك القرابة التى اعترف بها اليهود والعرب على سواء في العصر الوسيط ٠

ومع أن الملاحظات والآراء اللغوية الى ظهرت في هـذه الفترة لم تكن

---

(١) أنظر (مونين) تاريخ علم اللغة ص ١١٩ ، ١٢٢ ، ١٢٥ ، ١٢٧ ٠

مستندة الى أساس لغوى صحيح الا أن مؤرخى علم اللغة يقررون أنها كانت لها فائدة عظيمة فقد أثارت بعض الأسئلة التى لم تطرح من قبل وكشفت عن بعض المشكلات التى ينبغى أن تتوجه اليها البحوث في المستقبل (١) ٠

ثانياً : القرن السابع عشر

استمر النشاط اللغوى في هذا القرن على منوال ما كان في القرنين السادس عشر والخامس عشر ، بيد أن أهم ما يميز هذا القرن هو المباحث اللغوية التى قام بها رهبان دير (بور رويال) ، لقد وضع راهبان (أرنولد) و (لانسلو) الأساس لما أسمياه القواعد اللغوية العامة والمعللة تعليلا عقليا ، وكان معتمدهم في الوصول الى هذه القواعد العامة مقارنة الفرنسية والايطالية ٠ وسوف يكون لهذه المحاولة تأثير في علم اللغة المعاصر اذ وجد فيها تشومسكى دعما لنظريته في القواعد التحويلية (٢) ٠

وثمة قضية أخرى ظهرت ابان هذا القرن وهى قضية اللغات العالمية المصطنعة ، فقد سعوا الى ايجاد لغة (فلسفية) عامة تجمع بين مزايا التصنيف المنطقى لجميع المفاهيم مع تعبير مشترك عالمى يتحقق ببعض الرموز أو بأبجدية مصطنعة اصطناعا (٣) ٠

ثالثاً : القرن الثامن عشر

كان الاتجاه العقلانى في دراسة اللغة بارزا في هذا القرن ولهذا استمر البحث النحوى في الاتجاه الذى أرسته مدرسة (بور رويال) والقائم على أن اللغات جميعها تعبر عن الأفكار وأن ثمة علاقة قوية بين الجملة في النحو والقضية في المنطق ، وأن تحليل الجملة ينبغى أن يقوم على أساس واحد بغض النظر عن اللغة المعينة الخاضعة لهذا التحليل ولهذا كانت تجرى البحوث

---

(١) أنظر (مونين) تاريخ علم اللغة ص ١١٩ ، ١٢٢ ، ١٢٥ ، ١٢٧ ٠

(٢ ، ٣) مونين : تاريخ علم اللغة ص ١٣١ ، ١٣٤ ، ١٣٧ ٠

لوضع القواعد العامة التى تصلح لكل اللغات ٠

وقد استمر كذلك البحث في اللغات الحية في آسيا وافريقيا وقام كثير من الباحثين بوضع قوائم للمفردات وبعقد مقارنات بين اللغات(١) ٠

ولم يكن عمل هذه القوائم عملا دقيقا ، ومع ذلك فقد كانت لها مزاياها اذ أنها وضعت نظرية أكثر وضوحا عن طبيعة اللغة وكيف تكون المقارنات بين اللغات ٠ مما مكن الباحثين الآخرين من نقد أعمالهم والقاء الضوء عليها ومعالجة مادتها بطريقة أكثر اقناعا(٢) ٠

أما البحث اللغوى التاريخى فقد غلبت عليه أيضا النزعة العقلانية وكان البحث في أصل اللغات هو مقصد كثير من الفلاسفة في تلك الفترة ، فكتب فيه (روسو) و (آدم سميث) و (هوبز) و (كوندياك) ، وآراء هؤلاء كانت قائمة على فروض تخمينية في علم النفس التوليدى المعروف آنذاك أكثر من قيامها على تحقيقات تاريخية ٠ ومع ذلك فقد بدأ البحث التاريخى يأخذ مكانه شيئا فشيئا مما يعد تبشيرا بظهور علم القواعد المقارنة في القرن التاسع عشر ، وقد بدأ (لايبنتز) هذه الخطوة حين دحض النظرية القائلة بأن العبرية هى أم اللغات ، وبدأ يبنى تلك اللغة التى يعتقد أنها كانت سابقة لكل اللغات المعروفة ٠

وفي مجال النظريات اللغوية الذى اتسعت آفاقه اتساعا باهرا يظهر (كوندياك) الذى ألح في كتاباته الى ضرورة الاجتماع البشرى لكى يتحقق التبادل اللغوى ، والى أن العلامات أو الاشارات اللغوية عرفية فنحن الذين اخترناها واتفقنا على استعمالها وغير ذلك من الآراء التى سيكون لها تأثيرها في القرنين التاليين(٣) ٠

---

(١) أنظر : تاريخ علم اللغة ص ١٤٨ ، ١٤٩ ٠

(٢) أنظر Dinneen, AnIntroduction to General Linguiatcs, P.1 79

(٣) أنظر : تاريخ علم اللغة ص ١٥٣ ، ١٥٤ ٠

رابعاً : القرن التاسع عشر

لقد كان القرن التاسع عشر قرن البحوث اللغوية التاريخية والمقارنة ، وبخاصة البحوث التى تناولت اللغات الهندوأوربية ، وان كان هذا لا يعنى كما يقرر (روبنز) أن البحوث التاريخية والمقارنة لم تظهر من قبل ، أو أن الجوانب الآخرى لعلم اللغة قد أهملت في أثناء هذا القرن · وكل ما في الأمر أن هذا القرن قد شهد تطور المفاهيم الحديثة النظرية والمنهجية لعلم اللغة التاريخى والمقارن ، وأن الاهتمام الأكبر للباحثين كان خالصا لهذا الجانب أكثر من الجوانب الآخرى(١) ·

وقد كانت العناية باللغة السنسكريتية التى اكتشفت في نهاية القرن الثامن عشر هى أهم أحداثه ، وقد تعرف اللغويون الأوربيون الأوائل على البحوث اللغوية التى قام بها الهنود وبخاصة البحوث الصوتية بيد أنهم لم يستفيدوا منها في بحوثهم المقارنة ، وسوف نرى أن الأسلوب المقارن قد تم على أساس الحروف لا الأصوات ، كما أن معرفتهم بطرق التحليل الصرفي عند الهنود لم تغير مفاهيمهم اللغوية تغيرا ثوريا ، بل انهم استغلوه استغلالا سيئا للوصول الى ما سموه اللغة الأصلية ولتبرير نظرياتهم في تفوق اللغات المعربة(٢) ·

اكتشاف اللغة السنسكريتية :

في نهاية القرن الثامن عشر اكتشف أن السنسكريتية لغة الهند القديمة المقدسة لها علاقة باللاتينية وبلغات أوربية أخرى ، وقد ظهرت هذه الحقيقة لكثير من الباحثين بل وضع بعضهم معاجم لها ، وذلك قبل أن يعلن (وليم جونز) ١٧٨٦م نبأ هذا الاكتشاف العظيم ·

وفي ذلك يقول (مونين) : ان (جونز) هو الذى أهدى السنسكريتية الى

---

(١) Robins, A Short History of Linguisties, P.164

(٢) مونين : تاريخ علم اللغة ص ١٥٨ ، ١٥٩ ·

أوربا وطرح المسألة طرحا مباشرا في البحث الذى قدمه للجمعية الآسيوية التى أسسها في البنغال بقوله : ان للغة السنسكريتية مهما كان قدمها بنية رائعة أكمل من الاغريقية وأغنى من اللاتينية ، وهى تنم عن ثقافة أرقى من ثقافة هاتين اللغتين ، لكنها مع ذلك تتصل بهما بصلة وثيقة من القرابة سواء من ناحية جذور الأفعال أم من ناحية الصيغ النحوية بحيث لا يمكن أن نعزو هذه القرابة الى مجرد الصدفة ، ولا يسع أى لغوى بعد تفحصه هذه اللغات الثلاث الا أن يعترف بأنها تتفرع من أصل مشترك زال من الوجود ، وثمة أسباب مماثلة وان كانت أقل وضوحا ، تحملنا على الرأى بأن اللغتين الكلتية والقوطية ـ وان اختلطا بلغة غريبة عنهما ـ تنتسبان هما أيضا الى أصل واحد مع السنسكريتيـة بل يمكننا اضافة الفارسيـة القديمة الى هـذه الفصيلة من اللغـــات(١) ٠

وقد نشطت البحوث التى تناولت السنسكريتية في باريس نشاطا عظيما فقد بعث (سلفستر دى ساسى) الحياة في مركز حقيقى للأبحاث تابع لمدرسة اللغات الشرقية منذ عام ١٧٧٦م ، وقد وفد الى هذا المركز جميع اللغويين الألمان الذين أوجدوا القواعـد المقـــارنة ومن هؤلاء الأخـوان (شـليجل وهمبولدت) و (بوب)(٢) ٠

ان اكتشاف السنسكريتية والتعرف على علاقتها باللغات الأخرى قد كان له آثار بالغة الأهمية في حقل الدراسات اللغوية في ذلك الوقت ٠

وقد عزز هذا الاكتشاف رأى أولئك الذين يعتقدون بأن نحو اللغات متماثل في جوهره مختلف في مظهره ، وثبت الفكرة التى مؤداها أن تطور اللغات كان تحريفات متعاقبة حدثت بمرور الزمن ، فاللاتينية مثلا كانت تحريفا لليونانية ، أما السنسكريتية فقد كانت آنذاك أكثر كمالا من اليونانية ٠

---

(١) أنظر مونين : تاريخ علم اللغة ص ١٦٢ ٠

و Dinneen, An Introduction to Generol Linguiatics, P. 180

(٢) مونين : تاريخ علم اللغة ص ١٦٣ ٠

ان دراسة السنسكريتية دعمت الزعم بأن المنهج المقارن الذى يرى أن اللغات التى بينها علاقات واضحة في بنيتها النحوية ينبغى أن تكون هذه العلاقات قائمة على أساس من القرابة لا على أساس الصدفة ، وأن اكتشاف ـ أو على الأقل ـ اعادة بناء اللغة الأصلية القدمى يمكن أن يتم من خلال اللغات التى تفرعت منها ٠

ان اكتشاف السنسكريتية جعل من الممكن أن ندرس اللغات الشرقية والغربية التى قد تكشف عما بينها من علاقات القربى(١) ٠

القرابة بين اللغات :

يستخدم مصطلح العلاقة Relationship ليشير الى صلات تاريخية أو صلات قرابة Genetic relations ، فحين نقرر أن بين لغتين قرابة نعنى أنهما قد تطورتا من لغة أقدم منهما ، أى أنهما ينتميان الى عائلة لغوية واحدة ٠

وعلى أساس من علاقة القرابة تم تصنيف اللغات وفقا لاعتبارات مختلفة سوف نتبينها عند الحديث عن مؤسسى البحوث المقارنة في هذا القرن ٠ وباعتماد هذه الأسس في المقارنة استبدعت كثير من الأفكار الخاطئة ، كالعبرية التى اعتبرت أم اللغات ٠ ومع ذلك فقد ظهرت تصنيفات شابها الهوى والتعصب فـ (شليجل) مثلا يميز بين صنفين من اللغات بحسب بنيتها الداخلية : لغات معربة (كاللغات الهندية الأوربية) ولغات غير معربة (كاللغة الصينية ولغات الهنود في أمريكا) واللغات المعربة لغات نبيلة ، لأنها نشأت وتكونت تكوينا عضويا ، أما اللغات غير المعربة فلغات ناقصة جدا بالقياس الى غيرها ، وعلى الرغم من أن اللغات السامية لغات معربة ، وبناء مفرداتها قائم على أساس الاشتقاق من الجذور فان (شليجل) لا يضعها بين اللغات المعربة ، ويرى أن بنيتها المعربة ليست قديمة بل مقتبسة ـ على حد زعمه ٠

ولقد كانت نظرة (شليجل) الى السنسكريتية نظرة أقرب الى التقديس فهى أكمل اللغات وأقدم اللغات ، واللغات الهندية الأوربية جميعها قد انحدرت

---

(١) Dinneen, An Introduction to General Linguistics, P. 181

منها · بل انه يرى كذلك أن السنسكريتية لغة شعب لا يتألف من البهائم بل من أصحاب العقول النيرة ·

ومن هذه الأفكار التى أملاها التعصب والهوى ظهرت النظرية التى ترى في أوربا مركز الكون ـ وترى أن الألمانية هى أقرب اللغات الى السنسكريتية · وسوف نرى أن البحوث القادمة في مجال المقارنة سوف تستبعد كثيرا منها(١) ·

الأسلوب المقارن :

لقد تبين لنا أن اكتشاف السنسكريتية كان فتحا في مجال الدراسات التاريخية والمقارنة ، ومع ذلك يقرر المؤرخون أن نشأة القواعد المقارنة لم لم تكن حادثة مفاجئة فقد ظهرت في الحقيقة قبل عام ١٨١٦م بزمن طويل ، وذلك في مجال الأبحاث الدينية وسوف نتبين فيما بعد كيف أثرت البحوث في المجالين على تطور النظريات اللغوية في هذا القرن ·

وينسب المؤرخون الى (ف شليجل) أنه صاحب هذا المصطلح حين دلل على ضرورة خلق القواعد المقارنة بالوسائل التى يستخدمها علم التشريح في التوصل الى الحلقات الأولى من الكائنات في التاريخ الطبيعى ·

وقد وصف (شليجل) هذه القواعد وصفا واضحا حين قال عن السنسكريتية : لا يقتصر الشبه بينها وبين اللاتينية واليونانية والألمانية على ذلك العدد العديد من الجذور المشتركة ، لكنه يمتد الى البنية الداخلية لهذه اللغات والى أعماق القواعد ، اذن لسنا هنا بازاء توافق عارض ، بل انها قرابة تظهر البنية اللغوية بأسرها(٢) ·

وسوف يخطو هذا الأسلوب خطوات سريعة الى الأمام بالبحوث العميقة التى قام بها (راسك) و (جريم) و (بوب) ·

---

(١)أنظر : تاريخ علم اللغة ص ١٥٩ ، ١٦٠ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ·

(٢)مونين : تاريخ علم اللغة ص١٦٥ ، ١٦٦ ·

راسك (١٧٨٧ - ١٨٣٢) :

لقد تبينا أن (ف شليجل) قد وضع بذرة الدراسة المقارنة حين حدد بعض القواعد التي على أساسها لاحظ أوجه الشبه بين السنسكريتية واليونانية واللاتينية والألمانية · بيد أن العالم الدانيمركي (راسك) كان هو أول من جعل المقارنة بين اللغات قائمة على أسس ثابتة ، فاعتمد على المقارنات المطردة بين المفردات · وعلى الرغم من ذلك لم يجعله المؤرخون مؤسس القواعد المقارنة ، وقد كان جديرا بذلك اللقب ، لأسباب كثيرة منها أنه كتب بحوثه باللغة الدانيمركية ونشرها متأخرا ·

ولقد أدرك راسك ادراكا قويا أن المقارنة بين اللغات ينبغي أن تستند الى أسس نحوية ، وفي هذا المجال يقرر أن التجارب أثبتت أن التوافق بين المفردات لا يعول عليه دليلا على الأصل المشترك أو العلاقة بين اللغات ، أن هذا التوافق قد يرجع الى الاقتراض أو الصدفة الخالصة · ثم يقرر أن الصيغ الصرفية وطرق الاشتقاق في اللغة نادرا ما تقترض ، ولهذا فان أفضل طريق للمقارنة هو أن نعتمد على :

١ - جذور اللغات ·

٢ - التوافق الصوتي بين جذور اللغات(١) ·

ولم يعتمد (راسك) في المقارنة على الأسس النحوية وحدها بل اعتمد كذلك على المفردات ، وان جعل ذلك في المرتبة الثانية ، فهو يقرر أن اللغة تنتسب الى فرع واحد مع لغة أخرى اذا اشتركت اللغتان في المفردات الأساسية الشائعة ، وعندما نلاحظ توافقا بين اللغتين في هذا اللون من المفردات ، وكان التوافق متواترا بحيث يعيننا على استنباط بعض القواعد التي تنتظم تحول حرف الى حرف آخر من لغة الى أخرى كنا على يقين بوجود علاقة أساسية بين هاتين اللغتين(٢) ·

---

(١) Dineen, Anintroduction to General Linguiatics, P. 181

(٢) مونية تاريخ علم اللغة ص ١٧٢ وانظر أيضا

Robins, A Short History of Linguistics, P. 171

من هذه المفردات الأساسية المفردات ذات الدلالات القديمة كالأرض والسماء ودرجات القرابة كالأب والأم والأخ ٠٠ الخ ٠

وقد وضع راسك قوانين التحول الصوتى التى تخضع لها الحروف الصامتة في الجرمانية كالانتقال من الحرف اللاتينى P الحرف الجرمانى F كما في Patsr > Father وان كان يؤخذ عليه أنه يتحدث عن الحروف لا الأصوات(١) ٠

وبهذا البيان الواضح في أسس المقارنة وقوانين التحول الصوتى يكون (راسك) قد سبق غيره من الباحثين اليها وبخاصة (جريم) الذى أخذ عنه ما عرف بين اللغويين بقانون (جريم) في التحولات الصوتية(٢) ٠

جريـــــم :

لقد تبين لبعض فقهاء اللغة المقارنين منذ عهد مبكر وبخاصة (راسك) أن بعض حالات التوافق الصوتى تأخذ طابعا منتظما في الكلمات المترادفة في اللغات المختلفة ، وقد أعلن جريم في عام ١٨٢٢ بعض هذه الحالات ٠

لقد أوضح جريم أن اللغات الجرمانية (ويمثلها في الجدول الآتى اللغة القوطيـــة) :

حين تصم احدى كلماتها الحرف F يقابله في الكلمات المشتركة في اللاتينية واليونانية والسنسكريتية الحرف P ٠

وحين تضم P يقابله في اللغات الأخرى الحرف b ٠

وحين تضم الحرف θ (وهو صوت مهموس احتكاكى أسنانى يشبه الثاء العربية) يقابله في اللغات الأخرى T ٠

---

(١) مونين : تاريخ علم اللغة ص ١٧٢ ٠

(٢) تاريخ علم اللغة ص ١٧٥ ٠

وحين تضم الحرف T يقابله في اللغات الأخرى الحرف d •

وهذا هو الجدول الذى يوضح هذه التقابلات :

TABLE I

Gothic	f	p	b	θ	t	d	h	k	g
Latin	p	b	f	t	d	t	c	g	h
Greek	p	b	ph	t	d	th	k	g	kh
Sanskrit	p	b	bh	t	d	dh	ś	j	h

لاحظ أن ph , kh , dk , bh المستخدمة في كتابة اليونانية واللاتينية تشير الى أصوات وقفية نفسية Aspirated Stops ، وهى تستخدم في التمييز بين الاحتكاكيات والوقفيات النفسية(١) .

وهذا جدول يوضح بالأمثلة بعض التقابلات السابقة :

Sanskrit	*bhrâtar-*	*pitár-*
Gothic	*brōθar*	*fadar*
Latin	*frāter*	*pater*

وقد فسر جريم هذه التقابلات بافتراض حدوث تغير صوتى في مرحلة ما قبل تاريخ الجرمانية بمقتضاه أصبحت الصوامت الهندوأوربية النفسية (bh , dh , gh) غير نفسية (b , d , g) وأصبحت الأصوات المجهورة (b , d , g) مهموسة وأصبحت الأصوات الأصلية المهموسة (P , T , K) نفسية (h , θ , F)

وقد اعترف (جريم) ومعاصروه بوجود مستثنيات كثيرة على هذا القانون .

---

(١) See, Lyons, Itroduction to Theoretical Linguistics, P. 27

لقد لاحظوا مثلا أن الكلمة brother تخضع له تماما في تطور سواكنها

اللاتينيـــة	القوطيـــة
Frater	bro O ar

حيث تقابل b في القوطية F في اللاتينية

وحيث تقابل O في القوطية T في اللاتينية

على حين نلاحظ أن الكلمة Fathar تخضع له جزئيا

حيث تقابل F في القوطية P في اللاتينية

وحيث تقابل d في القوطية T في اللاتينية وهذا موضع الاستثناء ·

ولم تزعجهم المستثنيات السابقة ، فلم يكن لديهم أى سبب يدعوهم الى الاعتقاد بأن التغير الصوتى تغير مطرد ، وقد قرر (جريم) نفسه بأن التغير الصوتى ينطبق على معظم الحالات لا على كلها واحـدة واحـدة ، فبعض الحالات تبقى في شكلها الذى كانت عليـه في مرحلة أقدم ، ثم تجاوزها تيـار التطور تماما(١) ·

بوب (١٧٩١ ـ ١٨٦٧) :

(بوب) ـ عند مؤرخى علم اللغة ـ هو مؤسس القواعد المقارنة ، ففى عام ١٨١٤نشرت مذكرته : « في تصريف اللغة السنسكريتية ومقارنته بالأنظمة الصرفية المعروفة في اللغات اليونانية واللاتينية والفارسية والجرمانية » ثم تابع أبحاثه المقارنة طوال نصف قرن من الزمن ومنها على سبيل المثال مذكرته في « التحليل المقارن بين اللغة السنسكريتية واللغات التى تمت اليها بصلة

---

(١) See, Lyons, Introduction to Theoretical Linguistics, P. 27,28

القربى » وكتابه « القواعد المقارنة »(١) ٠

وقد كان الاعتقاد السـائد في عهده أن السنسكريتية هى المصدر الذى تفرعت عنه اليونانية واللاتينية واللغات الأوربية الأخرى ، وجاء بوب فخالف هذا الاعتقاد ورأى أن هذه اللغات بغير استثناء تحولات متدرجة للغة أصلية واحدة ٠ كما أنه لم يقر المصطلح اللغات الهندية الجرمانية الذى أشاعه (كلابروت) منذ عام ١٨٢٣م وقال : لا يسعنى أن أقر لفظة هندية ـ جرمانية اذ لا أرى ما يستوجب اعتبار الشعب الجرمانى ممثلا لجميع شعوب قارتنا(٢) ٠

وهو لهذا لا يعد السنسكريتية اللغة الأصلية التى تفرعت عنها عائلة اللغات الهندية الأوربية بل يعدها أقربها الى هذه اللغة ٠

وقد جعل (بوب) الهدف الرئيسى لنظامه التصريفى اعادة صياغة البنية النحوية للغة الأصليـة التى نتج عن انحلالها التدريجى اللغـات المنضوية في أسرة اللغات الهندية الأوربية ٠

وكان (بوب) يوجب علينا أن ننظر الى اللغات على أنها أشياء طبيعية عضوية تنمو وفقا لقوانين محددة حاملة في ذواتها بذرتها الحية ، ثم تصل الى أدوار من التطور وفي النهاية تموت(٣) ٠

فاللغات الأوربية بهذا الفهم ليست الا نتيجة لانحلال تدريجى للغة الأولى التى تفرعت منها جميعا ، ومن ثم كان التغير اللغوى عنده حالة انحلال تصيب اللغة الأصلية الكاملة ٠

وقد أعلن (بوب) أن هدفه من الوصف المقارن للغات المدروسة هو وضع القوانين التى تخضع لها وبيان أصولها الاشتقاقية (٤) ٠

(١) موانين : تاريخ علم اللغة ص ١٧٧ ، ١٧٨ ٠

(٢) السابق ص ١٧٨، ١٨٢ Robins, A Short History of Linguistics P. 173

(٣) Robins, A Short History of Linguistics P. 181

(٤) Robins, A Short History of Linguistics P. 173

ومن الواضح أن (بوب) قد هدى الى المنهج الوصفى في الدراسة حين قال : « ان اللغات التى نتناولها في بحثنا هذا قد درسناها لذاتها بوصفها غرضا من الأغراض العلمية ، ولم ندرسها كوسيلة من وسائل المعرفة · وهى عبـــارة تذكرنا بما سـيقوله (دى ســوسير) في آخر كتابه (١)

ظهور علم اللغة التاريخى :

كانت البحوث المقارنة هى الطابع السائد في بداية القرن التاسع عشر حتى عام ١٨٧٠م حين ظهر علم اللغة التاريخى · وان كان مؤرخو علم اللغة يحترسون من هذا التحديد الصارم ، ويرى بعضهم أن علم اللغة التاريخى قد ظهرت بشائره قبل ذلك وبخاصة عند (جريم) الذى يعد عندهم مؤسس علم اللغة التاريخى(١) ·

وقد أوضح (ماييه) الفرق بين القواعد المقارنة وعلم اللغة التاريخى فقال : « حقيق بنا أن نقر ونعترف بأنه لا يوجد علم يسمى بالقواعد المقارنة·· اذ لا توجد الا طريقة مقارنة ، وان ما ندعوه خطأ بالقواعد المقارنة ليس الا شكلا من أشكال علم اللغة التاريخى ، فاذا ما أردنا بحث القواعد المقارنة لاحدى اللغات درسنا تاريخ هذه اللغة على هدى الطريقة المقارنة »(٢) ·

وقد كانت الدراسة المقارنة ابان نشأتها تختلف في منهجها وفي الغاية منها عن الدراسة التاريخية التى أعقبتها ، وفي ذلك يقول (مونين) : وكان الهدف الأساسى من القواعد المقارنة اثبات القرابة بين اللغات · وهى لا تسعى الى تتبع تاريخها خطوة خطوة ، بل تعتمد طريقة الموازنة الدقيقة الصارمة ، وتنتهى من عملها أو تستنفذ طاقتهـا اذا أثبتت أن التشـــابه بين أشكال لغتين لا يمكن أن يكون من قبيل الصدفة ، وبالتالى لابد أن تكون احداهما منحدرة

---

(١) مونين : تاريخ علم اللغة ص ١٨٢ ، ١٨٣ ·

(٢) أنظر : تاريخ علم اللغة ص ١٨٣ ، ١٨٧ ·

من الأخرى ، واما أن تنحدرا معا من أصل مشترك ، ولا تتضمن الطريقة المقارنة في حد ذاتها أى استعانة بتاريخ تطور اللغات ، فلكى تثبت صلة القربى بين اللغات لا يعنيها مباشرة أن تنظر في الفترات التاريخية التى تقارن بينها(١) ٠

وهكذا يبدو أن الدراسة المقارنة قد أهملت الجانب التاريخى فلم تنظر الى التغير اللغوى على فترات متعاقبة ، وكذا لم تعن بدراسة المراحل المختلفة التى مرت بها اللغات بمرور الزمن ، ولم تحدد الظواهر اللغوية التى تميز كل مرحلة عن المراحل الأخرى ٠

همبولدت (١٧٦٧ ـ ١٨٣٥) :

كان (همبولدت) من أعمق المفكرين الذين تناولوا القضايا اللغوية العامة في القرن التاسع عشر ، وهو من اللغويين الأوائل القلائل الذين لم يركزوا كل عملهم في مجال البحث اللغوى التاريخى ، بل ان بحوثه اللغوية كانت تهدف الى وضع علم انسانى مقارن ، ومن هنا كانت عنايته البالغة بالقضايا العامة مثل : طبيعة الفكر الانسانى ونشأته وتقدمه ، أصل الديانات والملاحم القديمة باعتبارها شواهد ثابتة تكشف لنا عن تفكير الأولين ومعتقداتهم ٠

وقد كان له دور هام في الشئون العامة لبروسيا سفيرا ومديرا للتعليم ووزيرا وكان له المام واسع بعدد كبير من اللغات المنتشرة في الشرق والغرب ، كما كان له معرفة بعدد من لغات الهنود بأمريكا(١) ٠

وكان ينظر ـ كالمألوف في عصره ـ الى اللغة السنسكريتية على أنها أفضل اللغات المعروفة لنا وأقربها الى الكمال ٠

ونظريته اللغوية قائمة على أساس أن اللغة ملكة خلاقة متأصلة في عقول المتحدثين بها ، وأن الانسان البدائى دفعته طبيعته الخلاقة الى أن يبدع اللغة ،

---

(١) أنظر : تاريخ علم اللغة ص ١٩٣ ، ١٩٤ و

Robins, A short history of Linguistics p. 174

ثم انه يتصور أنه بعد فترة التكوين السالفة تناقصت قوة الطاقة المبدعة للغة · وهذا يذكرنا بما شاع في عصره من حديث عن كمال اللغات ثم انحلالها التدريجى (١) ·

وقد شغل بعلاقة اللغة بالفكر ، وعنده أن الفكر واللغة يتوقف كل منهما على الآخر ولا ينفصل أحدهما عنه · ولهذا السبب كان يعتقد أن الفروق بين اللغات ليست في الأصوات فحسب بل هى الى ذلك فروق في العقليات فروق في نظرة الانسان الى العالم الذى يعيش فيه وادراكه له ·

واللغة هى الوسيلة التى يتكون بها التفكير أى أنها تعبر عن الروح القومية ، وكذلك تكون هذه الروح في كل خصائصها ، وتشير الى تلك النظرة الكونية الشاملة التى تنفرد بها جماعة من الجماعات ، وليس تنوع اللغات الا دليلا على تنوع العقليات ، ومنه نشأت أهمية التحليل الدقيق المفصل لعضوية كل لغة حتى تتم المقارنة بين مزايا بنيتها ومزايا بنية اللغات الأخرى ، ذلك أن تفوق البنية اللغوية برهان أكيد على توفق العقلية والعرق (٢)

ولم تلق أفكاره السابقة ترحيبا كبيرا من معاصريه ، وقد ظهرت حديثا اتجاهات مؤيدة لها ، ونكتفى هنا بالاشارة الى : (بواز) و (سابير) و (ورف (٣) ·

وقد صنف همبولدت اللغات تصنيفا بنائيا ، أى وفقا للشكل السائد لبنية الكلمة فيها باعتبارها وحدة قواعدية grammtical unit وهى : اللغات المفردة isolating واللاصقة agglutinative واللغات الاشتقاقية

---

(١) أنظر : تاريخ علم اللغة ص ١٩٧ ·

(٢) See, Robins, A short history of Liuguistics, p. 175, 176
وتاريخ علم اللغة ص ١٩٧ ·

(٣) See, Robins, A short history of Linguist cs p. 176
وانظر المبحث الخامس بعنوان (اللغة والفكر والثقافة) في كتابنا « مدخل الى اللغة » ·

f lexional وهو تقسيم كان شائعا في عصره وبخاصة عند (أ شليجل)(١) .

شلايشر (١٨٢١ ـ ١٨٦٨) :

(شلايشر) عند مؤرخى علم اللغة هو أعظم علماء اللغة تأثيرا وأكثرهم أهمية في منتصف القرن التاسع عشر · وربما كان له هذا التأثير وهذه الأهمية اذا وضعنا آراءه ونظرياته في اطار عصرها ، فبعض الباحثين يرى أنها لم تثبت أمام النقد ولم يبق منها في أيامنا الا القليل النافع ·

وقد كانت له اهتمامات واسعة كان عالما في النبات وكان متأثرا بفلسفة (هيجل) ، ومن آثاره اللغوية مبحثه الرائد « الموجز في اللغة اللتوانية » الذى مازال محتفظا بقيمته حتى اليوم ، ومن مباحثه المقارنة « الموجز في القواعد المقارنة للغات الهندية ـ الأوربية » وقد عرض نظرياته اللغوية في كتابه « مذهب دارون وعلم اللغة »(٢) ·

وفي مجال القواعد المقارنة يذكر أن (شلايشر) هو أول من وضع فكرة اعادة انشاء اللغة الهندية الأوربية موضع التنفيذ على نحو منظم ، ومؤدى هذا الفكرة أن يجمع الباحث الأشكال المختلفة لكلمة ما لا تزال موجودة في اللغات الهندية الأوربية (في السنسكريتية وفي اليونانية واللاتينية والايرانية ··· الخ مثلا) ثم يقوم بتطبيق قواعد العلاقات المتبادلة بين لغة وأخرى ، وبعدئذ يحاول أن يصل الى أقدم هذه الأشكال استنادا الى قواعد ثابتة في التطور الصوتى · هذه التحليلات سوف توصلنا الى أقدم الأشكال التى تدعمها الشواهد ، وهذا كله يعيننا على تركيب صيغة افتراضية صوتا بصوت ، وتسمى هذه الصيغة هندية ـ أوربية ويشار اليها بنجمة صغيرة تمييزا لها

---

(١) Robins, A short history of Linguistics p. p. 176, 177

(٢) أنظر تاريخ علم اللغة ص ١٩٩ ، ٢٠٠ و
Robins, A short history of Linguistics p. 178, 181

(٣) تاريخ علم اللغة ص ٢٠٠ ، ٢٠١ ·

عن الصيغ الأخرى المعروفة · فيقال مثلا : ان الصيغة الهندية الأوربية akwa - s (وهى صيغة مفترضة ناتجة عن عمليات التحليل والمقارنة التى لخصناها آنفا) هى الأصل الذى تحولت عنه الصيغة اللاتينية equus ··· الخ ·

وقد ذهب (شلايشر) الى أبعد من ذلك حين اعتقد أن هذه الصيغة التى افترضها فرضا واختلقها اختلاقا قد وجدت فعلا في فترة من فترات التطور ، وعلى هذا الأساس أعاد انشاء قصة خرافية بكاملها هى قصة (النعجة والخيل) بالهندية الأوربية المشتركة ·

ولا شك أن هذه الصيغ التى أعاد (شلايشر) بناءها وفقا لقوانين التطور الصوتى ما هى الا صيغ ناتجة عن فروض ومعادلات وليس لدينا من دليل على أنها قد وجدت يوما(١) ·

أثر الداروينية في أعمال شلايشر :

سيطرت نظرية « داروين » التى أوضحها في كتابه « أصل الأنواع » سيطرة بالغة على مناحى التفكير في النصف الثانى من القرن التاسع عشر ·

وقد كان (شلايشر) يعد نفسه عالما طبيعيا يعمل في مجال اللغة ، وكان يرى أن اللغة جهاز عضوى ينبغى أن تدرس وفقا لمناهج العلوم الطبيعية ، واللغة بهذا الاعتبار (اعتبار أنها جهاز عضوى) قابلة للتطور تنمو وتتطور ثم تنحل وتموت كأى كائن عضوى حى · وهكذا تتلاقى نظرية (شلايشر) اللغوية التى أعلنها في كتابه « مذهب دارون وعلم اللغة » بنظرية (دارون) ·

ويلخص (مونين) فكرة (شلايشر) قائلا : اللغة جهاز عضوى أى أنها ليست ظاهرة اجتماعية ، بل هى حادث من حوادث الطبيعة أو جهاز عضوى طبيعى ، ومن ثم لا يكون علم اللغة علما انسانيا انما هو علم طبيعى ، وعلوم الانسان ـ كما يقول (هيجل) الذى تأثر به (شلايشر) ـ هى ميدان الحرية ،

---

(١) مونين تاريخ علم اللغة ص ٢٠٠ ـ ٢٠٢ ·

في حين أن علوم الطبيعة هى ميدان الضرورة والتقييد ، ومن ثم كان علم اللغة خاضعا لقوانين حتمية تساعد علم الصوت على انشاء اللغات البائدة ، وعلى هذا النحو شعر (شلايشر) شعورا واضحا بضرورة فصل الدراسة الانسانية القديمة المسماه بفقه اللغة عن الدراسة اللغوية الجديدة التى كان يريد أن يطلق عليها اسم علوم الحنجرة»(١) ٠

وقد صنف (شلايشر) اللغات ووضعها في مجموعات كل مجموعة منها تمثل عائلة لغوية ، هذه العائلات تفرعت من أصل قديم لم يعد له وجود ، وقد بينا سابقا أنه قد حدد الأسس ووضع الطرق التى تيسر لنا بناء هذا الأصل ، وقد بينا أيضا أن اللغة تتطور وتمر في مراحل : النمو والتطور والانحلال ، وفي أثناء مرور اللغة بهذه المراحل تتغير بنيتها وفقا للمراحل الآتية : مرحلة الانفصال واللصق والاشتقاق ٠

ويزعم (شلايشر) أن كل لغات البشر تمر بهذه المراحل التطورية المتعاقبة ، وحين تبلغ المرحلة الأخيرة وهى ـ عنده ـ غاية النضج والكمال يحين أجلها فيقضى عليها ٠

وقد تعرضت هذه الآراء لنقد شديد ومن ذلك :

١ ـ ليس في لغات البشر ما هو لصقى تماما أو اشتقاقى تماما ، فاللصق أو الاشتقاق مسلكان لغويان أو طريقان من طرق الصياغة وليسا مرحلتين في تطور اللغة ، ومن ثم لا يتعارضان فثمة لغات اشتقاقية تستخدم اللصق ، ولغات لصقية تستخدم الاشتقاق ٠

٢ ـ الزعم بأن اللغات الأم لغات كانت موجودة بالفعل ـ زعم لا دليل عليه ، وليست اللغات الأم غير ألفاظ ونظم افتراضية تفسر العلاقة القائمة بين عدد من اللغات المتشابهة التى تنتمى الى عائلة لغوية واحدة ٠

---

(١) تاريخ علم اللغة ص ٢٠٢ ٠

٣ - اقتصر (شلايشر) على طرق بناء الكلمات ، وليس ذلك فحسب ما يميز لغة أو عائلة لغوية عن سواها فثمة خصائص صوتية ونحوية ينبغى أن توضع في الاعتبار عند المقارنة ٠

٤ - نسب (شلايشر) الى اللغات ما ينسب الى الكائنات العضوية ، فهى تحيا وتنمو وتتطور وتموت ، بل انها تتصارع ليذهب الضعيف ، ويبقى الأقوى ، وليس هذا صحيحا بحال ، فاللغات لا تموت بالمعنى البيولوجى ، بل ان اللغة قد تهجر وتبقى آثارها ، وقد تعود الى الاستعمال مرة أخرى ، واللغات لا تتصارع ، وكل ما في الأمر أن أفراد الجماعة اللغوية يميلون الى نمط لغوى دون نمط ، وقد يتركون لغة ويستخدمون لغة أخرى(١) ٠

ومع أن آراء (شلايشر) قد عفا عليها الزمن وتجاوزها العلماء فقد أتاحت للغويين الذين جاءوا بعده أن يصلوا الى نتائج أكثر دقة ، وأن يتجنبوا ما وقع فيه من أخطاء ، وبقى له كذلك أنه حاول أن يجعل من علم اللغة علما بالمعنى السائد في عصره ، وسوف يكون ذلك هدفا من أهداف اللغويين وان كان المعنى سيختلف كثيرا عما عناه ٠

النحويون الشبان (المجدد) :

هم جماعة من اللغويين التفوا حول أحد العلماء البارزين في (لايبزغ) عام ١٨٧٦م وهو (كورتيوس)وكان لهم اهتمام ببعض الموضوعات المقارنة ، ومن أبرزهم (بروكمان) و (استهوف) ، ولكنهم ما لبثوا أن اختلفوا مع أستاذهم وأصدروا مجلة لغوية تعبر عن مواقفهم المعارضة لكثير من أفكار معاصريهم ، وقد أثاروا هؤلاء بتعريضهم بعلم اللغة القديم الذى يمثلونه وبدعوتهم الى علم اللغة الجديد الذى يبشرون به ، ولم يسكت خصومهم بل أخذوا في التدليل على أن أفكارهم ليست مبتكرة وأنها كانت عند (جريم) وغيره (٢) ٠

---

(١) أنظر أيوب (د٠ عبد الرحمن) اللغة والتطور ص ٤٢ ، ٤٣ ٠

(٢) مونين : تاريخ علم اللغة ص ٢٠٩ ، ٢١٠ ٠

وبغض النظر عن المهاترات التى أثارها هؤلاء الشبان فقد كان تأثيرهم في مسيرة علم اللغة بالغا فـ (روبنز) مثلا يرى أن ظهور هؤلاء اللغويين كان حدثا هاما ومثيرا تمخض عنه ردود أفعال ملحوظة ومباشرة ، وظهر في أعقابه عدد من الاتجاهات في البحث والتفكير كاستجابة مباشرة لما قالوه · ان نظريتنا اللغوية في معظمها وبخاصة نظريتنا في علم اللغة التاريخى ما كانت لتحمل شكلها الحالى لو لم تعتمد اعتمادا على النحويين الجدد(١) ·

ويلاحظ (مونين) أن علم اللغة في صورته التى تبلورت قبل بداية الربع الأخير من القرن التاسع عشر كان يحمل كثيرا من التناقضات ، ويمثل على ذلك : بالمقارنات التى تعتمد على البراهين ، وبالأهمية الكبرى التى منحت للغة السنسكريتية ، وبالأفكار المتسرعة التى أعلنها (شلايشر) في التطور اللغوى · هذه كلها دفعت هؤلاء الباحثين الى انشاء علم لغوى جديد أكثر دقة وعلمية(٢) ·

لقد كان (جريم) و معاصروه واقعين تحت تأثير الرومانسية ، وقد ظهرت أعمال (شلايشر) في اطار الداروينية ، أما النحويون الجدد فقد رغبوا في أن يجعلوا من علم اللغةالتاريخى علما دقيقا له مناهج العلوم الطبيعية ، تلك العلوم التى حققت تقدما واضحا في القرن التاسع عشر ، وقد تمسك علماء هذا القرن بقوة بعمومية القوانين وبادراك الظواهر ادراكا واقعيا وبنظرتهم الواعية الى النظام والتناسق في العالم(٣) ·

وفي هذا الاطار نفسه كتب (أوستهوف) عن قوانين صوتية ناشئة عن الضرورة البحتة قوانين مستقلة عن ارادة الأفراد · وليس معنى هذا أن اللغة لها حياتها المستقلة بل هى ـ كما يقرر ـ ذات وجود لدى الأفراد الذين يؤلفون

---

(١) Robius, A short history of Linguistics p. 182

(٢) أنظر : تاريخ علم اللغة ص ٢١١ ، ٢١٢ ·

(٣) Robins, A short history of Linguistics, p. 184

جماعـة لغوية ، والتغيرات اللغوية ما هى الا تغيرات في العـادات اللغوية للأفراد (١) ٠

وفي ضوء فهمهم للقوانين الصوتية الصارمة فسروا بعض المستثنيات التى خرجت على قانون (جريم) واكتشفوا أن مكان النبر هو العامل المؤثر في تحول (T) في السنسكريتية في الكلمة Pitar الى (d) في القوطية (٢)

وثمة عاملان آخران أدرك النحويون الشبان أثرهما البعيد في تفسير المستثنيات في قواعد التغير الصوتى هما الاقتراض والقياس ٠

أما الاقتراض فمن المعروف أن الكلمات المقترضة ربما لا تخضع للتغيرات التى تلحق الكلمات الأصلية فربما اقترضت بعد تحقق التغير فتبقى وكأنها استثناء القاعدة ٠

والقياس من أهم العوامل في تطور اللغات فقد تبين للغويين أن هذا التطور كثيرا ما يتأثر بالاتجاه الى خلق أشكال جديدة مقيسة على نمط أشكال سابقة أكثر شيوعا أو اطرادا في بنية اللغة ٠ وربما تجد أشكالا مخالفة غير صحيحة تبدو وكأنها استثناء على القواعد كما يفعل الأطفال الانجليز مثلا حين يقولون goed قياسا على Played (٣) ٠

وقد قاوم (بروكمان) النظرية الشائعة التى تعتبر الهندية الأوربية بداية مطلقة يتعذر مسها ولا تخضع لقوانين اللغة ، ورأى أنها لا تعدو أن تكون فترة من فترات التطور ونبه اللغويين الى أن انصرافهم الى البحث عن اللغة الأصلية قد جعلهم يغفلون عن التطورات اللغوية الحديثة التى نظروا اليها نظرة ازدراء وكأنها فترات من التحلل والانحطاط ، ثم يقرر أنه لكى نكون نظرية عامة في

---

(١) Robins, A short history of Linguistics, p. 184

(٢) Lyons, Introduction to Theoretical Linguistics p. 29

(٣) Lyons, Introduction to Theoretical Linguistics p. p. 30, 31

التطور اللغوى ينبغى أن تدرس الأشكال اللغوية على أساس تطورات لغوية يمكن أن نتتبع مقدماتها اعتمادا على وثائق تمتد على فترة أطول من الزمن ، وتكون بدايتها معروفة لنا معرفة مباشرة(١) ٠

ثم يعلن في معارضة صريحة لنظرية (شلايشر) أتمنى على كل لغوى أن يحزم أمره ويمتنع عن استخدام تلك التعابير الضارة مثل « شباب اللغة » أو « شيخوختها » التى لم ينجم عنها الا الأذى في أيامنا وقليل جدا من الفائدة(٢) ٠

وقد كان موقفهم هذا من العوامل التى أدت الى ازدهار البحث في حقلين لغويين هامين هما : حقل الأصوات واللهجات ٠

لقد تلقى علم الأصوات دفعة قوية حين وجه النحويون الجدد الأنظار الى دراسة اللغات الحية ، وحين أدركوا أن الحروف في اللغات الميتة لا تكفى في تقديم معلومات صحيحة عن نطقها الفعلى ٠

أما اللهجات المنطوقة في أوربا فقد توجهت اليها جهود اللغويين منذ الحركة الرومانسية التى كانت تقدس كل شيء له علاقة بالشعب ، ولكن النحويين الجدد جعلوا من دراستها مجالا حيويا للدراسة العلمية في ضوء ما وصلوا اليه في شأن التطور اللغوى منذ مثلوا له بالمرحلة الأخيرة من تصنيف العائلة الهندية الأوربية ٠

وقد بدأ ظهور البحوث والتقارير اللهجية ونشر الأطالس اللغوية في هذا العصر مع أن بعض خصوم مذهب النحويين الجدد كانوا من بين علماء اللهجات(٣) ٠

(١، ٢) مونين تاريخ علم اللغة ص ٢١٦ ، ٢١٧ ٠

(٣) See, Robins, A short history of Linguistics, 186

خامسا : علم اللغة الحديث « القرن العشرون »

١ - دى سوسير (١٨٧٥ - ١٩١٣)

علم اللغة وعلم الاجتماع :

لقد تبين لنا من العرض الموجز لتاريخ علم اللغة في القرن التاسع عشر أن اللغويين كانوا حريصين على أن يجعلوا من دراسة اللغة عملا علميا دقيقا باستخدام المناهج والوسائل التى استخدمتها العلوم في ذلك الوقت ، رأينا (شلايشر) يضع نظريته في التطور اللغوى وفق الأفكار التى بشر بها (دارون) في كتابه (أصل الأنواع) ورأيناه يصنف اللغات وفقا للتصنيف الذى وضعه علماء النبات والحيوان ، ورأيناالنحويين الشبان يريدون أن تكون القاعدة في التطور اللغوى كالقاعدة في العلوم الطبيعية قاعدة عامة تشمل جميع الأفراد ولا تعرف الاستثناء ٠

وهكذا بدا لنا أن البحث في اللغة قد عكس الأفكار السائدة في هذا العصر وقد استفاد منهاوتأثر بها ٠ وهكذا كان الأمر حين اطلع (دى سوسير) على أعمال (دوركايم) عالم الاجتماع الفرنسى ، لقد اهتدى بها في وضع أسس الدراسة العلمية للغة في مطلع القرن العشرين ٠

كان علم الاجتماع قد بدأ يجد طريقه الى الاستقلال عن العلوم الانسانية فأعلن (دوركايم) في مستهل هذا القرن أن علم الاجتماع ليس تابعا لعلم النفس بل هو علم قائم بذاته ، لأنه يدرس طائفة من الظواهر لا يشركه فيها علم آخر ، يدرسها بمنهج يختلف عما ألفه الناس في معالجته الشئون الاجتماعية ٠

وقد وضع (دوركايم) الأسس النظرية لهذا العلم وحدد الخطوات والقواعد التى ينبغى اتخاذها لدراســـة موضــوعاته في كتابه « قواعد المنهج في علم الاجتماع » الذى ترجمه الى العربية الأستاذ الدكتور محمود قاسم رحمه الله ٠

كان (دوركايم) يريد أن تكون دراسة الظواهر الاجتماعية دراسة علمية ،

ولكى تكون كذلك لابد من تحديد مجالها تحديدا واضحا ، وكان طريقه الى ذلك أن يعرف الظاهرة الاجتماعية موضوع هذا العلم ٠

كانت أهم القضايا التى أعلنها (دوركايم) وأثارت اعتراضات معاصريه أنه قال بوجوب دراسة الظواهر على أنها أشياء ، فقد اعتقد هولاء أنه يريد أن يشبه حقائق العالم الاجتماعى بحقائق العالم الخارجى ٠

وقد رد (دوركايم) على معارضيـــه وقرر أنه لا يقـول بأن الظواهر الاجتماعية أشياء مادية ، ولكنه يقول بأنها جديرة بأن توصف بأنها أشياء كالظواهر الطبيعية ٠

ثم يعرف (الشىء) بقوله : ان الشىء يقابل الفكرة بمعنى أن معرفتنا له تأتى من الخارج على حين أن معرفتنا بالفكرة تأتى من الداخل ، والشىء هو كل ما يصلح أن يكون مادة للمعرفة ولكن بشرط ألا تسمح له طبيعته بأن يندمج في العقل الذى يدركه ٠٠٠ وليس معنى أننا نعالج طائفة خاصة من الظواهر على أنها (أشياء) هو أننا ندخل هذه الظواهر في طائفة خاصة من الكائنات الطبيعية ، بل معنى هذا أننا نسلك حيالها مسلكا عقليا خاصا ، أى أننا نأخذ فيدراستها ونحن متمسكون بأننا نجهل كل شىء عن حقيقتها وأننا لا نستطيع الكشف عن خواصها الذاتية أو عن الأسباب المجهولة التى تخضع لها عن طريق الملاحظة الداخلية مهما بلغت هذه الطريقة مبلغا كبيرا من الدقة (١) ٠

وبعد أن أوضح (دوركايم) ما يعنيه من أن الظواهر الاجتماعية أشياء يقدم لنا أمثلة لها فالانفاق على الأبناء وتربيتهم ، وانجاز الوعود وغيرها من الواجبات التى يحددها الدين أو العرف أو القانون ظواهر اجتماعية ، وهى تتحدد بمجموعة من الخصائص :

ـ فهى واجبات خارجية يحددها الدين أو العرف أو القانون على الرغم

---

(١) دوركايم (اميل) قواعد المنهج في علم الاجتماع ص ٢٣ ، ٢٤ ٠

من أن القيام بها ربما لايتعارض مع عواطف الفرد وقد يشعر بها شعورا داخليا (وكأنه منطلق من ذاته) · ان الفرد في الحقيقة لم يلزم نفسه بها ، وانما ألزمته قوة خارجة عنه ·

- وهذه الواجبات سابقة على وجود الفرد أى أنها تامة التكوين قبل أن يصبح الفرد عضوا فيالمجتمع الذى يلقنها اياه ، فالمجتمع يباشر قهرا على أفراده لكى يتمسكوا بها ، ولو حاول الفرد الخروج عليها لوجد معارضة قوية تعمل على اعادته الى حظيرته ·

يقرر (دوركايم) أن الظواهر الاجتماعية ضروب من السلوك والشعور التى تمتاز بخاصة يمكن ملاحظتها بسهولة ، وهى أنها توجد خارج شعور الأفراد ··· بل انها تمتاز بقوة آمرة قاهرة هى السبب في أنها تستطيع أن تفرض نفسها على الفرد أراد أم لم يرد ، حقا انه لا يشعر به حين يستسلم له بمحض اختياره ، وذلك لأن الشعور بالقهر في مثل هذه الحال ليس مجديا ··· ويدل على ذلك أن هـذا القهر يؤكد وجوده بقوة متى حاول مقابلتـه بالمقاومة ··· ان شعور الجماعة يحول دون تحقق أى فعل يتصدى لمهاجمة قواعده الخلقية ، وذلك لأن هذا الشعور يعتمد على نوع من الرقابة التى يباشرها على سلوك المواطنين ويستعين على ذلك ببعض العقوبات · وقد يبدو أننا غير مكرهين مثلا على استخدام اللغة القومية للتفاهم بها مع مواطنينا ، ولكن الواقع أننا لا نستطيع الا فعل ذلك ، ولو فعلنا لباءت محاولتنا بالفشل ولتعرضنا لنتائج لا تحمد عقباها(١) ·

ثم يقرر أن الغالبية العظمى من آرائنا وميولنا ليست من صنعنا ، وانما تأتينا من الخارج ، ولذا فليس من الممكن أن تصبح هذه الأمور جزءا من شعورنا الخارجى الا اذا فرضت علينا فرضا(٢) ·

- ومن الواضح أيضا أن الانفاق على الأبناء أو غيره من الواجبات

---

(١) دوركايم (اميل) قواعد المنهج في علم الاجتماع ص ٥١ - ٥٣ ·

(٢) قواعد المنهج ص ٥٤ ·

الاجتماعية ظاهرة عامة يشترك في التمسك بها معظم أفراد المجتمع على الأقل بيد أن عموم الظاهرة الاجتماعية له معناه الخاص عند (دوركايم) : فالظاهرة الاجتماعية عامة لأنها اجتماعية ، لا أنها اجتماعية لأنها عامة أى أن الظاهرة موجودة لدى أفراد المجتمع لأنها موجودة في الكل المركب الذى هو مجموع هؤلاء الأفراد وهو المجتمع (١) .

- والخاصة الأخيرة للظاهرة الاجتماعية هى أنها تختلف عن تجسداتها الفردية ، فالانفاق على الأبنـاء مثلا ظاهرة من ظواهر المجتمع برمته وان اتخذت أشكالا أو صورا أو انعكاسات مختلفة عند كل فرد من أفراد المجتمع . وعالم الاجتماع انما يدرس الظاهرة في شكلها العام لا في صورها أو تجسداتها الفردية (٢) .

وبعد أن استبانت لنا الخصائص التى تميز الظواهر الاجتماعية عن غيرها من الظواهر نضع التعريف الذى انتهى اليه (دوركايم) يقول :

«ان الظاهرة الاجتماعية هى كل ضرب من السلوك ثابتا كان أم غير ثابت يمكن أن يباشر نوعا من القهر الخارجى على الأفراد ، أو هى كل سلوك يعم المجتمع بأسره وكان ذا وجود خاص مستقل عن الصور التى يتشكل بها في الحالات الفردية » (٣) .

دى ســوسير :

لقد تبين لنا مما سبق أن الواجبات الاجتماعية (كالانفاق على الأبناء وتربيتهم ورعاية الآباء .. الخ) واجبات يحددها الدين أو العرف أو القانون هذه الواجبات ظواهر اجتماعية ، لأنها وقائع موضوعية ذات وجود خارج شعور الأفراد ، فليست هذه الظواهر من صنع الفرد بل يتلقاها من المجتمع

---

(١) قواعد المنهج ص ٦٢ .

(٢) قواعد المنهج في علم الاجتماع ص ٥٨ ، ٥٩ .

(٣) قواعد المنهج في علم الاجتماع ص ٦٧ ، ٦٨ .

الذى نشأ فيه ، ولا يمكن ان يقال انها وليدة تفكير ذاتى بل يفرضها عليه المجتمع فرضا ، وان كان الفرد في كثير من الأحيان لا يشعر بهذا الالزام ، لأنه يستجيب له بحكم العادة ٠

واذا كانت هذه الظواهر موضوعية أى ذات وجود خارج عن شعور الأفراد فدراستها دراسة علمية يمكن أن تتحقق تحققا كاملا مثلما يتحقق لعالم الطبيعة أن يدرس الظواهر الطبيعية دراسة علمية ٠

لقد كان (دى سوسير) يريد أن يجعلمن دراسة اللغة عملا علميا ، وقد رأى ضالته في تلك التى أعلنها (دوركايم) وحددبها موضوع علم الاجتماع وحدد بها القواعد التى ينبغى اتباعها في دراسة الظواهر الاجتماعية ٠

فاللغة ـ عند دى سوسير ـ ظاهرة اجتماعية يمكن النظر اليها على أنها شىء منفصل عن صور استخدام الأفراد لها ، ونحن نكتسب اللغة من أفراد المجتمع المحيطين بنا ، وهم يلقنوننا اياها ، ونحن نتعلمها منهم ، وليست ـ بهذا الاعتبار ـ من انتاجنا ٠

واللغة ظاهرة عامة في مجتمع معين ، وهذا المجتمع يفرضها على أعضائه فرضا ، فليس لديهم اختيار في اكتسابها ولا يملكون بديلا عنها ، والمجتمع يفرضها في مجالات مختلفة ، حين يكتسبها الطفل في البيت ، أو حين يتعلمها في المدرسة ، وان كان لا يتنبه الى أنها مفروضة عليه من المجتمع الذى ينتسب اليه ٠

واللغة ظاهرة اجتماعية يمكن أن تدرس دراسة علمية ويتحقق هذا عندما ندرسها مستقلة عن مظاهرها أو تحققاتها الفردية ٠ وهذا ما فعله (دى سوسير) بفضل تفرقته المشهورة بين اللسان واللغة والكلام ٠

اللسان واللغة والكلام :

هذه هى الثلاثة المصطلحات التى تمثل الحدود التى ينبغى الوقوف عندها حين نريد تعريف الظاهرة اللغوية التى هى موضوع علم اللغة ·

فالكلام أو La parol : كل ما يلفظه أفراد المجتمع المعين أى ما يختارونه من مفردات أو تراكيب ذ اتجة عما تقوم به أعضاء النطق حركات مطلوبة ·

والكلام بهذا الاعتبار لا يمكن أن يكون ظاهرة اجتماعية :لأنه انتاج فردى شعورى تماما ، بينما الظاهرة الاجتماعية ينبغى أن تكون عامة في مجتمع يمارس الزاما على أفراده ، وليست الظاهرة الاجتماعية عملا فرديا حرا(١) ·

أما اللغة La Langue فهى نظام ينتقل من جيل الى جيل ، نظام من رموز وصيغ وقواعد ليس لها تحقق فعلى ·

أما اللسان La Language فظاهرة عامة تتمثل في العنصرين السابقين (اللغة والكلام) مجتمعين · ولهذا لا يعده (دى سوسير) ظاهرة اجتماعية خالصة ، اذ هى تشمل الجانبين معا : الجانب الفردى (الكلام) : والجانب الاجتماعى (اللغة) ·

فاذا ما استبعدنا العناصر الفردية من (اللسان) بقيت لنا العناصر الاجتماعية أى (اللغة) ومن تعريفات (دى سوسير) أن اللغة هى اللسان بعد أن نطرح منه الكلام ·

ومن الواضح أن المجتمع حين يخضعنا لقواعد اللغة ييسر لنا عنصر التفاهم المشترك · فنحن نفهم ما يقوله أفراد مجتمعنا وهم يفهمون ما نقوله لهم ، وهذا هو الجانب الاجتماعى في اللغة ، لقد تم هذا التفاهم حين تحقق الالتزام بالعرف اللغوى للجماعة أو بعبارة أخرى حين التزمنا بالقواعد التى يفرضها العـرف ·

---

(١) Dinneen, An Introduction to general Linguistics, p. 196

وربما لا ندرك في كثير من الأحيان تلك القيود المفروضة علينا ، ولكننا في بعض المواقف نتنبه اليها حين يعترض علينا بعبارة أو جملة مخالفة للقواعد ٠

وربما كان الالزام أكثر وضوحا عند الأطفال حين يتعلمون لغتهم أو حين يترددون في استخدام كلمة أو عبارة أو جملة لأنهم لا يعرفون وجه الصواب ٠

واللغة عند (دى سوسير) كالعقل الجمعى عند (دوركايم) ليست موجودة بشكل كامل وتام عند أى فرد ٠ أى أن كل فرد من أفراد الجماعة اللغوية يحاول أن يأتى كلامه موافقا لها ، ولكنه لا يمكن أن يحققها تحققا كاملا ٠ ومن ثم يتفاوت هؤلاء الأفراد في مراعاة قواعدها ٠

ومن الواضح أن اللغة ـ بهذه الاعتبارات ـ تجريد وهذا واضح فالكلمات ما هى الا رموز تلخص الموجودات ، وعملية التلخيص هذه عملية تعميم أى أن الانسان يجرد الشيء من مشخصاته ويخص بالاهتمام بعض صفاته ويغفل صفات أخرى وذلك لأن الانسان لا يستطيع أن يحيط بالواقع كله ٠ فالكلمة (قلم)رمز لشيء محدد على الرغم مما نلاحظه من فروق بين أفراد (القلم) في الواقع الخارجى ٠

ولعل هذا هو ما جعل (اللغة) لا (الكلام) هى موضوع علم اللغة ،لأن الكلام يتحقق في صور لا حصر لها ٠ وليس ثمة علم يمكن أن يدرس هذه الصور في الواقع فالمفردات والعبارات والجمل (في أية لغة) لا حصر لها ولا سبيل الى دراستها ، أما الطرق التى تبنى بها المفردات أو العبارات أو الجمل فتقع تحت الحصر ويمكن دراستها ، ولهذا كان موضوع الدراسة العلمية للغة النماذج التى يأتى الكلام مطابقا لها ٠

كان + اسم مرفوع + اسم منصوب

فالشكل السابق نموذج أما الشكل

كان المطر غزيرا

فجملة تأتى مطابقة للنموذج السابق ، وفي الامكان أن نأتى بعدد لا حصر له من أمثالها · أى أن النموذج واحد ، والجمل لا حصر لها ، ونحن ينبغى أن ندرس النماذج لا الجمل ·

أضف الى ذلك أن الجمل السابقة حين ينطقها عدد من الأفراد يتحقق في الواقع عدد من المنطوقات المختلفة يماثل عدد الأفراد الذين ينطقونها · ولا سبيل الى دراسة هذه الصور الفردية ·

وقد لخص (دينين) أهم الفروق التى تميز الكلام عن اللغة على النحو الآتى :

١ ـ الكلام نشاط فردى (أحداث فردية) متنوع مختلط مبتكر ، ولا يمكن أن تتحقق وحدة للكلام ، ومن ثم لا يصلح للدراسة العلمية ·

٢ ـ لكى ندرس شيئا ما دراسة علمية ينبغى أن يتوفر لدينا موضوع محدد حتى نستطيع اجراء احصاء بأجزائه واجراء تحليل لها ، وقد رأينا أن الكلام نشاط يقوم به الفرد ، وهذا معناه أنه نشاط غير محدود ، ولا يمكن ـ والحال كذلك ـ وصفه الا اذا كان هذا الوصف أيضا بغير حدود ·

٣ ـ ليس الكلام وسيلة جمعية ، فكل صوره وتجسداته فردية غير متجانسة حالية (منسوبة الى لحظة الكلام) انه فحسب مجموع أحداث فردية يمكن أن يعبر عنه بالشكل البيانى الآتى :

$$(\text{١} + \text{١}^{\text{١}} + \text{١}^{\text{١١}} + \text{١}^{\text{١١١}} \ldots)$$

٤ ـ أما اللغة فنموذج جمعى ، انها الأداة المشتركة بين كل المتكلمين ، وعلى هذا يمكن أن يعبر عنها بالشكل البيانى الآتى :

$$\text{١} = (\text{١} + \text{١} + \text{١} + \text{١} + \text{٠٠})$$

٥ ـ اللغة موجودة في شكل يتألف من مجموعة من الصور اللفظية المختزنة في عقول جميع الأفراد ، انها أشبه بمجموعة متماثلة من المعاجم موزعة على كل فرد ، ومع أنها موجودة لدى كل فرد فهى كذلك مشتركة بين جميع الأفراد ، وليس لرغبات الأفراد أى تأثير فيها ·

٦ ـ اللغة نتاج جمعى لملكة اللغة وهى كذلك مجموعة موحدة من العادات والأعراف التى تتبناها هيئة اجتماعية (جماعة معينة) تسمح باستخدام تلك الملكة ٠

٧ ـ اللغـــة علامة مختزنة يتلقـاها كل فرد من الأفراد الآخرين الذين يستخدمون اللغة نفسها في المجتمع المعين ، وعلى هذا فهى موجودة بالقوة (أى كامنة) على حين أن الكلام موجود بالفعل (أى حادث) ٠

٨ ـ اللغة مجموعة من العـادات والتقاليد نتلقاها جاهزة من الجيـل السـابق لنا ، ويبدو أن اللغـة تتعرض لتغيرات طفيفة جدا حتى اننا عنـد الدراسة نتجاهلها ونعدها وكأنها غير موجودة ، على حين يتعرض الكلام لتغيرات لا تنتهى ولا يمكن تجاهلها (١) ٠

لقد كان (دى سوسير)يريد أن تدرس اللغة دراسة علمية ، وقد أعانته التفرقة السابقة على أن يحدد ما يمكن دراسته وما لا يمكن ٠

فاللغة ـ لا الكلام ـ هى التى يمكن أن تدرس لأنها طائفة من العلامات اللغوية المتفق عليها ، وطائفة من القواعد التى تنتظم هذه العلامات ٠ فنحن حين ندرس اذا سوف ندرس نماذج وقواعد لا منطوقات ٠ النموذج ثابت مع مرور الوقت ثابت في شعور الأفراد ، وان تغير تغير ببطء شديد بحيث يمكننا الزعم بأنه ثابت ونقوم بالدراسة على هذا الاعتبار ، ولقد قدم (دى سوسير) مثالا واضحا لهذه الدراسة التى لا تقوم على أساس الصور المنطوقة هو الأعمال العظيمة التى توفرت على دراسة اللغات الميتة ٠

الدراسات المتعاصرة والدراسات المتعاقبة للغة :

لقد كان النحويون الشبان يزعمون أن الدراسة العلمية للغة هى الدراسة التاريخية وحدها ٠ وقد عارض (دى سوسير) هذا الزعم ورأى أنهم بالغوا في الاعتماد على دراسة اللغة عبر الزمن حتى كادوا يهملون دراسة اللغات

---

(١) Dinneen, An Introduction to general Linguistics, p. p. 198, 199

في أنظمتها المعاصرة ٠

ويلخص الدكتور عبد الرحمن أيوب مآخذ (دى سوسير) على النحو الآتى :

١ ـ اهمال دراسة اللغة من واقع نشاط المتكلمين المعاصرين ٠

٢ ـ ادخال العوامل التاريخية في أحكام تتصل باللغات المعاصرة ، فالتسلسل التاريخى للحقائق اللغوية لا وجود له من وجهة نظر المتكلم الذى يواجه وضعا لغويا ثابتا ، والباحث اللغوى يمكنه أن يدرس لغة متكلم ما مع تجاهل ماضيه اللغوى تماما ٠

٣ ـ أن البحوث المقارنة لم تقدم لنا الا مجموعة فروض لما كانت عليه اللغات المدروسة ومثل هذه البحوث ـ كانت لهذا السبب ـ عرضة للخلط والتشويش (١) ٠

وفي هذا الاطار يمتدح (دى سوسير) النحاة التقليديين الذين وصفوا اللغة وصفا خالصا ولم يخلطوا الحقائق اللغوية المعاصرة بحقائق أخرى ناشئة عن مرور الزمن ٠ وليس معنى ما سبق أنه يقول باغفال الدراسة التاريخية للغة ، بل انه يريد أن يحدد لكل منهج منهما المجال الذى يدرسه بوضوح ودقة ٠

فالدراسة المتعاقبة Diachronic للغة معينة معناها وصف تطورها التاريخى عبر الزمن ٠ فدراسة اللغة العربية تاريخيا ينبغى أن يعالج تطورها من أقدم مراحلها المعروفة المسجلة الى الوقت الحاضر أو بدراستها عبر مراحل مختارة أكثر تحديدا ٠

فدراسة اللغة العربية بداية من عربية النقوش الى عربية العصر الجاهلى

---

(١) أيوب (د٠ عبد الرحمن) اللغة والتطور ص ٦٠ فضلنا هنا الالتزام بالمصطلحين اللذين اختارهما الدكتور أيوب المتعاصرة والمتعاقبة بدلا من الوصفية والتاريخية ٠

الى عربية صدر الاسلام ٠٠٠٠ الى الوقت الحاضر دراسة تاريخية ٠ وكذلك أيضا دراستها بين مرحلتين من هذه المراحل الكثيرة ٠

أما الدراسة المتعاصرة (Synchronic فمعناها وصف حالة خاصة لهذه اللغة في فترة محددة من الزمن ٠

فدراسة اللغة العربية في العصر الحاضر فحسب دراسة متعاصرة ٠ ومن المهم أن نبين أن الدراسة المتعاصرة لا تعنى فحسب دراسة اللغات الحية المعاصرة ٠ فدراسة اللغة الآشورية مثلا من خلال نصوص مسجلة في وقت محدد دراسة متعاصرة ، وان كانت مثل هذه الدراسة أقل دقة وكمالا من الدراسة التى تعتمد على لغة معاصرة يتحدث بها جماعة حية من الناس يسهل على الباحث الرجوع اليهم واستخلاص قواعدها من على ألسنتهم ٠

وعلماء اللغة المعاصرون يرون أن الاعتبارات التاريخية لا علاقة لها بدراسة اللغة في شكلها الخاص في مرحلة معاصرة ٠ فالكلمة (سيارة) مثلا كانت تعنى قديما عددا من الناس يقصد الى وجهة ما ٠ وهى تعنى الآن مركبة آلية تسير بالوقود وتنقل المسافرين والبضائع من مكان الى مكان ٠ وليس من الضرورى حين أدرس معنى هذه الكلمة في الجملة : ركبت سيارتى أن أقول انها كانت تعنى قديما كذا من المعنى ٠

الدراسة الوصفية والدراسة المعيارية :

من أهم ما يميز الدراسة اللغوية الحديثة تبنى النظرة الوصفية حيث تقوم الدراسة على وصف نظام اللغة المدروسة وصفا خالصا معتمدا على الملاحظة المباشرة دون اللجوء الى اصدار أحكام بالصواب أو الخطأ بالجمال أو القبح على النصوص المدروسة ٠

أما الدراسة المعيارية فتهدف الى وضع قواعد للغة قواعد من شأنها أن تحدد الصواب الذى ينبغى عليه الوصول اليه والخطأ الذى ينبغى الانتهاء عنه ٠ وغالبا ما يكون ذلك راجعا الى المكانة التى تحظى بها هذه اللغة عند الباحثين لسبب دينى أو سياسى أو اجتماعى ، ولكنه لا يكون أبدا بسبب

لغوى ، فاللغة من حيث هى أصوات لا تتضمن شيئا يجعلها صوابا أو خطأ ٠

وقد ألح (دى سوسير) على عدم الخلط بين هذين النوعين من الدراسة وهدف الدراسة الوصفية هو تحرى الحقيقة أما الدراسة المعيارية فهدفها وضع المعايير الضرورية لكى يكون الكلام صوابا ٠

الدراسة الوصفية هى دراسة الوحدات والعلاقات التى توجد في أحداث لغوية واقعية سواء كانت هذه العلاقات تاريخية أو متعاصرة ٠

والدراسة المعيارية دراسة ذات هدف عملى هو تدريب الناس على التزام طرق تعبيرية تعتبر صوابا وتجنب طرق أخرى تعد خطأ(١) ٠

العلامـة اللغوية :

نتبين مما سبق أن الدراسة العلمية للغة تدرس النماذج والقواعد التى ينبغى أن تأتى على وفاقها منطوقات الأفراد ، وأن الجماعة اللغوية هى التى تفرض على أفرادها أن يلتزموا بها ٠ وتبين لنا كذلك أن الدراسة التاريخية للغة ليست وحدها الدراسة العلمية ، بل رأينا أنها لا تكون علمية الا اذا اعتمدت على نتائج الدراسة المتعاصرة ٠

وقد أوضح (دى سوسير) أن اللغة هى هدف الدراسة اللغوية ، وبما أن اللغة علامات مختزنة في الذهن فالهدف من الدراسة اللغوية يكون اذا هو دراسة العلامة اللغوية ٠

وقد كان بعض اللغويين فهم من تعريف اللغة عند (دى سوسير) أنها قائمة من الألفاظ المعجمية ، وهذا ليس صحيحا لأن (دى سوسير) ينظر الى اللفظ نظرة ثنائية ، اذ له وجود مادى (منطوق مسموع) وله وجود عقلى (متخيل أو متصور) وهؤلاء يخلطون بين هذين الاعتبارين ٠

والعلامة عند (دى سوسير) لا توجد بين اسم وشىء وهى الفكرة السائدة

---

(١) أيوب (د٠ عبد الرحمن) اللغة والتطور ص ٧٠ ، ٧١ ٠

قبله بل توجد بين مفهوم وصورة سمعية (Acoustic imagc) انها صورة ذهنية ذات جانبين يوضحهما الشكل البيانى الآتى :

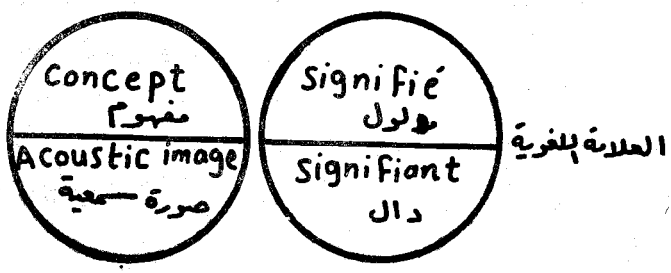

ولنأخذ المثال الآتى لتوضيح ما يعنيه (دى سوسير) بالعلامة اللغوية :

لنقل ـ بشكل عام ان الشكل (قلم) علامة لغوية تتألف من جانبين :

(أ) جانب مادى يتألف من شقين : ١ ـ الموجود الخارجى أو الشىء أى الأداة التى نكتب بها ٠ ٢ ـ اللفظ المنطوق بالفعل الذى يتألف من أصوات واقعيـــة ٠

(ب) جانب ذهنى يتألف من شقين : ١ ـ مفهوم أو صورة ذهنية للموجود الذى يشار اليه بلفظ قلم ٠ ٢ ـ صورة سمعية أى صورة اللفظ نفسه التى يمكن أن نتمثلها لو نظرنا الى كلمة (قلم) مكتوبة دون أن ننطق بها ٠

والعلامة اللغوية عند (دى سوسير) تستبعد الجانب المادى بشقيه فما هى الا صورة ذهنية مركبة من مدلول ودال ، وهاتان الصورتان الذهنيتان لا يمكن أن ينفصلا انهما كصفحة من الورق من المستحيل أن تقطع وجها منها دون أن تقطع الآخر (١) ٠

ونسأل الآن لماذا آثر (دى سوسير) أن يســتبعد من الدراســة اللغوية الجانب المادى للعلامة بشقيه ، وأن يستبقى للدراسة فحسب الجانب الذهنى بشقيـــه ؟

---

(١) Dinneen, An Introduction to general Linguistics, p. 202

لقد قلنا من قبل ان اللغة وهى موضوع الدراسة اللغوية العلمية ما هى الا رموز وأنظمة مختزنة في الذهن ٠

ان نظرة دى سوسير الى (الدال) باعتباره صورة ذهنية تجعلنا ندرس وحدات محدودة متميزة ، أما لو درسنا الشق المادى لهذه الصورة لتعرضنا لصور فردية غير محدودة ٠ خذ مثلا : الوحدة التى يطلق عليها في العربية (النون) لها في أسماعنا صورة ذهنية واحدة ، ولكن لها في الواقع المنطوق صورا فعلية تختلف باختلاف موقعها مما قبلها أو بعدها من وحدات أو لاعتبارات أخرى ولتنطق معى النون في الكلمات الآتية : أنياب ، أنفال ، عنبر ، انثاب ٠٠٠ الخ ٠

ومن الواضح أن الصور الذهنية يمكن أن تكتب ، وهذا ما فعلناه حين كتبنا الكلمات السابقة ، ولكن الصور الفعلية لهذه النون الذهنية (ان صح التعبير) لا سبيل الى كتابتها ٠

الصور الذهنية في لغة معينة ليست الا عددا محدودا من الوحدات أو الفونيمات يمكن استدعاوها فحسب بعدد مماثل من الرموز المكتوبة (١) ٠

ومن الواضح أن (دى سوسير) بهذا الفهم لطبيعة العلامة قد حاول أن يوجد في المستوى اللغوى نظيرا للظاهرة الاجتماعية في المستوى الاجتماعى ٠

فالظاهرة الاجتماعية ذات وجود مستقل عن تحققاتها الفردية التى لا يمكن اخضاعها للدراسة العلمية ٠ وكذلك الصورة الذهنية للدال Signifiant اعتبرها ذات وجود مستقل عن صورها المادية ذات الطابع الفردى ٠ ومن ثم فالأبجدية النموذجية هى التى تتألف من عدد من الرموز المكتوبة مماثل لعدد الصور الذهنية أو الوحدات المميزة المحددة في اللغة المعينة (٢) ٠

أما الشق الثانى الذهنى من العلامة أى (المدلول Concept)فهو صورة

---

(١) See, Dinneen, An Introduction to general Linguistics, p. 202

(٢) See, Dinneen, An Introduction to general Linguistics, p. 203

مجردة أكثر تجريدا من صورة الدال، وهى اعتبارات ذهنية أو قيم خلافية يعتمد عليها في تعريف (الدال) تعريفا واضحا يعزله عما عداه · فصورة (القلم) مثلا تعتمد على أسس عقلية معتبرة في الذهن كافية لتجعله مخالفا لصورة (الورقة) مثلا ·

ولعله قد اتضح الآن أننا حين ندرس أحد جانبى العلامة اللغوية : الدال Signi Fiant أو المدلول Signifie ندرس صورا مجردة للغة لا حقائق ذات وجود واقعى ·

العلامة عرفية :

لقد رأى (دى سوسير) أنه لا توجد علاقة مباشرة بين اللفظ والشىء الذى يشار اليه به · وهذا هو الرأى التقليدى الذى كان سائدا آنذاك ، ومع ذلك فقد أوضح أن الطبيعة **العرفية للعلامة** من نوع خاص فالاتفاق على استخدام لفظ معين للاشارة الى **شىء معين** ليس اتفاقا صريحا واضحا بل هو مجرد موقف يحظى بقبول الجماعة · وربما اعترض عليه ببعض الألفاظ التى بينها وبين مدلولها علاقة مباشرة وهى الألفاظ المعروفة Onomotapoea وقد تنبه (دى سوسير) الى هذا وقرر أنها ألفاظ قليلة لا أهمية لها ، ولا تمثل ظاهرة لغوية تفسد القاعدة العامة.(١)

العلامة ردفية (سطرية Linear **)**·

ونتبين هذه الصفة في (الدال Signifiant) حين يمكن تقسيمه الى أجزاء كل جزء منها في عقب جزء آخر في تتابع زمنى منتظم ·

فالكلمة (كتب) مثلا يمكن تقسيمها الى أجزاء متوالية على النحو الآتى :

ك + فتحة + ت + فتحة + ب + فتحة

(١) See, Dinneen, An Intcoductizn to general Linguistics, P. 203

٢ — بلومفيـــلد

لقد كان (بلومفيلد) من أكثر اللغويين اهتماما بجعل الدراسة اللغوية علما مستقلا بالمفهوم الاصطلاحى للعلم الذى كان سائدا في عام ١٩٣٠ حيث كان مجاله : الأشياء المادية وفي أثناء اعداد (بلومفيلد) الطبعة الثانية من كتابه « اللغة Language » كان المنهج المادى في علم النفس والذى يطلق عليه « السلوكيـة » قد تطور تطورا عظيما بفضـل « واطسـون » وقد اطلع (بلومفيلد) على انجازاته من خلال أعمال « فايز » ، وقد استفاد من خصائص هذا المنهج وعلى ضوئه وضع تعريفه للمعنى وحدد أسس دراسته · وقد كان (بلومفيلد) يهدف من الاستعانة بهذا المنهج أن يدرس موضوع المعنى دراسة علمية قائمة على أساس تجريبى ، وان كان (بلومفيلد) — كما يقول دينين — لم يكن لديه النية في أن يجعل علم اللغة معتمدا على علم آخر ، علم غير لغوى ، لقد كان يريدله أن يكون علما مستقلا ، ولا يتعارض مع هذا أن يتجه الى دراسة جانب من جوانب اللغة دراسة علمية (١) ·

ويقرر (دينين) أن السلوكية بالصيغة الضيقة التى وضعها (واطسون) قد ماتت ، لكن أعمال (بلومفيلـد) ما تزال تسهم بنصيب في بنـاء كثير من الأعمال اللغوية ، وما يزال كثير من اللغويين يستمدون منها أفكارا ووسائل وبخاصة في الولايات المتحدة ، وقد أعاد اللغويون النظر في بعضها وهجروا بعضها ، ومع ذلك فقد بقى كتابه « اللغة » من بين أعماله مثلا للنظرة العـامة الشاملة في حقل علم اللغة حتى لقد عرف بين اللغويين بانجيل علم اللغـة الأمريكى · لقد ظهرت أفكار كثيرة تعارضه ونظريات تحل محل نظرياته ، ولكن لا نجد كتابا واحدا قد أخذ مكانه(٢) ·

النظريـة السلوكيـــة :

لقد كان الاطار العام للسلوكيـة عند (واطسون) هو التوكيد على الفلسفة

See, Dinneen, An Introduction to general Linguistics, P. 204 (٢،١)

المادية والاهتمام بموضوعية علم النفس · وفي هذا يقول :

ان السلوكية علم طبيعى يتخذ ميدانا له كل السلوك والتكيف الانسانى الذى يدرسه بمناهج تجريبية ، محاولا التوفيق بين موضوع ضبط السلوك ومكتشفات هذا العلم ·· ان نجاح السلوكية في دراسة المشكلات الانسانية والظواهر النفسية سوف يؤدى بالفلسفة الى أن تختفى وتصبح تاريخا للعلم ، وسوف يفتح الطريق الى نوع من الأخلاق التجريبية ، وسوف يتخلص تدريجيا من التحليل النفسى ، وينمى بدلا منه نوعا من الضبط والسيطرة على نمو الطفل حتى يحول دون ظهور الأمراض العصابية في مستقبل الأيام (١) ·

لقد كان (واطسون) يهدف الى أن يكشف ما الذى يفعله شخص ما عندما يواجهه شيء أوموقف من المواقف ـ أو بعبارة أخرى عندما نشاهد شخصا يعمل عملا ما ـ وأن نكون قادرين على التنبؤ بالموقف الذى استدعى هذه الاستجابة ·

ونظرا لأن (واطسون) كان يريد أن يخضع السلوك الانسانى للدراسة العلمية التجريبية فقد عارض علماء التحليل النفسانى في عصره مثل (ماكدوجال) الذين يستندون في تحليلاتهم على فكرة لا يمكن التحقق منها أو الدفاع عنها هى فكرة (الروح) · لقد رأى أن هذه الفكرة ذات أصل دينى ، ويرجعها الى مرحلة بدائية من مراحل تطور المجتمع الانسانى · ان فكرة الروح وما ينبنى عليها ـ كما يعتقد (واطسون) ـ فكرة غير علمية ومرجع ذلك الى أنها لا تخضع للملاحظة المباشرة والتجربة ، فلا أحد يمكنه أبدا أن يلمس الروح أو يلاحظها في أنبوبة اختبار أو ينشيء علاقة معها ، كما يفعل مع الأشياء الأخرى الخاضعة للتجربة (٢) ·

وقد عارض (واطسون) كذلك علماء النفس الذين يقولون بوجود « الشعور » من أمثال (وندت) وقد رأى أن هذا المصطلح ليس الا صورة زائفة

---

(١) صالح (د· أحمد زكى) التعليم أسسه ونظرياته ص ٢٧٤ ، ٢٧٥ ·

(٢) See, Dinneen, An Introduction to general Linuistics, P. 241

لكلمة « الروح » · وقد كان هؤلاء العلماء يستخدمون في دراستهم « الاستبطان » للتعرف على المشاعر ، وقد رفض (واطسن)هذا المسلك ورأى أنه عديم الفائدة من الناحية العلمية ، اذ ليس لدينا عنصر خاضع للتجريد(١) ·

وقد اقترح (واطسن) أن يعالج العلماء أشياء يمكن ملاحظتها : ماذا تفعله الأعضاء أو ماذا تقوله ، فالكلام عنده ليس الا شكلا من أشكال السلوك ·

ويستوى ـ عند واطسن ـ في دراسة السلوك الانسانى أن ندرس السلوك الوراثى (ومثاله الاستجابة غير الشرطية) أو السلوك الذى نتلقاه من المجتمع (ومثاله الاستجابة الشرطية) وبدراسة المثيرات وما ينبنى عليها من استجابات يمكن أن نصل الى نتائج تصلح أساسا للتنبؤ بالسلوك الانسانى ، اذ من المستحيل ـ عنده ـ أن نعتمد في الدراسة على الاستبطان ، وبناء على هذا فموضوع الدراسة النفسانية هو المثيرات والاستجابات ·

وقد عرف المثير Stimulus بأنه : أى شىء في البيئة العامة ، أو أى تغير في الحالة النفسانية للحيوان ، كالتغير الذى نشاهده عندما نحرم الحيوان من النشاط الجنسى أو من العذاء أو من بناء بيت ـ هذا التغير الذى يقود الى شكل من أشكال السلوك ·

وعرف الاستجابة Respons بأنها نظام من النشاط العضوى نراه مؤكدا في أى نوع من النشاط · مثل بناء ناطحة سحاب ، رسم خريطة ، انجاب أطفال ، تأليف كتاب ·· الخ فهذه الأمور تكون نتيجة لبعض المثيرات ، وقد زعم (واطسن) أن مثيرا محددا ينبغى أن يستدعى كلا من هذه الاستجابات ، فاذا ما كان (١) نتيجة لـ (ا) وكان (ب) غالبا ما يرتبط بـ (ا) فان (ب) يمكن أن يستدعى (١) · وهذا هو بعينه الموقف النمطى المشروط عند (بافلوف) فالطعام يجعل لعاب الكلب يسيل (الطعام = ا) والجرس غالبا ما يدق عندما يقدم الطعام (الجرس = ب)فاذا ما دق الجرس (ب) سال لعاب الكلب (١) · فبامكان (ب) اذن أن يستدعى (١) وردود الأفعال كان يطلق عليها « التعليم »

---

(١) See, Dinneen, An Introduction to general Linguistics, P. 242

لكن (واطسن) فضل العبارة مثير - استجابة ، لأنها تخلصنا من الفرض القديم بوجود علاقة فطرية أو مقدسة بين شيء وشيء آخر ٠

وعند (واطسن) ترجع الاستجابات الاجتماعية - تماما ودون استثناء - الى مثيرات خارجية شرطية . ولا مجال هنا للشعور أو العقل أو الروح ، لأن (السلوكية) لم تجد دليلا علميا على وجود أى مذهب حيوى كالذى يزعمه ماكدوجال (أى مذهب يرى أن الحياة مستمدة من مبدأ حيوى وأنها لا تعتمد اعتمادا كليا على العمليات الطبيعية الكيميائية) ٠

ويرى (واطسن) أننا لسنا في حاجة الى الروح أو الشعور ٠٠ الخ لكى نشرح السلوك وكل ما في الأمر هو حاجتنا الى معرفة القواعد الطبيعية والكيميائية ، ومن هذا نتبين - وفقا لزعمه - أنه يدرس أشياء معروفة على حين يدرس هؤلاء أشياء غير معروفة (١) ٠

التفكير واللغة :

ما كان يطلق عليه - عند التقليديين - (التفكير) ما هو الا شكل من أشكال السلوك فالتفكير - عند (واطسن) - ليس الا الكلام ، ولكنه الكلام بحركات عضلية خفية (٢) وهنا يبرز سؤال ٠ هل يمكن أن نفكر دون ألفاظ؟ يرى (واطسن) أن التفكير ما هو الا عمل كل أجهزة الجسم تماما أى عمل النظام الحركى والنظام اللفظى المضمر والنظام الحشوى الظاهر (أى التغيرات التى تطرأ على أجهزة الجسم الداخلية مثل تقلصات المعدة وضربات القلب ٠٠ الخ) فاذا ما ساد النظام الأول والثالث قيل اننا نفكر دون ألفاظ ، ويعنى (واطسن) بالنظام الحشوى ما يطلق عليه التقليديون «العاطفى» وبناء على ذلك يمكننا أن نفكر بطريقة ما حتى وان لم يكن لدينا ألفاظ ، لأن التفكير

---

(١) See, Dinneen, An Introduction to general Linguiatics. P. 242

(٢) يقرر السلوكيون أن الكلام الداخلى أو التفكير عبارة عن حركات خفيفة تسرى في أعضاء النطق وأن الانسان يحس بهذا الكلام عن طريق حركات خفيفة تدب في الفم والذقن والحنجرة ٠٠ الخ ٠

كلام دون نطق ٠

والكلمات ـ وفقا لما سبق ـ مثيرات شرطية لعالم من الأشياء والأحداث ، والتفكير أداة لمعالجة عالم الأشياء عندما تكون هذه الأشياء غير ماثلة لحواسنا ، وهذا مما يضاعف قدراتنا ، انه يتيح لنا أن نصطحب عالمنا اليومى الى منامنا ونعالجه في الليل ، أو عندما تكون الأشياء بعيدة عنا بآلاف من الأميال (١) ٠

المنهج العلمى ودراسة المعنى :

كان بعض اللغويين يرى أن اللغة يمكن أن توصف دون لجوء الى المعنى البتة ، ولم يكن (بلومفيلد) يرى هذا الرأى ، فاللغوى ليس بامكانه أن يحدد ما اذا كان الشكل المنطوق مماثلا لشكل آخر أو مخالفا له الا بالرجوع الى المعنى ٠

وقد كان بعض اللغويين يرى أيضا أن المعنى هو أبعد جوانب اللغة عن الدراسة العلمية ، فاللغوى لا يمكنه أن يتحقق من فروضه باجراء التجارب أو نحوها حين يكون موضوعه متصلا بالمعنى من قريب أو بعيد ٠

ولعل هذا وذاك من وراء اهتمامه بالمعنى وايمانه بالمنهج السلوكى في دراسته ، ونقطة البدء عنده لدراسة هذا الموضوع هى أصعب النقاط ، وهى أن ننظر الى اللغة باعتبارها شكلا من أشكال السلوك البدنى ، ربما كان هذا مقررا اذا نظرنا الى جانبها المنطوق ولكن ما يحتاج الى بيان حقا اذا نظرنا اليها في جانبها الدلالى ٠

يرى (بلومفيلد) اذن نتجنب كثيرا من المنعطفات التى تميل بنا عن القصد ، اذا نظرنا الى الحدث الكلامى باعتباره سلوكا يقع في موقف عادى ٠

وقد أوضح بلومفيلد ما يعنيه بالموقف بقصة : كان (جاك) و (جيل) يعبران الطريق ، ثم ترى (جيل) تفاحة فتحدث أصواتا بحنجرتها ولسانها

---

(١) An introduction to genaral Lingistics, p. 242

وشفتيها ، يتسلق (جاك) شجرة ويحصل على التفاحة ويقدمها اليها فتلتهمها ٠ هذا الموقف يتألف من العناصر الآتية :

١ ـ أحداث عملية سابقة للكلام ٠

٢ ـ الكلام نفسـه ٠

٣ ـ أحداث عملية تالية للكلام ٠

وقد فسر (بلومفيلد) الأحداث المندرجة تحت رقم (١) تفسيرا سلوكيا على النحو الآتى :

كانت (جيل) جائعة أى : كانت عضلاتها تتقلص ، وكانت بعض العصارات تسيل وبخاصة في معدتها ، وما أثار (جيل) فسره على أن الموجات الضوئية المنبعثة من التفاحة كانت تصطدم بعينى (جيل) ٠

أما الأحداث العملية التالية للكلام فيطلق عليها : استجابة السامع ٠

ولو كانت (جيـل) وحدها لما أصبح الكلام عنصرا من عناصر الموقف ولكانت حصلت على التفاحة بنفسها ٠

ويطلق بلومفيلد على العوامل التى وجهت رغبة (جيل) الى الحصول على التفاحة : مثيرات S ويطلق على سعيها من أجل الحصول عليها لنفسها : استجابة عادية R

والربط بين الأمرين يمكن تصويره بسهم على النحو الآتى :

S——————————R

أما وقد تصادف أن كان (جاك) موجودا ، وكان بمقدور (جيل) أن تستخدم الكلام بدلا من قيامها بنفسها بالحصول على التفاحة R فان الكلام في هذه الحالة يصبح استجابة بديلة بالنسبة لها ، ويمكن هنا أن نرمز له بـ r على حين يصبح الكلام في الموقف السابق بالنسبة لجاك مثيرا بديلا ، ويرمز له بـ S ويمكن توضيـح الموقف السـابق برمتـه على

النحو الآتى :

S ——— r ..... s ——— R

ومن الواضح أن الفجوة التى بين المتكلم والسامع : الفجوة التى تفصل بين جهازيهما العصبيين قد سدتها الموجات الصوتية أى الكلام ، وبعبارة أخرى : لقد كا نالكلام هو الوسيلة لعقد اتصال بين المتكلم والسامع ، وهذا النظام يجعل البشر قادرين على التفـاهم فيما بينهم بشـكل أفضل مما هو موجود لدى الحيوان (١) ٠

وقد كان (بلومفيلد) يرى أن عملية انتاج الكلام والمشار اليها في الرسم البيانى السابق بالنقاط عملية واضحة ، أما العمليات السابقة أو التالية له والتى يشار اليها بالسهمين فقد رأى أنها عمليات رمزية غير واضحة وتحتاج الى بيان ٠

وقد قدم بلومفيلد موجزا نقديا لنظريتين أساسيتين متعارضتين في تفسير هذه العمليات الرمزية هما : النظرية العقلانية Mentalism والنظرية الميكانيكية أو الآلية Mechanism

أما النظرية الأولى فيرى أنصارها أن تنوع السلوك الانسانى يرجع الى تدخل عامل غير فيزيائى هو الروح أ والعقل أو الرغبة ٠٠ هذا العامل موجود لدى كل مخلوق بشرى ، ويختلف هذا العامل تماما عن الأشياء المادية ، ولا تخضع له هذه الأشياء من قانون السبب والنتيجة ٠

ويقول أنصار هذه النظرية بحدوث عملية غير فيزيائية ـ قبل نطق أى شكل لغوى ـ في داخل المتكلم ، قد تكون فكرة أو مفهوما أو صورة ذهنية أو شعورا أو رغبة ٠٠ الخ ٠

ويقولون أيضا بحدوث عملية مماثلة عند السامع بعد استقباله الموجات الصوتية ٠ واذا ما صح هذا التفسير فيصبح في مقدور (العقلانى) أن يحدد معنى الشكل اللغوى على أنه حدث عقلى متميز يقع في داخل المتكلم حين ينطق

---

(١) See, Dinneen. An Introduction to general Linguistics. p. p. 245. 246

شكلا لغويا ، وفي داخل السامع عندما يسمع هذا الشكل ٠

فالمتكلم الذى ينطق كلمة (تفاحة) مثلا لديه صورة عقلية لتفاحة ، وحين ينطق بها يثير لدى السامع صورة مماثلة للتفاحة ٠ ومن هذا المنطلق تكون اللغة ـ عند العقلانيين ـ تعبير عن أفكار أو مشاعر أو رغبات (١) ٠

أما النظرية الثانية فيرى أنصارها أن تنوع السلوك الانسانى ـ ومنه الكلام ـ راجع فحسب الى أن الجسم الانسانى خاضع لنظام معقد جدا ، وما يقوم به الانسان من أفعال ما هو الا جزء من قانون السبب والنتيجة وهذا هو ما نلاحظه في الطبيعة والكيمياء ، ومن هنا كان من المرغوب فيه عندهم أن يفسر السلوك الانسانى وفقا لقواعد علمى الطبيعة والكيمياء ٠ وهم يرون أن الجسم الانسانى ذو تركيب معقد جدا الى درجة أن أى تغير واقع عليه (مثل اصطدام موجات ضوئية منبعثة من تفاحة حمراء على شبكية العين) يحدث سلسلة معقدة جدا من التغيرات (مثل تقلص العضلات وسيلان العصارات في المعدة ٠٠) ان أى تغير في حالة الجسم يمكن أن يؤدى الى تغيرات متنوعة في الاستجابة ٠

وما دام الجسم الانسانى خاضعا للفعل ورد الفعل فمن الممكن أن نتنبأ بالسلوك الانسانى وعلى سبيل المثال يمكن أن نتنبأ بما يمكن أن يدفع انسانا الى الكلام ، واذا ما تكلم يمكن أن نعرف الكلمات التى سوف ينطقها ، يتحقق ذلك اذا ما عرفنا الحالة الدقيقة لجسمه في التو واللحظة ٠ أو الحالة التى كان عليها في الماضى ، ومن ثم يكون لدينا سجل لكل تغير يحدث لأعضائه وللمثيرات التى لها تأثير عليه ٠

وأصحاب هذه النظرية لا يقبلون الحل الذى يقدمه العقلانيون والذى مضمونه أن المعنى حدث عقلى في ذهن المتكلم والسامع ، وأن اللغة تعبير عن أفكار أو مشاعر أو رغبات لا يرتضى هؤلاء هذه الحلول ، ويرون أن العمليات العقلية السابقة ما هى الا عمليات بدنية ، وما يتعلق باللغة يمكن أن نضعه

---

(١) Dinneen, An Introduction to general Linguistics, p. p. 246, 248

في انماط ثلاثة :

١ ـ عمليات واسعة النطاق ومتماثلة جدا عند مختلف الناس ، ولها أهمية اجتماعية ، وهذه العمليات تمثلها الأشكال اللغوية العرفية الآتية : أنا جائع غاضب خائف سعيد ، رأسى تؤلمنى ٠٠ الخ ٠

٢ ـ عمليات غامضة ومتنوعة تنوعا شديدا : تقلص عضلى وافراز غدى تختلف من شخص الى شخص وليس لها أهمية اجتماعية مباشرة ، ولا تمثلها أشكال كلامية عرفية ٠

٣ ـ حركات غير صوتية لجهاز النطق تحل محل حركات النطق الفعلى ولا يدركها الآخرون حسيا (التفكير في كلمات) ٠

ويرى أنصار هذا المذهب أن العمليات الأولى أحداث للمتكلم يمكن أن يلاحظها أفضل من أى شخص آخر (فأنا مثلا أخبر من غيرى بشعورى بالجوع حين أقول أنا جائع) ومن مشكلات الدلالة في هذا الجانب أن يقول طفل مثلا : أنا جائع ، وليس جائعا حقا وانما يريد الانصراف من المدرسة ٠

أما العمليات المشار اليها تحت رقم (٢) فهى عادات خاصة باقية كآثار ناتجة عن التعلم والخبرات والتجارب الخاصة بكل فرد ، والمتكلم يتحدث عنها كتصورات أو مشاعر ٠ وهى لا تختلف من متكلم الى متكلم فحسب بل تختلف كذلك من موقف كلامى الى موقف كلامى آخر فالمتكلم الذى يقول : لدى صورة عقلية لتفاحة يقول في الواقع : لقد كنت مستجيبا لمثير داخلى غامض من نوع كان مرتبطا في وقت ما بمثيرات لتفاحة في تاريخى الماضى ٠

أما الكلام دون صوت المشار اليه برقم (٣) فليس الا عادة ثانوية للنطق الكلامى الفعلى عندما نكون واثقين من أن المتكلم قد أدى بشكل غير مسموع الحركات النطقية لمنطوق محدد (أى فكر فيه بكلمات) ونحن نواجه المشكلة نفسها تماما عندما ينطق بشكل مسموع الشكل الكلامى ذاته ٠ ومحصلة ذلك كله أن العمليات العقلية تبدو لأنصار هذا المذهب على أنها مجرد مصطلحات

تقليدية لعمليات بدنية (١) ٠

علم اللغة بين الاستقلال والتبعية :

لقد كان بلومفيلد - كما قلنا سابقا - حريصا على أن يجعل الدراسة اللغوية علمية أى خاضعة للمنهج العلمى كما كان مفهوما في عصره ، وكان حريصا كذلك أن يكون مستقلا عن غيره من العلوم ، ولكن معالجته لموضوع المعنى لا تكشف عن استقلال هذا العلم ٠

لقد عرف (بلومفيلد) المعنى بأنه الموقف الذى ينطق فيه الكلام والاستجابة التى يستدعيها عند السامع ، وهذا يعنى أن الأحداث العملية السابقة للكلام والتالية له داخلة في اطار دراسة المعنى لأنها عنصر من عناصر الموقف ، وحين نضع في الاعتبار ما يقصده (بلومفيلد) من الأحداث العملية السابقة والتالية للكلام نتبين أننا سوف ندرس وقائع ذات وجود خارجى ولا ندرس اللغة في ذاتهـــا ٠

والمعروف أن (بلومفيلد) يعطى أهمية كبيرة للمعنى في الدراسة اللغوية فالكلام المنطوق لا أهمية له في ذاته ، وانما يكتسب أهميته حين يكون له معنى ، وهو يعد الدراسة التى تعالج أصوات الكلام دون اعتبار للمعانى التى تحملها دراسة تجريبية ٠ ونحن لا نبين أوجه التماثل أو الخلاف بين الأشكال اللغوية الا اذا وضعنا المعنى في الاعتبار ، ولا يمكننا كذلك أن نحدد الخصائص المميزة لأى منطوق اذا وضعنا في الاعتبار المستوى الصوتى المحض ، ومن رأيه أننا لكى نتعرف على الخصائص المميزة للغة ينبغى أن ننحى جانبا موضوع علم الأصوات المحض ونتصرف كما لو كان العلم قد تقدم تقدما عظيما ليحدد لنا كل المواقف والاستجابات التى تؤلف معنى الأشكال الكلامية (١) ٠

المعنى اذن هو الذى يتيح لنا دراسة الأشكال اللغوية - وهو مع ذلك - نقطة الضعف في الدراسة اللغوية ، وسوف يظل - كما يقول - كذلك حتى تتقدم

---

(١) See Dineen, An Introduction to genero! Linguistics, p. p. 246, 248

(٢) See, Dinneen, An Introduction to General Linguistics, P. 247

المعرفة الانسانية وتتجاوز حالتها الحاضرة ، وفي نهاية هذه الفقرة يقرر أننا في الواقع حين نحدد معنى شكل لغوى نحدده في ضوء علم آخر · وهذا مؤداه كما يقول (دينين) أن علم اللغة ـ كما فهمه بلومفيلد ـ لن يكون أبدا مستقلا تماما اذا ما تطلب هذا المفهوم أن تكون الأشكال والمعانى وما بينهما من روابط هى الحقل المطلوب للعمل اللغوى(١) ·

٣ ـــ فيرث

مالينوفســـكى :

لا جدال بين اللغويين في أن نظرية (فيرث) في المعنى من أهم ما ينسب اليه من انجازات في مجال علم اللغة ، وقد اعتمدت هذه النظرية على أسس أكتشفها العالم الأنثروبولوجى (مالينوفسكى) الذى جرت معظم أبحاثه في جنوب المحيط الهادى بين سكان جزر (تروبرياند) وهناك ظهر اهتمامه بالمشكلات اللغويـــة ·

لقد تبين له أنه من المستحيل عليه أن يترجم عددا كبيرا من العبارات التى كان يستخدمها سكان هذه الجزر كلمة كلمة الى اللغة الانجليزية ، وبخاصة العبارات التى لها علاقة بدينهم أو التى لها أهمية ثقافية خاصة ، وعند محاولته حل هذه المشكلة وجد نفسه ـ دون قصد ـ يصوغ نظرية في اللغة والمعنى (١) ·

ومصطلح المقام Context of Situation هو المصطلح الذى يعبر عن آرائه الأساسية فيما يتصل بالطريقة التى ينبغى أن تدرس بها معانى اللغة ، وقد تبنى (فيرث) هذا الرأى وطوره ، وهذا الرأى ليس بعيدا عن (الصيغة السلوكية) ، لأنه يدعى أن معنى أى منطوق هو ما يقع في موقف خاص ، وهذا ـ بصراحة ـ يترجم الى الحوادث العملية التى تعقب المنطوق اللغوى عند بلومفيلد (١) ·

وثمة أفكار أخرى ـ عن طبيعة اللغة ، وكيف ينبغى أن توصف ـ أعلنها

---

(١) See, Dinneen, An Introduction to general Linguistics, P. 247

(٢) See, Dinneen, An Introquction to general Linguistics, p. 299

(مالينوفسكى) لقد رأى أن الجملة هى المادة الأساسية في اللغة ، أما الكلمة فليست الا فكرة ثانوية مجردة ، وعرف الجملة بأنها : منطوق ينتهى بصمت أو وقفة مسموعة · ومع أنه يعترف بأن تحديد معنى الكلمة المفردة مشكلة صعبة فانه يقرر أنها ليست المشكلة الأولى ، ان الحقيقة اللغوية الواقعية في اللغة هى المنطوق الكامل في اطار المقام ، ولهذا كانت الجملة عنده أكثر أهمية باعتبارها أداة اجتماعية ، وقد قرر - بناء على هذا - أننا ينبغى أن ندرس اللغة باعتبارها طريقة عمل لا صورة رمزية للتفكير · اللغة أداة للنشاط الاجتماعى والتعاون المشترك ، ومعنى أى منطوق في عدد من المواقف الخاصة - أن ندرس تأثيره في محيطه ، ولهذا قرر غير مرة أن المعنى هو الاستعمال ، ومزية هذا المنهج - في رأى فيرث - أنه يخلصنا من شراك المعنى الاشارى (الذى تكون الكلمات فيه بدائل عن الأشياء في العالم الخارجى) ·

ولأن المجتمعات لها خصائصها الفردية ولغاتها الخاصة ، والمواقف التى يستخدمون فيها اللغة هى الأخرى لها خصائصها الفردية فربما يبدو لنا أن الترجمة قد تكون مستحيلة · كان هذا هو موقف (مالينوفسكى) وبخاصة في المواقف اللصيقة بالمجتمع ، لقد أحس أن الصعوبة ليست كبيرة بين الأوربيين الذين يعيشون - بشكل عام - في ظل ثقافة مشتركة ، لكن الفجوة بينهم وبين سكان جزر (تروبرياند) تجعل المشكلة خطيرة · وقد سبقت الاشارة الى أن اللغات المختلفة تعكس ثقافات أو عوالم مختلفة ·

واللغة - عنده - عملية (براجماتية) ولهذا يمكن أن توصف بأنها مجموعة من رموز للأشياء (مفردات معجمية) منتظمة في طائفة من العلاقات (قواعد) · والمعنى اذا هو أثر الكلمات على عقول الناس أو أجسامهم ، ومن خلال ذلك - على الواقع البيئى كما هو مخلوق أو مدرك في ثقافة معينة (١)

فيـــرث :

تستحق أعمال (فيرث) ومدرسته المعروفة بمدرسة لندن اهتماما كبيرا

---

(١) See, Dinneen, An Introduction to general Linguirtics. p. p. 201 203

من اللغويين ، لقد كانت هذه الأعمال من جهة معارضة لتقاليد الدراسة اللغوية في أمريكا وبخاصة أعمال بلومفيلد ، ومن جهة أخرى كانت تشترك في المواقف - وبخاصة ما يتصل ببنية اللغة - مع المبادىء التى قررها دى سوسير ٠

حقا لقد استعار (فيرث) فكرة دراسة اللغة في المواقف الفعلية من مالينوفسكى ، ولكنه - مع ذلك قد صقلها ونماها ، ووضع المنهج الذى ينبغى أن يلتزم في دراسة اللغة وفق مستويات محددة تشمل كل العناصر اللغوية (١) ٠

وكان من رأى (فيرث) أن اللغة ذاتها تستطيع أن ترشدنا الى الطريق القويم في دراستها ، وذلك بالاعتماد التام على حقائقها ، كما تبدو في الصورة التى عليها دون الاستعانة بأية وسائل أو مبادىء ثانوية ، ولهذا رأى أن الملاحظة المباشرة هى أساس العمل الذى يبدأ بوصف الظواهر اللغوية ومحاولة تقعيدها وفقا لخصائصها ووظائفها في التركيب (٢) ٠

وموضوع علم اللغة عنده هو اللغة في موقف كلامى فعلى ، لأن استخدام اللغة ما هو الا شكل من أشكال الحياة الانسانية ٠

وهدف البحث في اللغة أن نحدد أو نوضح جوانب اللغة ذات الدلالة بطريقة تمكن اللغوى وغير اللغوى من الاتصال بها ٠

ومنهج الدراسة يقوم على أساس تحديد عناصر النشاط اللغوى وبيان علاقاته في سلسلة من المستويات المتكاملة تكشف عن العلاقات المتبادلة فيما بينها (٣) ٠

وقد حدد الدكتور بشر منهج (فيرث) ومدرسته بدقة وايجاز بقوله : واذا كان لنا أن ننعت مدرسة بنعت موجز يشير الى أبرز خواصها جاز لنا أن نقول بأنها « المدرسة الشكلية التركيبية Formalistic - Structuralistic

---

(١) Dinneen, An Introduction to Generol Linguistics, P. 303

(٢) بشر (د٠ كمال) دراسات في علم اللغة ص ١٧٢ ٠

(٣) ee. Dinneen. An Introduction to general Linguisics p. 30 3

ومعناه أنها طريقة من البحث تعنى في المقام الأول بتسجيل الحقائق اللغوية وفقا للصور الشكلية والأنماط الحقيقية للصيغ الكلامية في التركيب (١) ٠

يقال هذا مع أن (فيرث) نفسه ينكر بشدة أنه (تركيبى) بمعنى الانحياز الى مبـادىء الفونيميين Phonemicists ، ولكنه في الحقيقـة (تركيبى) بالمعنى الذى أرساه دى سوسير ، هذا ومصطلح تركيب أو بنية structure وما اشتق منه يشير ـ عنده ـ الى علاقات سياقية أو أفقية ، أما مصطلح نظام System وما اشتق منه فيشير الى علاقات جدولية أو رأسية ٠ ومن الجدير بالذكر هنا أن (دى سوسير) قد ناقش هذين النوعين من العلاقات مناقشة مستفيضة (٢) ٠

ان تحليلأو دراسة المقام يتطلب دراسة نوعين من العلاقات :

ـ علاقات داخلية بين عناصر الحديث اللغوى في ذاته وهى نوعان :

(ا) علاقات سياقية أو أفقية بين عناصر أو وحدات التركيب مدروسة وفق مستويات تحليلية متعددة ٠

(ب) علاقات جدولية أو رأسية للمفردات أو الوحدات التى يحل كل عنصر منها محل الآخر في اطار نظام محدد لتعطى قيما محددة لعناصر التركيب ٠

ـ علاقات داخلية في اطار الموقف الذى يتم فيه الحدث ، وهى نوعان :

(ا) النص في اتصاله بالمكونات غير اللّفظية مع تأثيره الكلى أو ثمرته المحددة ٠

(ب) علاقات تحليلية بين أجزاء النص (الكلمات أو العبارات أو أجزاء الكلمات) ومكونات خاصة في الموقف نفسه (أشياء أو أشخاص أو أحداث) ٠

والمكونات الأساسيـة للمعنى الكامل أو المركب هى وظيفـة الأصـوات

---

(١) بشر (د٠ كمال) دراسات في علم اللغة ص ١٧٢ ٠

(٢) Dinneen, An Introduction to general Linguistics, p. 305

والعناصر المعجمية والصرفية والنحوية والموقف بتمامه (١) ٠

وهكذا نتبين أن المعنى هو هدف الدراسة اللغوية ، وفي هذا يقول الدكتور بشـــر :

وغنى عن البيان أن نقول ان المعنى اللغوى لا يعدو أن يكون مجموعة الخصائص والميزات اللغوية للكلمة أو العبارة أو للجملة ، وهذا يعنى بالطبع أن كل فروع علم اللغة انما توجه لدراسة المعنى وتختص بالنظر فيه ، فدراسة الصوت اللغوى كنوع من الضوضاء فرع من فروع علم الطبيعة ، ولكن دراسة الاستعمال ذى النظم الخاصة للأصوات الانسانية (كما يستعملها العربى بصورة تختلف عما يفعله الانجليزى) معناها بيان المعنى اللغوى الذى عن طريقه يحافظ المتكلم على نمط مميز من الحياة ، أو بعبارة أخرى ، يجب أن تستعمل أصواتا عربية اذا كانت حياتك لها معنى عربى ان استعمال الأصوات اللغوية بالطريقة العربية جزء من معنى الرجل العربى ، وكذلك الحال في المعنى الصرفي وغيره من المعانى (٢) ٠

والعناصر التى تحدد (المقام) هى ما يأتى :

(ا) ما يتصل بالمشتركين في الكلام من ظواهر : الأشخاص وسماتهم الشخصية ويندرج تحت هذا :

١ ـ الكلام الفعلى للمشتركين ٠

٢ ـ أعمال هؤلاء المشتركين ٠

(ب) الأشياء أو الموضوعات المتصلة بالكلام ٠

(حـ) آثار الكلام الفعلى (٣) ٠

ولنأخذ مثالا لتوضيح أهمية المقام في بيان المعنى ٠

---

(١) Dinneen, An Introduction to general Linguistics, p. 192, 195

(٢) دراسات في علم اللغة ق ٢ ص ١٧٨ ٠

(٣) Dinneen. An Introduction to general Linguistics. p. 307

قد يستقبل صديق صديقه الذى طالت غيبته بالأحضان ومع ذلك ينهال عليه بسيل من الشتائم : يا جبان يا نذل ٠٠٠ الخ فاذا ما اقتصرنا على معانى هذه الألفاظ المعجمية فسوف نخطىء في فهم الموقف ، أما اذا درسنا المقام بمن فيه وما فيه وكل ما يتصل به فسوف نفهم الموقف فهما صحيحا ، سوف نكتشف أن هذه الألفاظ أبعد ما تكون عن الشتيمة والذم وأقرب ما تكون الى التودد والتلطف ٠

مراحل أو خطوات التحليل اللغوى :

الكلام اللغوى عند (فيرث) مكون من أحداث ، وهذه الأحداث معقدة مركبة ليس من السهل دراستها وتحليلها دفعة واحدة بل يجب تشقيقها والنظر اليها على مراحل ٠٠ هذه المراحل أو الخطوات التى يجب اتباعها عند تحليل الأحداث اللغوية هى فروع علم اللغة ، والنتائج التى تصل اليها هذه الفروع يتصل بعضها ببعض اتصالا وثيقا ، ولا يجوز الفصل بينها الا بقدر وفي ظروف خاصة ، والوظيفة الأساسية لعلم اللغة بفروعه هى : بيان المعنى اللغوى الكامل ٠

ويوضح الدكتور بشر هذه الخطوات على النحو الآتى :

ان كلمة (ولد) مثلا لها معنى مركب هو مجموع عدة وظائف وخصائص يبينها التحليل الآتى :

١ ـ (ولد) لها وظيفة صوتية أو معنى صوتى ، وهى كونها مركبة من هذه العناصر الصوتية الموجودة بها ٠٠ أى أن تكون هذه الكلمة بهذه الصورة الصوتية بالذات جعل لها معنى خاصا يختلف عن كلمة (بلد) مثلا ٠

٢ ـ (ولد) لها معنى قاموسى ، فهى مقابل استبدالى لكلمات معينة مثل : بلد ، وجد ، ولع وهى لذلك تستعمل استعمالا مخالفا لها ٠٠ وعلى سبيل المثال يمكننا أن نقول (ولد نحيل) ولكن لا نقول (بلد) نحيل في الاستعمال العادى ٠

٣ ـ (ولد) لها معنى صرفي ٠ وهذا لا يمكن الوقوف عليه الا بعد القيام

بعملية احصائية للسياقات التى تستعمل فيها هذه الكلمات ، ويمكن الاشارة الى بعض هذه السياقات عن طريق وضعها فيما نسميه التوزيع الشكلى للكلمة ٠

(١)	(٢)
فعل	اسم
ولد	ولدٌ
ولدت	ولدان
ولدن ... الخ	أولاد ... الخ

فجزء من معنى (ولد) أنها تكون فعلا وتكون اسما ، وفي الحالة الأولى قد تسند الى المذكر أو المؤنث ٠٠ الخ وفي الحالة الثانية قد تكون مفردا أو مثنى أو جمعا ٠٠ الخ ٠

٤ - (ولد) لها معنى نحوى ، ومعرفة هذا المعنى تكون عن طريق بيان خصائصها النحوية أى وظيفتها في الجملة ٠ نقول مثلا : ولدت المرأة ، والمرأة ولدت ، كما نقول : ولد كبير أو ذلك ولد ٠٠ الخ ٠

٥ - (ولد) لها معنى اجتماعى وهو مبحث علم الدلالة عند أصحاب هذه المدرسة ، وبيان هذا المعنى يتم بطريق تتبع هذه الكلمة (اسما أو فعلا) في الاستعمالات المختلفة في البيئة الاجتماعية الخاصة ، وذلك يعتمد بصورة أساسية على الموقف أو المقام اللغوى الذى أشير اليه سابقا (١) ٠

---

(١) ملخص بتصرف أنظر : دراسات في علم اللغة ص ١٧٥ - ١٧٨ ٠

المراجـــع

(ا) المراجع العربية والمترجمة

ـ ابن جنى (أبو الفتح عثمان) ٠

(الخصائص) تحقيق الشيخ على النجار ، مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٥٢ ٠

ـ ابن حزم (أبو محمد على بن أحمد)

(الاحكام في أصول الأحكام) بعناية أحمد شاكر مكتبة الخانجى ٠

ـ ابن خلدون (عبد الرحمن) ٠

(المقدمة) طبعة دار الشعب ٠

ابن سلام (أبو عبد الله محمد) ٠

(طبقات فحول الشعراء) تحقيق الشيخ محمد محمود شاكر ، مطبعة المدنى ٠

ابن فارس (أبو الحسن أحمد) ٠

(الصاحبى) تحقيق السيد صقر ٠

ـ ابن يعيش (موفق الدين يعيش بن يعيش) ٠

(شرح المفصل) المطبعة المنيرية ٠

ـ أبو الفرج (د٠ محمد أحمد)

(مقدمة لدراسة فقه اللغة) دار النهضة العربية ٠ بيروت ط١ ١٩٦٦ ٠

ـ الأزهرى (الشيخ خالد بن عبد الله) ٠

(شرح التصريح على التوضيح) المطبعة الأزهرية ط٣ ١٩٢٥ ٠

ـ الأنبارى (أبو البركات) ٠

(نزهة الألباء في طبقات الأدباء) تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ، دار نهضة مصر ٠

ـ أنيس (د٠ ابراهيم) ٠

(الأصوات اللغوية) ط٣ مكتبة الانجلو المصرية ٠

(اللغة بين القومية والعالمية) دار المعارف بمصر ١٩٧٠ ٠

ـ أيوب (د٠ عبد الرحمن) ٠
(اللغة والتطور) معهد الدراسات العربية ١٩٦٩ ٠
(محاضرات في اللغة) مطبعة المعارف بغداد ١٩٦٦ ٠
(دراسات نقدية في النحو العربى) مكتبة الانجلو المصرية ١٩٥٧ ٠
(التفكير اللغوى عند العرب) مجلة مجمع اللغة العربية القاهرة عدد ٢٤ يناير ١٩٦٩ ٠

ـ باى (ماريو) ٠
(أسس علم اللغة) ترجمة د٠ أحمد مختار عمر ، منشورات جامعة طرابلس ١٩٧٣ ٠
(لغات البشر) ترجمة د٠ صلاح المغربى ٠ قسم النشر بالجامعة الأمريكية بالقاهرة ١٩٧٠ ٠

ـ بشر (د٠ كمال) ٠
(علم اللغة العام : الأصوات) دار المعارف ط ٣ ١٩٧٣ ٠
(دراسات في علم اللغة) القسم الثانى ٠ دار المعارف ط ٢ ١٩٧١ ٠

ـ بن عيسى (د٠ حفى) ٠
(محاضرات في علم النفس اللغوى) الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ط ٢ ١٩٨٠ ٠

ـ بيلز (رالف) و (هويجر) هارى ٠
(مقدمة في الأنثروبولوجيا العامة) ترجمة د٠ محمد الجوهرى ، د٠ السيد محمد الحسينى دار نهضة مصر ١٩٧٦ ٠

ـ الثعالبى (أبو منصور) ٠
(فقه اللغة وسر العربيـة) تحقيق مصطفى السقا وآخرين مكتبة ومطبعـة مصطفى البابى الحلبى ١٩٧٢ ٠

ـ حسـان (د٠ تمام) ٠
(الأصول) دار الثقافة ٠ الدار البيضاء ٠
(اللغة بين المعيارية والوصفية) الانجلو المصرية ١٩٥٥ ٠

(اللغة العربية معناها ومبناها) الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٣ ٠

ـ خرما (د٠ نايف) ٠
(أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة) عالم المعرفة (٩) الكويت ١٩٧٨ ٠

ـ الخولى (د٠ محمد على) ٠
(أساليب تدريس اللغة العربية) الرياض ١٩٨٢ ٠
(التراكيب الشائعة في اللغة العربية) دار العلوم للطباعة والنشر بالرياض ١٩٨٢ ٠

ـ دور كايم (اميل) ٠
(قواعد المنهج في علم الاجتماع) ترجمة د٠ محمود قاسم ٠ مكتبة النهضة المصرية ١٩٦١ ٠

ـ الراجحى (د٠ عبده) ٠
(فقه اللغة في الكتب العربية) دار النهضة العربية بيروت ١٩٧٢ ٠

ـ زكريا (د٠ فؤاد) ٠
(التفكير العلمى) عالم المعرفة (٢) الكويت ١٩٧٨ ٠

ـ الرضى (محمد بن حسين) ٠
(شرح الكافية) مطبعة الشركة الصحافية العثمانية ١٣١٠هـ ٠
(شرح الشافية) تحقيق محمد نور الحسن وآخرين دار الكتب العلمية بيروت ١٩٧٥ ٠

ـ سيبويه (أبو بشر عمرو بن عثمان) ٠
(الكتاب) تحقيق عبد السلام هارون ٠ الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٦٦ ـ ١٩٧٧ ٠

ـ السيوطى (جلال الدين) ٠
(المزهر) تحقيق محمد أحمد جاد المولى وآخرون ٠ دار احياء الكتب العربية ط ٣ ٠

(همع الهوامع) صححه بدر الدين النعسانى ط ١ مكتبة الخانجى ١٣٢٧هـ ٠

- شاهين (د٠ عبد الصبور) ٠
(في علم اللغة العام) مطبعة المدنى ط (٢) ١٩٧٧ ٠

- شـــادة ٠
(علم الأصوات عند سيبويه وعندنا) صحيفة الجامعـة المصرية ، السنـة الثانية ، العدد الخامس مايو ١٩٣١ ٠

- صالح (د٠ أحمد زكى) ٠
(التعلم أسسه ونظرياته) مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٩ ٠

- عبد التواب (د٠ رمضان) ٠
(فصول في فقه العربية) دار التراث القاهرة ط ١ ، ١٩٧٣ ٠

عثمان (د٠ سيد) و أبو حطب (د٠ فؤاد) ٠
(التفكير دراسات نفسية) مكتبة الانجلو المصرية ط ٢ ١٩٧٠ ٠

عساكر (د٠ خليل) ٠
(الأطلس اللغوى) مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة الجزء السابع ٠

- العقاد (عباس) ٠
(أشتات مجتمعات في اللغة والأدب) دار المعارف ط ٤ ٠

- غالى (د٠ محمد محمود) ٠
(أئمة النحاة في التاريخ) دار الشروق ١٩٧٦ ٠

- فخرى (ماجد) ٠
(أرسطو) الأهلية للنشر والتوزيع بيروت ط ٢ ١٩٧٧ ٠

- فنـدريس ٠
(اللغة) ترجمة عبد الحميد الدواخلى و د٠ محمد القصاص ، مكتبة الانجلو المصرية ١٩٥٠ ٠

- فهمى (د٠ مصطفى) ٠
(أمراض الكلام) مكتبة النهضة المصرية ٠

- فيجوتسكى ٠
(التفكير واللغة) ترجمة د٠ طلعت منصور ، مكتبة الانجلو المصرية ١٩٧٦ ٠

- فيشـــر ٠
(المعجم اللغوى التاريخى) مجمع اللغة العربية بالقاهرة ١٩٦٧ ٠

- القاسمى (د٠ على محمد) ٠
(اتجاهات حديثة في تعليم العربية للناطقين باللغات الأخرى) جامعة الرياض ١٩٧٥ ٠
(علم اللغة وصناعة المعجم) مطبوعات جامعة الرياض ١٩٧٥ ٠

- كريستـــال ٠
(التعريف بعلم اللغة) ترجمة د٠ حلمى خليل الهيئة العامة للكتاب الاسكندرية٠

- كندراتوف (ا) ٠
(الأصوات والاشارات) ترجمة شوقى جلال ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٤ ٠

- لويس (م٠م) ٠
(اللغة في المجتمع) ترجمة د٠ تمام حسان ، دار احياء الكتب العربية ١٩٥٩ ٠

- المازنى (أبو عثمان) ٠
(التصريف) شرحه ابن جنى في كتابه (المنصف) تحقيق ابراهيم مصطفى وعبد الله أمين ، دار احياء التراث القديم ط ١ ١٩٥٤ ٠

- المبارك (محمد) ٠
(فقه اللغة وخصائص العربية) دار الفكر الحديث لبنان ١٩٦٤ ٠

- مختار عمر (د٠ أحمد) ٠
(دراسة الصوت اللغوى) عالم الكتب ١٩٧٦ ٠
(البحث اللغوى عند العرب) دار المعارف بمصر ١٩٧١ ٠

- مصلوح (د٠ سعد) ٠
(عن مناهج العمل في الأطالس اللغوية) حوليات دار العلوم العدد الخامس ١٩٧٤ - ١٩٧٥ ٠

ـ مونين (جورج) ٠
(تاريخ علم اللغة) ترجمة د٠ بدر الدين القاسم ، دمشق ١٩٧٢ ٠

ـ النجار (محمد على) ٠
(الأخطاء اللغوية الشائعة) ح ١ معهد الدراسات العربية القاهرة ٠

ـ واقي (د٠ على عبد الرحمن) ٠
(فقه اللغة) دار نهضة مصر ط ٨ ٠
(علم اللغة) دار نهضة مصر ط ٧ ٠

المراجع الأجنبية

— C. L. Barber, The story of Language, ELBS edition, 1975 .

— L. Bloomfield, Language, Holt, Rinehart and winston , 1961 .

— D. Bolinger, Aspects of Language, Harcourt Brace Jovaovich Inco, 1975

— Crystal, Linguistics, penguin Books, 1968 .

— F. P. Dinneen, An Introduction to general Linguistics, Holt, Rinehar and winston, Newyork, 1971 .

— V. Fromkin and R. Rodman, An Introduction to Language, secondt edition, Holt, Rinehart and Winston, 1978 .

— H. A. Gleason, An Introduction to descriptive Linguistics, Holt Rinehart and Winston, 1961 .

— Halliday, Mc Intoch and Strevens, The Linguistic sciences and Language Teaching, ELBS edition, London 1975 .

— R. R. K. Hartmann and F. C. Stork, Dictionary of Language and Linguistics, London 1973 .

— R. A. Hudson, Socio Linguistics, Cambridge press, London 1980 .

— J. Lyons, Introduction to Theoretical Linguistics, Cambridge press, London, 1975 .

— Mackey, Appliep Linguistics .

— R. H , Robins, General Linguistics, An Introductory Survey, Third Impression, London 1960 .

" " A Short history of Language, London . 1967

— D. A. Wilkins, Linguistics in Language Teaching ELBS edition, 19

الفهـــرس

المقدمـــة	٥ — ٧
مبحث تمهيدى فى خصائص اللغة	٨ — ١٩
الباب الأول : التعريف بعلم اللغة	٢٣ — ٧٣
المبحث الأول : السمات الضرورية للدراسة العلمية	٢٥ — ٦٢
أولا : الوضوح والدقة	٢٥
ثانياً : النظامية	٤٠
ثالثا : الموضوعية	٤٦
رابعاً : الشمول واليقين	٦٠
المبحث الثانى : علم اللغة بين النظرية والطراز	٦٣ — ٧٣
الباب الثانى : علم اللغة بين العلوم والدراسات التطبيقية	٧٧ — ١٣٢
المبحث الأول : علم اللغة والعلوم	٨١ — ١٠٠
أولا : علم النفس	٨١
ثانياً : علم الاجتماع	٩٠
المبحث الثانى : علم اللغة والدراسات التطبيقية	١٠١ — ١٣٢
عمل المعاجم	١٠٢
أمراض الكلام وعلاجها	١٠٤
تعليم اللغات الأجنبية	١٠٩
تعليم اللغة القومية	١٢٢

الترجمة والترجمة الآلية	١٢٥
الاتصـــال	١٣٠
الباب الثالث : علوم اللغة	١٣٥
المبحث الأول : علم اللغة الوصفى	١٣٥ — ١٤٣
المبحث الثـانى : علم اللغة التاريخى	١٤٥ — ١٥٠
المبحث الثالث : علم اللغة المقارن	١٥١ — ١٥٤
المبحث الرابع : علم الجغرافيا اللغوية (علم اللهجات)	١٥٥ — ١٦٧
المبحث الخامس : علم اللغة العام	١٦٩ — ١٧٠
المبحث السادس : الفيلولوجيا وعلم اللغة	١٧١ — ١٩٥
أولا : عند الغربيين	١٧١
ثانياً : علاقة الفيلولوجيا وعلم اللغة بالبحث اللغوى عند العرب	١٧٦
الباب الرابع : التحليل اللغوى	١٩٩ — ٢٤٠
المبحث الأول : مستويات التحليل اللغوى	١٩٩ — ٢١٥
المبحث الثـانى : منهج مقترح لتحليل الوحدات اللغوية	٢١٧ — ٢٤٠
أولا : الوحدات اللغوية	٢١٩
ثانياً : التحليل اللغوى	٢٢٨
المعنى فى التحليل اللغوى	٢٣٤
الباب الخامس : موجز بتاريخ البحث اللغوى	٢٤٣ — ٣٢٦
المبحث الأول : تاريخ علم اللغة فى العصور القديمة	٢٤٧ — ٢٧٣
أولا : الهنـــود	٢٤٧
ثانياً : اليونان	٢٥٢

ثالثاً : الرومان ٢٥٥
رابعاً : العصر الوسيط (من القرن الرابع إلى القرن الرابع عشر) ٢٥٧
خامساً : العـــرب ٢٥٩
المبحث الثانى : تاريخ علم اللغة (فى العصور الحديثة) ٢٧٣ — ٣٢٦
أولا : عصر النهضة ٢٧٣
ثانياً : القرن السابع عشر ٢٧٤
ثالثاً : القرن الثامن عشر ٢٧٤
رابعاً : القرن التاسع عشر ٢٧٦
خامساً : علم اللغة الحديث (القرن العشرون) ٢٩٥
١ — دى سوسير ٢٩٥
٢ — بلومفيلد ٣١٠
٣ — فـــيرث ٣٢٠
المراجـــع ٣٢٧ — ٣٣٣